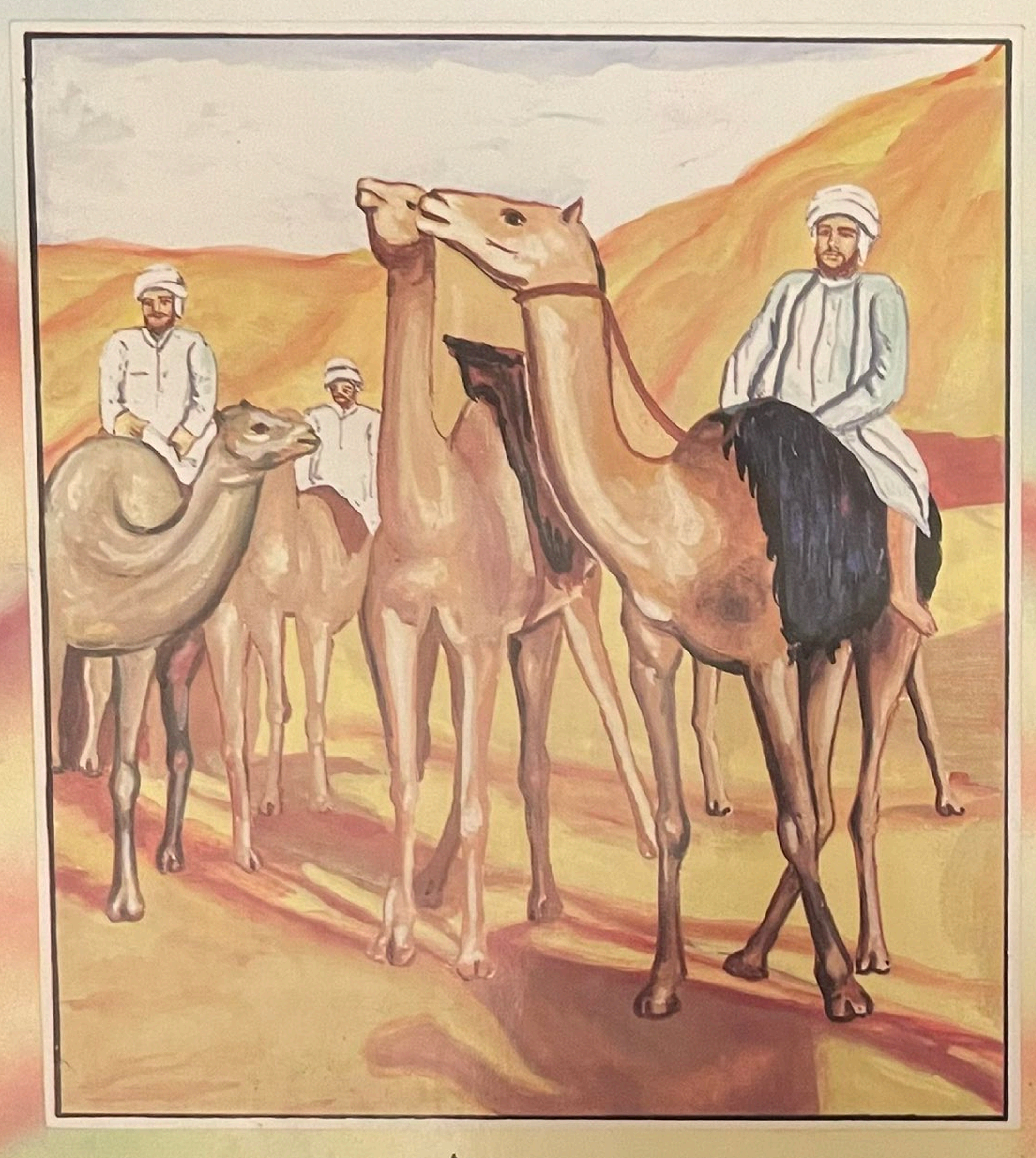
د. روبن بِدْول

الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية



ترجمة: د. عبد الله أدم نصيف

جامعة الملك سعود

الريـــــاض
١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

الإهــــــداء :

إلى أصدقـــــائي العرب الذين جعلوا الأيام التي قضيتها في بلادهم من أسعـــــد الأيام في حيـــــاتي ...

المحتويـــــات

الموضـــــــــوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة المترجـــم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين .

في هذا الكتاب ، الذي بين يدي القارىء ، معلومات مهمة ، فهو يشتمل على مشاهدات ، وملاحظات ، وانطباعات ، عن عدد من مدن الجزيرة العربية وقراها وسكانها وحكامها ، سطرها عدد من الرحالة الغربيين ، إثر قيامهم بجولات متعددة في أنحاء الجزيرة ... شمالها وجنوبها ... شرقها وغربها ، منذ القرن السادس عشر ، وليست هذه المشاهدات والملاحظات سوى جزء من تاريخ الجزيرة العربية : السياسي والحضاري والاقتصادي والاجتماعي كتبه مؤرخون معاصرون لتعريف القارىء الغربي بهذه البلاد وحضارتها .

وقد حدا بي إلى ترجمة هذا الكتاب أمران : الأول في اعتقادي أنه من حق القارىء العربي أن يعرف ما قاله غيره عن بلاده . والأمر الثاني أن المجهودات العلمية للرحالة الغربيين في الجزيرة العربية – المتمثلة في الكشف عن الآثار ومواقعها ونسخ النصوص القديمة ودراستها – أحد الموضوعات الهامة لمادة تاريخ الجزيرة العربية القديم التي أقوم بتدريسها في جامعة الملك سعود .

وأود الإشارة إلى أن هذا االكتاب يحتوي على تعبيرات غامضة هي من سمات أسلوب المؤلف ، وهو شيء يتفق مع ما صرح به هو نفسه في مقدمته ، من أنه سيحاكي أسلوباً سابقاً لأسلوب هذا القرن ، ولعله قصد بذلك أن يتماثل أسلوبه مع أسلوب الرحالة الذين كتب عنهم . وقد ورد في الكتاب عبارات نابية أو غير لائقة ، فلم أترجمها وقد أشرت إليها في داخل النص بنقط بين أقواس كما أنني تركت إعادة نشر بعض الصور لعدم أهميتها . كما أود الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى الشروحات والتعليقات الهامشية هناك شروحات قصيرة بين أقواس مربعة داخل المتن المترجم ، فهي وعبارة ﷺ ليست في الأصل .

وقبل أن أختم هذه الأسطر القليلة لا يفوتني أن أنوه بالدعم المادي الذي قدمته جامعة الملك سعود ممثلة في مركز البحوث بكلية الآداب ، مما يسر إعداد هذه الترجمة ، كما لا يفوتني أن أشكر مؤلف الكتاب الدكتور روبن بدول على الإذن لي بنقله إلى العربية .

ويطيب لي أن أقدم شكري لكل من ساهم في ظهور هذه الترجمة سواء كان من حيث التشجيع أو تقديم المشورة وأخص منهم : أ.د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري ، أ.د. عبدالقادر محمود عبدالله ، أ.د. عبدالله محمد الغذامي ، د. ربيع عمر بدير ، أ. نائل راغب ، أ.د. محمود اسماعيل صيني ، د. عمر سليمان العقيلي ، والحمد والشكر من قبل ومن بعد لله تعالى وليُّ التوفيق والسداد .

عبدالله آدم نصيف
قسم الآثار والمتاحف
جامعة الملك سعود

مقدمـــة المؤلـــف

من المحتمل أن يكون ما كُتب عن الجزيرة العربية ، أكثر مما كُتبَ عن أي جزء آخر من العالم ، ويختلف حجم هذه الكتابات ، ما بين مؤلفات كبيرة مثل كتاب تشارلز داوتي Doughty ، الذي احتوىٰ على ستمائة ألف كلمة ، وما بين مقالات مختصرة على صفحات الجرائد ، وكان اختياري لموضوعات هذا الكتاب اجتهاداً مني ، فقد أخترت ما رأيته مهماً أو مفيداً أو ممتعاً ، وآمل أن يوافقني القارىء فيما اخترت ؛ لقد آثرت هذا على أعمال علمية كثيرة عن الجزيرة العربية ، فموضوعات علم النبات ، أو علم الحيوان أو علم الجيولوجيا ليست بالموضوعات التي يمكن لغير المختصين قراءتها بسهولة . وقد كتبت هذا الكتاب ، إرضاءً لنفسي ، وأملي الوحيد هو أن يستمتع القارىء به كما استمتعت أنا به .

هناك أشياء ذُكِرَت في هذا الكتاب ، وقد لا يرضىٰ عنها أصدقائي العرب ، ولكن يجب أن أبين لهم أن عملاً كهذا ، يحتم علي أن أذكر أشياءً لست مسؤولاً عن كتابتها ، فإن كان هناك من الرحالة من لم تعجبه شعائر الحج ، أو لقي معاملة فظّة من البدو ، فإنني أذكرها هنا كما جاءت في كتبهم ، وفي نفس الوقت أقول إن تجربة هؤلاء الرحّالة مع العرب تختلف كلياً عن تجربتي معهم ، فأنا أكن إحتراماً كبيراً للمسلم الملتزم ، وقد استمتعت كثيراً بمصاحبة العرب من كل الطبقات وإنني على يقين بأن العرب يملكون من الثقة بالنفس والإدراك ما يمنعهم من أن يتأثروا بمثل تلك الهفوات ، كما أنني شغوف جداً بكتابة الكلمات الإنجليزية بالطريقة التي كانت تكتب بها في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد حافظت على ذلك بقدر الإمكان .

أما الأسماء العربية فقد حاولت كتابتها بطريقة سهلة ومبسطة للقارىء الإنجليزي العادي حاذفاً منها النقط والشرطات التي يستخدمها الأكاديميون المتحذلقون في كتابة هذه الأسماء مثل اسم «عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود» أما أسماء الأماكن فقد كتبتها حسبما هو مألوف ومعروف عند القارىء الإنجليزي مثل جدة Jeddah وما سوى ذلك فقد استخدمت طريقة أطلس التايمز .

روبـــن بدْوِل
مركز دراسات الشرق الأوسط
جامعة كمبردج

الجزيـــرة العربيـــة

لكي نتصور مسرح الأحداث الذي تنقّل عليه هؤلاء الرحّالة ، فإنه يجب علينا التعرف على جغرافية وتاريخ الجزيرة العربية . إن هذه الدراسة المختصرة ، ستتركز بصفة رئيسة على الجزء الذي تشغله حالياً المملكة العربية السعودية ، وبالأخص المنطقة الجنوبية الشرقية ، والمنطقة الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية ، كما سيظهر ذلك واضحاً خلال الفصول القادمة .

تغطي الجزيرة العربية منطقة مساحتها تقارب المليون ميل مربع ، ممتدةً على مسافة قدرها ١٤٠٠ ميل طولاً و ١٢٠٠ ميل عرضاً . وعلى طول الساحل الغربي تمتد سهول ضيقة ترتفع عالياً لتكون جبالاً يصل إرتفاع بعضها إلى ما يقارب من ١٠٠٠٠ قدم ، وتسمى هذه المنطقة «بالحجاز» ، وتأتي منطقة نجد بعد هذه السلاسل ، وهى عبارة عن هضبة تنحدر تدريجياً نحو الشرق ، حتى تصل الخليج ، مكونةً مستنقعات مالحة ، غالباً ما يصعب تمييزها عن البحر .

ومركز هذه البلاد ، يتكون من مرتفع على شكل هلال يسمى «جبل طويق» ، وعليه نجد ما يقدر بواحد في المائة من مساحة البلاد الصالحة للزراعة ، ومجموعةً من المدن كالرياض وعنيزة وبريدة . وعلى غرب هذا الهلال ، تقع منطقة «الحرّات» وهي منطقة شاسعة من الأحجار البركانية ، غالباً ما ترتفع إلى عشرة أقدام فوق الرمال ، ويحيط بهذا الهلال من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية صحاري رملية شاسعة . فإلى الشمال تقع صحراء «النفود» مغطيةً مساحة تقرب من ٢٦٠٠٠ ميل مربع ، ثم «الدهناء» حيث تمتد إلى ما يقرب من ٤٠٠ ميل طولاً و ٣٠ ميلاً عرضاً . ثم تتصل هذه الصحراء مع أكبر الصحاري في الجزيرة العربية وهى صحراء «الربع الخالي» التي تغطي مساحة نحو ٢٠٠،٠٠٠ ميل مربع ، وهي تزيد بذلك على مساحة فرنسا ، ويتكون الربع الخالي من عدد كبير من التلال الرملية ، يصل ارتفاعها بعض الأحيان إلى

٥٠٠ قدم ، وما تبقى من مساحة شبه الجزيرة العربية هو عبارة عن أرض صلبة مغطاة بالحجارة والحصباء ، وبالإمكان زراعتها لو توفر الماء .

يتساقط المطر على معظم مناطق الجزيرة العربية كل عام ، وينتظم سقوطه بغزارة على الشريط الساحلي الغربي ، والجنوبي ، والجنوبي الشرقي ، ومن المحتمل أن تكون أية منطقة معرضة لسيل مفاجىء ، حيث يندفع الماء منحدراً إلى الوديان اليابسة على ارتفاع ما يقرب من ستة أقدام ، وبسرعة تزيد على سرعة ركض الإنسان ، جارفاً معه أشجاراً وحيوانات ، وفي بعض الأحيان سيارة قد تركت من قبل صاحبها دون مراقبة ، وقد تكون هذه السيول عارمة : ففي ذات مرة ارتفع الماء في صحن الحرم المكي إلى عشرة أقدام[1] هناك قصة مشهورة ، مفادها أن أحد الغزاة انتهز فرصة الأمطار الغزيرة في اليمن وحوّل صحن المسجد في صنعاء إلى مسبح مفتوح ، وأجبر العذارىٰ على أن يسبحن فيه عاريات . ولا يوجد هناك على أي حال ما يمكن أن يسميه الأوربيون نهراً أو بحيرة .

ليس من الضروري بيان شدة الحر في الجزيرة العربية ، ولكن من المهم ، أن نعرف الإختلاف الكبير في درجات الحرارة بين الليل والنهار ، فقد وجد الرحالة فلبي مناطق يصل فيها الاختلاف إلى ٤٠ درجة . ولعل التجربة الشخصية ، توضح الاختلاف في هذه البلاد : ففي صباح يوم ما كانت الحرارة والرطوبة عالية في عدن ، مما اضطر كاتب هذا الكتاب ، أن يغير قميصه بعد ربع ساعة من لبسه ، حيث التصق على جسده بسبب تصبب العرق ، وعلى بعد مائة ميل من ذاك المكان وعلى ارتفاع ٨٠٠٠ قدم قضىٰ ليلة في الجبال وهو يرتجف من شدة البرد تحت أربع عشرة بطّانية .

التـــــاريخ :

بعد مرور مائة عام على وفاة الرسول ﷺ في عام ٦٣٢ للميلاد ، وبعد أن انطلق العرب بطاقاتهم الفياضة ، لحمل عقيدتهم الجديدة ، إلى المحيط الأطلسي وإلى حدود

(١) جاء في أخبار مكة للأزرقي بأن مكة قد تعرضت في العاشر من جماد الآخر عام ٧٣٨هـ لأمطار شديدة وقد طاف الماء بالكعبة وعلا إلى ما فوق عتبتها ووصل إلى قناديل المطاف وأغرق بعض أهلها ومات نحو ستين نفراً (أنظر البركاتي ، ص ٣٢٤) – المترجم .

الصين ، أصبحت الجزيرة العربية في موقع خلفي منعزل واعتمدت في معظم مواردها المالية على موسم الحج إلى مكة الذي فرضه الرسول ﷺ على كل من تبعه ولمن استطاع إليه سبيلاً[٢] لم يستطع الحجاز أن ينتج ما يكفيه من الغذاء ، لذلك اعتمد على استيراد الحبوب من مصر ، وغالباً ما كان الحجاز تابعاً سياسياً لمصر . وهذا حال الحجاز خلال القرون الوسطى حيث اعترف المكيون بسلطة سلاطين مصر عليهم ، وبالإخص بعد أن قوى مركزهم بسبب احتضانهم الخلفاء العباسين بعد أن هربوا من بغداد إثر الغزو المغولي[٣] .

لم يكن الخليفة «خليفة الرسول» وحده الشخصية الرئيسة في العالم الإسلامي ، فلقد كانت مكة مركز «الشريف الأكبر» وهو رئيس العائلة المنحدرة من نسل الرسول محمد ﷺ ، ومن الطبيعي فإنه كان يتمتع بمكانة كبيرة كما يحظى باحترام القبائل العربية في الحجاز .

وفي عام ١٥١٧م احتل العثمانيون مصر وأعلنوا أن الحجاز تابع لسلطتهم ، وقد أرسل شريف مكة ابنه إلى القائد المنتصر السلطان سليم لمبايعته والاعتراف بسلطته[٤] وأهداه قرآناً – يقال إنه نُسخ بيد الخليفة الثاني[٥] ، ومفتاحاً فضياً للكعبة ، وفي نفس الوقت حمل الأتراك معهم إلى القسطنطينية الكسوة وراية النبي التي حملها الخلفاء معهم إلى مصر ، وفي القسطنطينية اتخذ السلطان لنفسه لقب «حامي الأماكن المقدسة» . وأخذ خلفاؤه فيما بعد لقب «خليفة» .

حاز السلطان التركي على القيادة الدينية للإسلام ، ولهذا أخذ على عاتقه مسؤولية

---

(٢) الذي فرض الحج هو الله سبحانه وتعالى وما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين قال تعالى : ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**﴾ الآية (٩٧) من سورة آل عمران (المترجم) .

(٣) دخل المغول بغداد بقيادة هولاكو في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م (المترجم) .

(٤) عندما كان السلطان سليم الأول في مصر ، استقبل أبانمي بن الشريف بركات الثاني ابن محمد ، شريف مكة ليعلن اعتراف والده بالسلطة العثمانية ، فأقره سليم على نظام الشرافه كما كان من قبل (عمر ، ص ٩٥) – المترجم .

(٥) الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم ينسخ القرآن وانما أشار على الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه ، فجمع عندئذ في المصحف ، ثم نسخ في المصاحف من قبل لجنة مشكلة بأمر الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه (لمزيد من المعلومات أنظر ، الصباغ ، ص ١٠٤ – ١١٩) – المترجم .



سليم المتجهم ، السلطان العثماني التاسع ، نحّى أباه عن العرش عام ١٥١٢م ، وأول عمل قام به هو تصفية أقربائه ، وكان شاعراً بارزاً وتعد رسائله إلى شاه إيران قطعاً أدبية رائعة غير أنها مليئة بالإهانات مما دفع [الشاة] إلى إعدام حامليها . في عام ١٥١٧ استولى على مصر ويمثل عهده وعهد ابنه سليمان (خلفه عام ١٥٢٠م) أعظم فترة مرت بها الأمبراطورية العثمانية .

أمن الحج وسلامة الحجاج ، فنصب الحاميات العسكرية في مواقع إستراتيجية على طول الطريق الذي يقع تحت سيطرة باشا مكة وباشا المدينة . وما عدا ذلك ، فإن السلطة العثمانية لم تحاول جدّيا السيطرة على الجزيرة العربية . وفي غضون قرنٍ من الفتح العثماني ، أخذت السلطة الحقيقية في كل من القاهرة وبغداد ، تقع في أيدي حكام محليين يعلنون تبعتهم الاسمية للسلطان العثماني ، وفي نفس الوقت لم يسمحوا له بالتدخل في شئونهم الداخلية . وفي نهاية القرن الثامن عشر أصبح والي حلب حاكماً قوياً يستطيع السيطرة على أية منطقة تقع على بعد مسيرة ساعة من أبواب المدينة ، بينما كان باستطاعة حاكم مدينة عكّا المجنون[٦] الجزار باشا أن يفقأ العيون ، ويُدَقّ الألسن بالمسامير لكل تاجر يُتّهَم بالكذب دون أي تدخل من السلطات العثمانية . وكانت الحكومة العثمانية تقف متفرجة بينما يتحارب ولاتها في سورية ولم يكن ذلك ليسيئها دائماً ، بل كانت ترى فيه وسيلة لتبديد طاقاتهم . غير أن الباب العالي ذاق اندحاراً مشيناً عندما وافق السلطان مجبراً على سيطرة محمد علي باشا على مصر ؛ ففي عام ١٨٣١م أرسل محمد علي ابنه إبراهيم لغزو الشام وقارب أن يصل بجيشه إلى سواحل البسفور ، لولا تدخل الدول الأوربية الكبرى التي ضمنت انسحابه . إن هذه الدول نفسها كانت تتسارع فيما بينها في استقطاع الولاية بعد الأخرى من جسم الأمبراطورية العثمانية التي كانت في يوم ما قد امتدت إلى

(٦) لقد تولى أحمد باشا الجزار باشوية صيدا ونقل مقر حكمه إلى عكا التي بلغ فيها قمة مجده عندما تمكن من الصمود في وجه الحصار الذي فرضه نابليون بونابرت على المدينة (١٧٩٩م) وقد تذمر التجار الأوربيون والفرنسيون خاصة من استبداد الجزار بهم وفرضه الضرائب عليهم ، وقد توفى الجزار عام ١٨٠٤م (عبدالكريم ، ص ١٣٤) – المترجم .

أســـوار فينّا ، وضمت أقساماً من بولنـــدا ويوكرانيا وكان باستطاعتها أن تعتبر البحـــر الأســـود بحيرة تركية ، أمـــا في الداخل فكان هناك تفكير خاطىء يخيم على عقول المحافظين أساسه المكابرة ، معتقدين أنه ليس للأتراك المسلمين حاجة في أن يتعلموا أي شيء من البرابرة الكفار . وهكذا سمحوا للتقدم التقني الذي بدأ يعم غرب أوروبا أن يفوتهم ، فلم يكن هناك أي كتاب مترجم إلى اللغة التركية ، لدرجة أنه قيل إنه حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لا يوجد من بين الطبقة التركية الحاكمة شخص قد سمع بجاليليو Galileo(٧) وإن مجرد اقتراح لتأسيس فرقة لإطفاء الحرائق ، يعتبر تدخلاً في مشيئة الرب [سبحانه وتعالى] ، وقد أعلنت السلطات الدينية بأن الله [سبحانه وتعالى] لن يبارك في جيش يرتدي أفراده السراويل ، وكانت جماعة الانكشارية(٨) تؤلف جبهة قوية تعمل ضد أي تطور في حين إنها كانت في وقت ما تقود طلائع الجيوش في كل معركة ولكن هذه الجماعة أصبحت فيما بعد عصابات لا يهمها ولا يحركها إلا شيء واحد ، هو الخوف من فقدانها للجاه .

وفي مثل هذه الأحوال السائدة آنذاك ، فإن الحكومة العثمانية لم تعر بالاً للاهتمام بأحوال الجزيرة العربية وكل ما كان يعنيها هو استمرار الجزيرة العربية في ولائها للباب العالي ، كما أنها كانت حريصة على المحافظة على تعاليم الإسلام وإقامة شعائره الدينية . ولم تُظهر الحكومة العثمانية أي اهتمام بأمور الحجاز لولا الحادثة التي قيل إنه ذهب ضحيتها

---

(٧) جاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢م) : عالم فلك إيطالي ، أيد نظرية كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس (المورد ، معجم الاعلام) – المترجم .

(٨) الانكشارية : فرقة عسكرية أنشأها السلطان أورخان (١٣٢٦ – ١٣٥٩م) عندما جند ألفاً من الأسرى النصارى وسن قانوناً خاصاً لهم ، نصت أحد بنوده على الطاعة المطلقة لأولى الأمر (عوض ، ص ١٣) . ويعيش أفراد الانكشارية بلا أمل في الزواج أو الذرية ، فيعتبر السلطان أباهم والثكنة مأواهم والقرآن عقيدتهم والحرب مهنتهم ، وعندهم أن أعداء السلطان ، أعداء الله ، وقد قامت هذه الفرقة بدور رئيسي في الفتوحات العثمانية الكبرى في القرنين الخامس والسادس عشر (عمر ، ص ٤٨ – ٤٩) ، ثم بدأ الفساد يدب تدريجياً إلى هذا الجيش عندما سمح السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ – ١٦٠٣م) للفلاحين والحرفيين بالانخراط في سلك الانكشارية بعد أن كان ذلك محظوراً عليهم ، فكثر عددهم وقلت بركتهم وضعف تمسكهم بمبادئهم حتى تحولوا من أداة نصر وظفر إلى أداة هزيمة وتخريب (عوض ، ص ١٣ – ١٤) – المترجم .

عشرون ألف حاج في عام ١٧٥٧م ، إذ ماتوا عطشاً في الصحراء بعد ما فقدوا رواحلهم إثر عملية نهب وسلب بعد هجوم كاسح قام به البدو[٩] . أما بالنسبة لنجد ، فلم تكن هناك سلطة ما ، إذ لم يهمهم أمر تلك المنطقة التي كانت تتألف من قرىٰ صغيرة مستقلة وقبائل محلية ، دائماً ما كانت في حروب مستمرة مع بعضها البعض .

وكانت الدرعية من بين القرىٰ الصغيرة ، غير أنها منذ القرن السادس عشر أصبحت تابعة لحكم العائلة السعودية ، وتقع هذه القرية على بعد سبعة أميال من مدينة الرياض الحالية[١٠] .

وفي عام ١٧٤٥م لجأ الى محمد بن سعود قاض شرعي كانت حياته قد تعرضت للخطر بسبب تمسكه بتطبيق الشريعة بحذافيرها . لقد كان محمد بن عبدالوهاب شخصاً مؤمناً متحمساً وعزى كل المفاسد والشرور التي كانت سائدة آنذاك إلى ابتعاد الناس عن عقيدة آبائهم وأجدادهم الطاهرة ، وإن كل البدع التي جاءت بعد وفاة الرسول ﷺ ، حتى شرب القهوة والتدخين ، تعتبر خطأً وكفراً[١١] . ومن أسوأ هذه البدع هو الاعتقاد بأن في استطاعة الأئمة الصالحين ، وحتى محمد ﷺ ، التوسط بين الإنسان وخالقه ، كما انتشرت بعض مظاهر الجاهلية في نجد كعبادة الأحجار والأشجار ، التي تستحق اللعنة حقاً .

---

(٩) لقد وقع الهجوم على قافلة الجرده (مؤن من طعام وملابس لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى الشام) في ٢٠ ذى الحجة ١١٧٠هـ/٥ سبتمبر ١٧٥٧م ، في المنطقة الواقعة ما بين القطرانه ومعان ، أما الهجوم على قافلة الحجاج فوقع في حوالي ١٠ صفر ١١٧١هـ/٢٤ نوفمبر ١٧٥٧م ، في المنطقة الواقعة بين تبوك وذات حاج وقد حدثت هذه المأساة في نهاية عهد السلطان عثمان الثالث (مات في ١٦ صفر ١١٧١هـ) ، وكان أمير الحج حينذاك حسين باشا بن مكي والي الشام ويقال بأن امتناعه عن دفع المال إلى البدو من بني صخر – في وقت كانوا يعانون فيه من شدة القحط والجدب – هو السبب في هذا الهجوم ، هذا بالاضافة إلى ما لحقهم من خسارة كبيرة نتيجة حرمانهم من الاشتراك في عملية نقل الحجاج (أنظر ، رافق ، ص ٢٦٥ – ٢٦٧ وكذلك عبدالكريم ، ص ٢١٤) – المترجم .

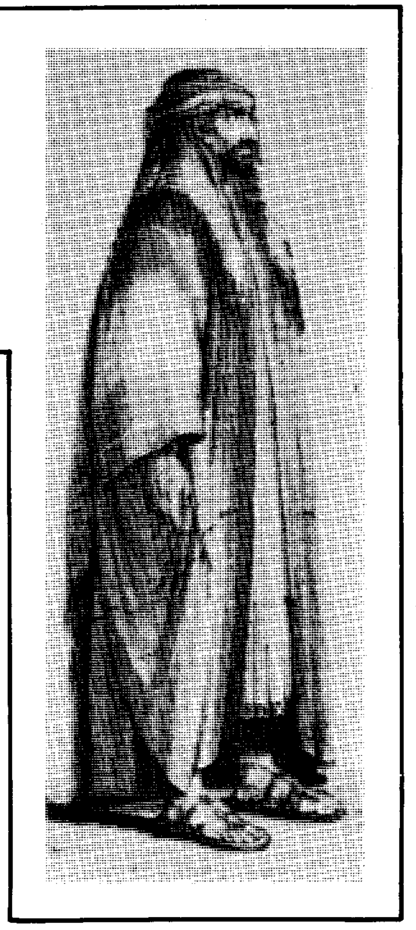
(١٠) أصبحت قرية الدرعية الآن تقريباً جزءاً من مدينة الرياض الكبرى (المترجم) .

(١١) لم يقل محمد بن عبدالوهاب أو أحد من اتباعه حسبما أعرف ، بتحريم شرب القهوة أو حتى بكراهة شربها (المترجم) .

لقد استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يقنع كل أهالي الدرعية ، من ابن سعود وغيره ، بأن كل من عارضه يعتبر كافراً ، وأن من الواجب إعلان الجهاد عليهم ومصادرة أموالهم وإعطائها للمؤمنين ، وكان هذا حافزاً مهماً دفع الكثير من أتباعه إلى المشاركة بالجهاد في أكثر من خمس وعشرين معركة في غضون خمس سنوات . وقد كان أتباع محمد بن عبدالوهاب يُسَمون أنفسهم «بالسلفيين» ، أما أعداؤهم فكانوا يسمونهم «بالوهابيين» . وبعد فترة وجيزة من بداية عام ١٨٠٠م قام أتباع محمد بن عبدالوهاب بهدم أهم الأضرحة المقدسة في العراق وجلبوا معهم غنائم كثيرة ، حتى أن بعض فرقهم قد توغلت شمالاً حتى وصلت إلى حلب . والمعروف أن كلتا المنطقتين [العراق وحلب] كانتا ضمن السلطة العثمانية . وفي الوقت نفسه امتد تأثير الدعوة الوهابية إلى سواحل الخليـــج ، وخرجت بعض القبائل الغازية تجاه ساحل البحر لمصادرة أموال الكافرين وقد عُرِفَ هذا الساحل فيما بعد بـ «ساحل القراصنة» .

أخذ عميد أسرة آل سعود «عبدالعزيز» لقب إمام ، وبهذا أصبح من المحتم أن تبدأ الخصومة بينه وبين شريف مكة ، إذ أن كلاً منهما اعتبر الآخر مهرطقاً خطراً . وقد وقع بين الجانبين عدد من المصادمات ، ففي صيف عام ١٨٠٢م دخلت قوات [الإمام] عبدالعزيز بن سعود مدينة مكة وقبل انسحابه أمر بإعدام بعض الدجالين المسيئين إلى الدين ، وفي عام ١٨٠٦م عادت القوات السعودية بقيادة ولده سعود إلى مدينة مكة مرة أخرى ثم إلى المدينة وعلى أثر ذلك أوعز السلطان محمود الثاني إلى واليه على مصر محمد علي للتدخل وحسم الأمر . وفي عام ١٨١١م استطاعت قوة تركية - مصرية دفع النجديين إلى خارج مكة والمدينة . ولم يكن نجاح تلك الحملة العسكرية بالأمر السهل ، إذ لم يستطع إبراهيم باشا احتلال الدرعية - عاصمة السعوديين - إلاّ بعد سبع سنوات من القتال الشديد ، وبعد احتلالها أمر بتدميرها ، وما زالت آثار الدمار باقية حتى اليوم أما عبدالله بن سعود الذي خلف والده عام ١٨١٤م ، فقد لقي حتفه في القسطنطينية .

لقد قرر المصريون تركيز قواتهم في الحجاز ، على أن يتركوا حاكماً خاضعاً لهم في نجد التي أصابها الدمار لدرجة أنهم أعتقدوا إنها لن تُسبِّب لهم أية متاعب في المستقبل . وبالرغم من أن أمراء آل سعود قد أخذوا إلى المنفى . إلاّ أن واحداً منهم إسمه



[الإمام] عبدالله بن سعود ، خلف والده في عام ١٨١٤م بعد ثلاث سنوات من بداية الغزو المصري للجزيرة العربية ، وفي عام ١٨١٨م تعرضت عاصمته للدمار أما هو فقد أخذ أسيراً حيث تم إعدامه في القسطنطينية .

تركي بن عبدالله ، هرب ورفع راية الحرب ، واستطاع أن يستعيد مدينة الرياض مرة أخرى ويعيد غالبية بلاد نجد إلى سلطة آل سعود . ولكن في شهر مايو عام ١٨٣٤م اغتيل تركي بيد أحد أقاربه[١٢] ، والذي حكم لمدة ٤٠ يوماً فقط ، حيث استطاع فيصل بن تركي أن يتسلق أسوار القصر ، ويقطع حنجرة قاتل أبيه .

وكان رفيق فيصل في تلك العملية شيخ مشهور من مدينة حائل في جبل شمر اسمه عبدالله بن رشيد ومن طريف ما يحكى عنه أنه طعن ذات مرة في إحدى المعارك في رقبته ، وتُركَ في ساحة المعركة بإعتباره ميتاً ، إلاّ أن سرباً من الجراد زحف نحو ابن رشيد ، وبتأثير حركة أجنحة الجراد ، فإن جرحه قد غُطّي بالرمل ، بينما حام حوله سرب من الطيور واقياً إياه من حر الشمس ، وتقديراً لمساعدة ابن رشيد فقد عيَّنهُ فيصل أميراً لمنطقته ، جبل شمر .

---

(١٢) قتل الإمام تركي في الرياض وهو خارج من المسجد بعد صلاة الجمعة ، على يد ابن عمه مشاري (ابن عيسى ، ص ١٦١) – المترجم .

وفي عام ١٨٣٨م زحف الجيش المصري مرة أخرى ، وقبض على فيصل وأخذه أسيراً إلى القاهرة ، ولكن في عام ١٨٤٠م باءت سياسة مصر التوسعية بالفشل بسبب عداء اللورد بالمرستون لهذه السياسة[١٣] . وهكذا اضطرت مصر إلى الانسحاب من الجزيرة العربية ، تاركة أميراً من آل سعود تابعاً لها كحاكم لمنطقة نجد . وفي أوائل عام ١٨٤٣م ظهر الأمير فيصل مرة أخرى بعد أن هرب من سجنه في مصر ، وبمساعدة من ابن رشيد لم يواجه صعوبة كبيرة في استلامه لزمام الحكم ثانيةً .

وبعد وفاة عبدالله بن رشيد ، تولى إمارة جبل شمر ابنه طلال واستمر طلال في ولائه للإمام فيصل بن تركي ، ولكنه في الحقيقة كان يتمتع باستقلال جزئي في إمارته ، فقد بسط نفوذه على شمال الجزيرة العربية لامتلاكه صفات يقدرها العرب كثيراً ، كالكرم ، والشجاعة والعدل . وبقي طلال يُظهرُ ولاءه للإمام عبدالله الذي تولى الإمارة السعودية بعد وفاة أبيه فيصل ، ولكن في عام ١٨٦٧م انتحر طلال لأنه اعتقد أنه في طريقه إلى الجنون .

وبعد وفاة طلال ، تقلد الإمارة أخوه متعب الذي حكم لمدة أربع سنوات ثم اغتيل من قبل أولاد أخيه ، ويقال إنه قُتِلَ برصاصة مصنوعة من الفضة . فتسلم الحكم بندر وهو أكبرهم سناً ولكنه لم يبق سوى بضعة أشهر ، حيث قُتِلَ بيد أحد اخوة طلال ، وهو محمد بن [عبدالله] رشيد الذي بسط سلطته على شمال الجزيرة العربية وشرقها لمدة ربع قرن .

في الوقت نفسه ، تمرد سعود أصغر أبناء فيصل على أخيه عبدالله ، ونصب نفسه حاكماً في الرياض . ولقد استغل الحكام الأتراك في العراق هذه الخصومات المستمرة ،

---

(١٣) بالمرستون : رئيس وزراء بريطانيا من عام ١٨٥٥ – ١٨٥٨م ومن ١٨٥٩ – ١٨٦٥م وقد لعب دوراً بارزاً في الشئون الأوربية (المورد ، ص ٦٧ من معجم الاعلام) – المترجم .

فاستولوا على الإحساء وهى المنطقة الواقعة في أقصى نجد . وقد توفي سعود بمرض الجدري في عام ١٨٧٥م ، وعاد عبدالله ليتولى أمور السلطة ، ولكنه بعد قليل من ذلك اكتشف أنه لا يستطيع الحكم بدون مساعدة محمد بن رشيد ، والذي وضعه تحت سلطته الكاملة[١٤] . وفي عام ١٨٨٧م عندما عجز عبدالله عن إخماد تمرد قام به أولاد أخيه ، احتل ابن رشيد مدينة الرياض ، وأبعد عائلة آل سعود عنها .

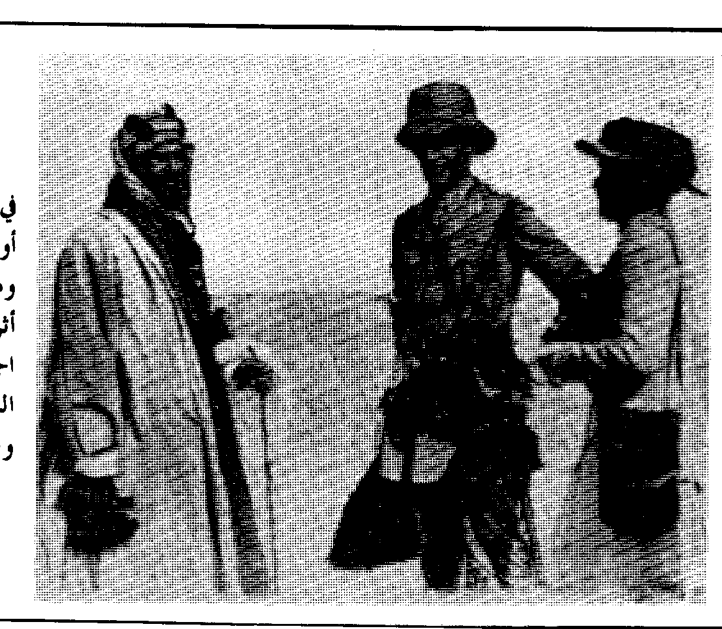
لقد توفي محمد بن رشيد في فراشه ، وهذا شيء يكاد يكون فريداً بالنسبة لهذه العائلة الحاكمة ، وخلفه ابن أخيه عبدالعزيز . الذي وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مُحارب لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً منذ ألف عام ، إنه عبدالعزيز ، المعروف بابن سعود . ففي يناير من عام ١٩٠٢م استعاد عبدالعزيز بن سعود ، – وكان عمره حينذاك ثماني عشرة سنة – مدينة الرياض مع سبعة من رفاقه . وفي أبريل من عام ١٩٠٦م ، وبعد عدة معارك ، انتصر ابن سعود على ابن رشيد ، الذي قُتِلَ ، وتولى الإمارة بعده ابنه ، وكان في الثامنة عشرة من عمره . ولكن هذا الصبي [لم يحكم إلاّ لمدة عشرة أشهر حيث] قتل في يناير ١٩٠٧م من قبل إبنى عمه ، فحكم أكبرهما لمدة سنة قبل أن يقتله أخوه الأصغر الذي حكم هو الآخر لمدة سنة تقريباً ثم اغتيل ، بعد ذلك نصب صبي – وهو أحد القلة القليلة الباقية من العائلة – عمره عشر سنوات ، أميراً مع وصي عليه ، وهذا [أي الوصي] بدوره توفي مسموماً بعد وقت قصير .

واستطاع هذا الأمير أن يستمر في الحكم لمدة عشر سنوات ، بعدها قُتِل بيد ابن عم له ، والذي كان أحمق في تحديه لهدف مستهدف ، فذبح فوراً ذبح الشاه بيد أحد العبيد ، واعتلى عرش الإمارة أحد أبناء عم الأمير المقتول ، ولكنه كان متردداً في استلام الحكم وسرعان ما طلب هذا الأمير عندما حانت له الفرصة ، الأمان عند ابن سعود ، بعده جاء أمير آخر ، وكان ترتيبه الثالث عشر والأخير من أمراء عائلة ابن رشيد الذين حكموا منطقة جبل شمر لمدة تسعين عاماً تخللتها النزاعات والاضطرابات . وفي نوفمبر

(١٤) لا يستند هذا القول إلى أدلة تاريخية (المترجم) .

من عام ١٩٢١م دخل ابن سعود مدينة حائل .

بينما كان منافسوا ابن سعود يمزقون أنفسهم ، كان هو يعمل على تقوية مركزه ، فبعد عام ١٩١٢م كان لابن سعود سلاح فعّال وهو «الإخوان» والإخوان في الأصل جماعات من البدو استقروا في مناطق خصصّها لهم ابن سعود وبعث إليهم عدداً من المرشدين الدينيين الذين بثّوا فيهم فكرة الجهاد ؛ وعاش الإخوان عيشة بسيطة جداً ، وكان أملهم الوحيد ، هو الموت في الجهاد حتى يذهبوا إلى الجنة ، وكان من عاداتهم أن يطلقوا الرصاص ثم يبدأوا الهجوم بالسيوف ، وقل مَنْ يجرؤ على مقاومتهم ، وفي وقت مبكر من عام ١٩١٤م استطاع الإخوان أن يطردوا الأتراك من الإحساء ، ولم تأخذ تلك العملية إلاّ أياماً معدودات .



إبن سعود البطل ، في عام ١٩١٧م وهو في أواخر الثلاثين من عمره ومعه إثنان كان لهما أثرهما كرحالتين إلى الجزيرة العربية وهما السير بيرسي .كوكس وجيرترود بل .

وفي نوفمبر من عام ١٩١٤م ، دخلت كل من تركيا وبريطانيا الحرب ضد بعضهما ، وحاول الإنجليز ، أن يستغلوا فرصة غضب العرب على حكامهم الأتراك ، وكان هناك جدل محتدم في دوائر الحكومة البريطانية حول من هو الحليف المناسب لها : ابن سعود أم شريف مكة حسين . وأخيراً وقع الخيار على شريف مكة ، وقطعت الحكومة البريطانية اتصالها مع ابن سعود ، وفي الحقيقة أن وزارة الخارجية البريطانية

فضلت التعاون مع شريف مكة ، الذي اعتبرته أكثر تجربة من ابن سعود في الشئون العالمية ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن الاعتقاد السائد آنذاك هو أن مركز شريف مكة ، وحده القادر على إعلان بطلان دعوة السلطان العثماني للجهاد ، والذي كان بإمكانه أن يثير الهنود المسلمين في الامبراطورية البريطانية . وهكذا اندلعت الثورة العربية في يونيو من عام ١٩١٦ ، وفي نوفمبر ١٩١٨م استطاع جيش الشريف أن يسبق الجيش البريطاني في الاستيلاء على دمشق .

استمرت الخلافات والنزاعات المسلحة ، بين جيش الأشراف وبين الأخوان خلال الحرب العالمية وقبلها ، وكانت هناك لبعض الوقت ، حالة مثيرة للاشمئزاز ، حيث استعمل الطرفان المتنازعان أسلحة وزعتها وزارة الخارجية البريطانية على الطرف الأول ، وبنادق وزعتها وزارة شؤون الهند على الطرف الثاني ، وفي تلك الفترة استطاع ابن سعود ، أن يمد حكمه إلى جبل شمر ، وواحة الجوف ، ووادي السرحان حتى وصل إلى حدود المحميات البريطانية في العراق والأردن .

وفي صيف عام ١٩٢٤م حدث الصدام الأخير بين حكام الحجاز وحكام نجد . ففي ذلك الوقت احتل الأخوان مدينة الطائف ، بعد معركة دامية ، وفي شهر أكتوبر من ذلك العام دخل الأخوان مدينة مكة بدون إراقة دماء ، بعد أن تدخل ابن سعود شخصياً في الأمر . بعد ذلك بقليل تنازل الشريف حسين عن العرش وغادر البلاد ، بعد أن كان قد أعلن نفسه خليفة وملكاً على العرب ، ثم اعتلى العرش ابنه علي الذي لم تتجاوز سلطته أسوار مدينة جدة إلا قليلاً ، والتي وقعت هي الأخرى تحت سلطة ابن سعود في نهاية عام ١٩٢٥م . وبانضمام منطقة عسير في الجنوب الغربي إلى سلطة ابن سعود ، ثم انضمام منطقة نجران في عام ١٩٣٤م ، استقرت حدود الدولة السعودية على ما هي عليه الآن .

وفي يناير من عام ١٩٢٦م أعلن ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز ونجد ، وفي عام ١٩٣٢م سُمّي ملكاً للمملكة العربية السعودية . وتعتبر فترة الملك عبدالعزيز خارج نطاق هذا الكتاب ، ولكننا قد نتطرق إليها من خلال دراستنا للرحالة الذين عاصروه ، والتي ستكون موضوع الفصول الأخيرة .

الاستكشافات الأوربية في الشرق الأوسط



الليدي ماري وبرتلي مونتجيو (١٦٨٩ - ١٧٦٢م) اشتهرت بكتابة الرسائل التي وصفت فيها الشرق وجوّه ، وقد أبدت تعاطفاً غربياً مع الإسلام ، وهى التي جلبت فكرة التلقيح ضد الجدري إلى انجلترا ، وكانت لها شخصية عاصفة ، فتبادلت الإهانات مع [الأديبين] سوفت وبوب ، ودخلت في سلسة من العلاقات الغرامية المثيرة .

كانت العلاقات في القرون الوسطى المبكرة ، بين المسلم والنصراني ، وديَّة إلى حد ما ، فقد أهدىٰ هارون الرشيد ، فيلاً إلى [الأمبراطور الفرنسي] شارلمان Charlemagne ، كما أن أحد البابوات اعترف بأن فاس هى أحسن مركز تعليمي في العالم ، وعندما زار القديس الإنجليزي وليبولد Willibald ، مدينة القدس ، وقُبِضَ عليه بتهمة التهريب ، لم يكن عقابه سوىٰ التوبيخ البسيط . إن هذا التعايش السلمي ، انتهىٰ في نهاية القرن الحادي عشر ؛ فلعدة أسباب ، بعضها سياسية ، وبعضها اقتصادية وربما أخرى دينية ، بدأ قادة الدول المسيحية بما يسمى الحروب الصليبية . وحتى بعد انتهاء تلك الحروب ، فقد ظلت البغضاء والأحقاد تأكل القلوب ، وهكذا نجد الشاعر الإيطالي دانتي Dante[١٥] قد وضع الرسول ﷺ في أدنىٰ درجات جهنم . وبالرغم من بقاء بعض نقاط الصلة والصداقة ، إلا أنها اختفت بعد أن فرض الأتراك سيطرتهم على الشرق الأوسط .

---

(١٥) دانتي اليغيري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) : كبير شعراء إيطاليا وصاحب ملحمة الكوميديا الإلهية (المورد ، ص ٢٣ من معجم الإعلام) - المترجم .

وقد اتسم النصف الأول من القرن السادس عشر بنزاعات قوية ، حيث اندفع البرتغاليون بأساطيلهم إلى بحار المسلمين . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً . وقبل عام ١٦٠٠م ، كان لكل من فرنسا وبريطانيا سفراء في القسطنطينية ، وشركات تجارية تتعامل مع مصر وسوريا ، كما كانت هناك جالية بريطانية كبيرة تسكن في مدينة حلب ، وقد أظهر بعض أفرادها اهتماماً خاصاً بالأمور الدائرة حولهم . وكتب بعض المثقفين من أمثال جورج سانديز George Sandys عن حياة البدو والجمال ، إلى الناس المتعلمين في بلاده ، وفي عام ١٦٣٢م ، أنشىء كرسي الأستاذية للغة العربية في جامعة كمبردج وذلك بأمل تخليص المسلمين .

وتبعها بعد ذلك عدد من الجامعات الأخرى ، فأول أستاذ بجامعة اكسفورد ، بدأ بجمع المخطوطات الشرقية ثم صنفها ونشرها ، وكان ذلك قبل مائتي عام من إنشاء أول مطبعة عربية في مصر .

وفي عام ١٦٥٢م طُبعَ الكتاب المقدس بعدد من اللغات ، ومن ضمنها اللغة العربية ، وأهديت نسخة منه إلى كروموييل Cromwell[١٦] . وفي بداية القرن الثامن عشر تُرجِمَ القرآن لأول مرة إلى اللغة الإنجليزية ، وربما ما زالت تعتبر أحسن ترجمة ظهرت حتى الآن ، وكذلك تُرجمت قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية .

بعد ذلك أخذت الرحلات تزداد سهولةً ، حيث بدأ عدد من النبلاء الشباب يسافرون في رحلات طويلة ، إلى إيطاليا ، ومنها إلى مصر وتركيا ، حيث أصبحت السيدة ماري وورتلي مونتيجيو Lady Mary Wortley Montagu من عام ١٧١٧م سفيرة [لبلادها بريطانيا في تركيا] . وفي عام ١٧٢١م أقيم لأول مرة ، معرض للفراعنة في جمعية الآثار القديمة [بلندن] ، وفي عام ١٧٤٠م تأسست الجمعية المصرية التي التقى

(١٦) كروموييل أوليفر : زعيم سياسي وعسكري انجليزي ، هزم الملكيين وأعلن الجمهورية عام ١٦٥٣م (المورد ، ص ٢١ من معجم الاعلام) — المترجم .

أعضاؤها بانتظام في شارع تشاندوز Chandos تحت إشراف «شيخها» اللورد ساندويتش Sandwich .

وبدأ بعض الكتاب أمثال صاموئيل جونسن Samuel Johnson وفولتير Voltaire يكتبون قصصاً خيالية عن الشرق ، في حين انتقد مونتسيكيو Montesquieu بلاده [فرنسا] بصورة تهكمية ، عن طريق جدال مفتعل مع ضيف فارسي ، ووجد بعض الفلاسفة أمثال روسو Rousseau وسويدنبورج Swedenborg ميزات حسنة في القرآن .

وفي نهاية القرن الثامن عشر أصبح السفر براً للهند عن طريق مصر وسوريا ، شيئاً يكاد يكون اعتيادياً ، وقد فتن الشباب بالصور الرومانسية التي حكاها [الشاعران] بايرون Byron ومور Moor عن الشرق المثالي ، في حين أصبح الناس أكثر اهتماماً بأنفسهم ، وانطباعاتهم ، وأخذت قصص الرحّالة تتغير من حقيقة واقعية ، إلى مزيج من الانطباع والخيال .

وبمرور القرن التاسع عشر ، أصبحت الحياة رتيبة وهادئة ، مما دعا بعض الناس إلى التأمل في الصحراء ، وأفقها الواسع ، وحياة البدو الحرة ، لقد كانت صورهم تلك طوبائية [مثالية] ، ولكن بتقدم أوربا المادي فإنها أصبحت أكثر برجوازية وأصبح التباين بين أوربا والشرق الأوسط أكثر بروزاً . وقد امسى الترحال لبعض الافراد غير المتأكدين من مكانهم في المجتمع ضالة منشودة للبحث عن الجديد ولبلوغ قيم أفضل ، وكانت الجزيرة العربية ، المكان الذي ذهب بعضهم إليه ، ليكتشف نفسه ، وقد رجع الكثير منهم متغيراً .

ثلاثة رحالة إلى مكة

لودوفيكو دي فارثيما :

« ... إن سألني أي إنسان عن سبب رحلتي هذه ، فمن المؤكد أنه لا يوجد سبب أفضل من القول ، إن رغبتي المتقدة في المعرفة ، التي دفعت الكثيرين من الناس لرؤية العالم ومعجزات الخالق ، وبقدر ما هنالك من الأماكن المعروفة التي تمت زيارتها ووصفت وصفاً كاملاً ، فإنني عزمت على زيارة ووصف الأماكن التي ليست معروفة معرفة كافية » .

هكذا بدأت الترجمة الإنجليزية ، للرحلات البحرية التي قام بها لويس فرتمانوس أو لودوفيكو دي فارثيما Ludovico De Varthema «مواطن من مدينة روما» . وبلا شك فإنه نجح في تحقيق رغباته ، فهو من أوائل الأوربيين الذين استطاعوا وصف الحج إلى مكة ، وأول من وصف جزيرة التوابل شرق جاوه ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون أول شخص يذكر استراليا .

غادر فارثيما مدينة البندقية الإيطالية في شهر ديسمبر من عام ١٥٠٢م متجهاً إلى مصر ، وبعد زيارة قصيرة لها ، غادرها إلى دمشق التي وصل إليها في الربيع . وهناك التقى مع رجل نصراني كان قد ترك دينه ، وعمل ضابطاً في القوات العثمانية ، إذ وافق على أخذ فاريثما إلى مكة كواحد من الجند المرافقين للحجاج وكان هناك ستون جندياً يقومون بحراسة ٣٥٠٠٠ جمل و ٤٠٠٠٠ نفس ، لقد كان فارثيما رجلاً مليئاً بروح النهضة الأوربية Renaissance ، وحب المغامرة والاندفاع ، فنراه يصف معركة مع البدو ، قُتِلَ فيها رجل وإمرأة من موكب الحج فيقول : « ... لقد قتلنا من البدو ألفاً وخمسمائة نفس ، ولا تعجب عندما تعلم بأنهم لم يكونوا مسلحين . ولا يرتدون من اللباس إلاّ ثوباً خفيفاًفضفاضاً وهم إلى جانب ذلك شبه عراه ... » . لم يكن فارثيما مهتماً بوصف الأماكن وإنما صب اهتمامه على الأشياء الغريبة ، ولم يعطنا وصفاً دقيقاً ،

لمدينتي مكـــة والمدينة ، قبل أن ينتقل بسرعة للنظر في موضوع آخر .

ومثال ذلك ما ذكره في الفصل المعنون «وحيد القرن في حرم مكة غير المألوف في الأماكن الأخرى» ، وفيه يقول عن ذلك الحيوان : «لونه كلون حصان أدهم ، ورأسه كرأس الأيل ، ولكن رقبته لم تكن طويلة ، أما العرف وهو شعر العنق فهو رقيق ومعلق على جانب واحد فقط ، وأما أطرافه فكانت ضعيفة هزيلة ، وله أظلاف كأظلاف الماعز مغطاة بالشعر ، إن هذا الحيوان لابد أن يكون حيواناً برّياً شرساً ، ومع هذا فإنه كان ذا طبيعة هادئة ....» . ولقد قيل له بأن هذا الحيوان قد أُهدي من قبل ملك الحبشة .

عزم فارثيما على الاستمرار في رحلته وعدم الرجوع مع القافلة إلى دمشق ، واستطاع أن يهرب من القافلة بعد أن اتفق مع رئيس الركب ، مقابل التعاون معه في عملية تهريب . وهكذا فقد اختفى حتى غادرت القافلة ، ومن جدة ركب فارثيما سفينة كانت متجهة إلى عدن . وفي أثناء الرحلة ، وعندما علم ملاحوا السفينة أن زادهم على وشك النفاد ، هاجموا قرية جيزان ونهبوها . وبالرغم من أن فارثيما استطاع الهرب من الحجاز ، إلاّ أن متاعبه لم تنته بعد ، بل إنها قد بدأت لتوها ، فبعد يوم من وصوله إلى عدن يقول : «أخذني المسلمون ووضعوا القيد في قدمي ، وكان يأتيني رجل يصيح علي : يا نصراني ، يا كلب بن كلب ، وعندما يسمع المسلمون اسم نصراني ، فإنهم يغضبون ويقومون بضربي» . وقد طالب الناس بإعدامه ، باعتباره جاسوساً ، غير أنه لم تكن لحاكم عدن القدرة على اتخاذ قرار كهذا ، فبعث به ، مكبلاً بالسلاسل ، إلى سلطان اليمن .

ولقد عزم فارثيما على الفرار ، وذلك عن طريق التظاهر بالجنون ولكن هذا الأسلوب أزعجه كثيراً كما يقول ، فقد أصبح أحياناً عرضة للرمي بالحجارة ، بدون انقطاع تقريباً ، من قبل الصبية والأوغاد ، الذين يصل عددهم إلى أربعين أو خمسين . [ومن أغرب ما عمل ليتظاهر بالجنون] وفي شخصية المتحمس للدين ، حاول أن يقنع

خروفاً سميناً بالدخول في الإسلام ، وقتل حماراً لرفضه الصلاة على النبي وأخيراً جيء برجلين عالمين ليقررا فيما إذا كان فارثيما رجلاً مجنوناً أم صالحاً . وقد أختلف الرجلان في قرارهما ، وبينما هما يناقشان أمره ، والذي استمر لمدة ساعة ، بال فارثيما في يديه ورش البول على وجه الرجلين ، بعد ذلك اتفقا على إنه ليس رجلاً صالحاً بل هو رجل مجنون .

أحس فارثيما بالفرج ، وليؤكد جنونه فقد اعتاد على الوقوف عند النافذة وهو شبه عاري ، على حد قوله – وربما تكون القصة كلها مختلقة – وعندما رأته السلطانة ضحكت من حركاته الغريبة ، وبعثت له بطعام وزارته عدة مرات وندبت حظها لكونها وعائلتها سود البشرة بينما هو أبيض مثل الشمس . وقد بدأ فارثيما في التفكير لتخليص نفسه من المأزق الحرج ونجح أخيراً في إقناع السلطانه بالسماح له بالذهاب إلى عدن للعلاج عند شخص اشتهر هناك بعمل المعجزات .

وصل فارثيما إلى عدن في شهر مارس من عام ١٥٠٤م وعلى الفور أخذ سفينة وغادر الجزيرة العربية بعد أن مكث فيها عشرة أشهر ، وهنا سنترك فارثيما ، وياحبذا لو استطعنا متابعته في رحلته إلى الهند التي وصل إليها بعد وصول فاسكو دا جاما بست سنوات . وفيها وصف الملك الذي كان يربط شاربيه بقوس فوق رأسه . وكذلك وصفه للعادة القبيحة التي يبيع فيها الناس آباءهم وأمهاتهم لأكلة لحوم البشر وكان بودنا أن نمعن النظر في الفصل الذي أفرده في كتابه عن الفيلة وتوالدها ، فقد وجد أنها حيوانات ذات أربعة أطراف وطباعها لا تختلف كثيراً عن تلك التي عند الإنسان فهى تتميز بالذكاء والفهم وسهولة الانقياد . وعلى أية حال ، فإن تلك الأمور خارج نطاق هذا الكتاب ، وكل ما نستطيع قوله هنا ، هو أنه بعد مغامراته في فارس وجزر الهند الشرقية والحبشة وموزمبيق ، رجع فارثيما إلى روما في شتاء ١٥٠٨/١٥٠٩م وظهر كتابه هناك وقد أهداه إلى دوقة إيطالية ، وبعد ذلك لم نسمع شيئاً عنه وربما أنه قتل بسبب طموحاته إلى مستوى أرفع من مستواه .

لقد كان وصف فارثيما لرحلته عبارة عن قصة ممتعة لمغامرات رجل ، فلم يكن لديه اهتمام كبير بالوصف الجغرافي للأماكن ولا بممارسة الشعائر الدينية في مكة ، وربما يعود سبب ذلك إلى جهله بهذه الأمور ، وعلى أية حال فإن وصفه هذا بقي الوحيد من نوعه المكتوب بلغة أوربية لمدة مائتي عام تقريباً حتى نشر جوزيف بتس في عام ١٧٠٤ كتابه : «الوصف الصحيح لأخلاق المسلمين ودينهم» ، مع شرح لما حدث للمؤلف عندما أسر من قبل الأتراك ، وعن ما لاقاه من قسوة ، وعن هروبه ، ونجد في ذاك الكتاب أول مخطط للمسجد في مكة (إنه يذكر المؤلف بالمخزن التجاري الملكي) مع أول شرح واف عن مناسك الحج .

جـــــوزيف بتس :

ولد جوزيف بتس Joseph Pitts في اكستر Exeter ، حوالي عام ١٦٦٣ لأب منشق على الكنيسة الانجليكانية وبعد أن ذهب إلى البحر وأثناء قيامه برحلته الأولى ، أسره القراصنة وسيق إلى الجزائر ، وبعد أربعين عاماً من تلك الحادثة كتب بتس مسترجعاً الرعب الذي أصابه آنذاك : « .. كنت صبياً في ذلك الوقت وظهر لي الأعداء ، كأنهم مخلوقات مرعبة وجائعة الأمر الذي جعلني أصرخ : سيدي .. إنني خائف .. إنهم سيقلتلوننا ، فرد قائلاً : كلا ياغلام إنهم سيأخذوننا إلى الجزائر ثم يبيعوننا هناك» ، وهذا ما حدث ؛ إذ اشترى بتس من قبل رجل كان يضربه بصفة منتظمة على أخمص قدميه ، وكان بين الحين والحين يتوقف عن الجلد ليسترد قواه ويأخذ نفساً من نارجيله .

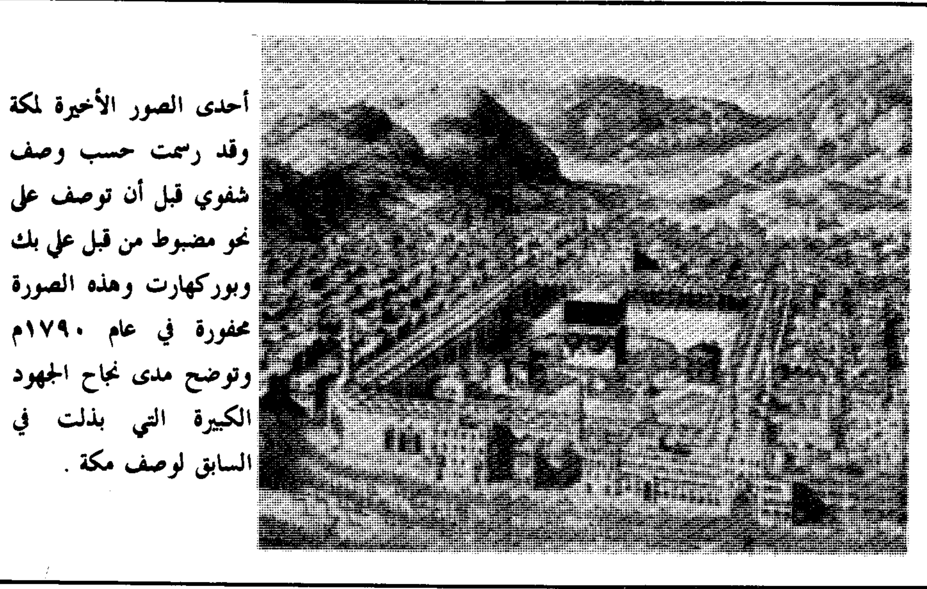
وبعد فترة من الزمن ، بيع بتس إلى سيد آخر والذي قرر أن يدخله في الدين الإسلامي حتى لو اضطر الأمر إلى ضربه ، ويقول بتس : «كنت أصرخ من الألم لشدة الجلد ، ولكن كلما صرخت اشتد في ضربي لدرجة انه كان يطأ بقدمه على فمي

ليسكت صريخي» ، وبالرغم أن بتس كان يستلم خطابات في أوقات متباعدة من والده ينهاه ، من مقاطعة ديفون الآمنة ، عن ترك ديانته الحقيقية . ومن الصعب أن يلوم الإنسان بتس لإعتناقه الإسلام ، وقد كان يكره ، خفية ، دينه الجديد وأكل برغبته التامة ، لحم الخنزير دون أن يره أحد . وقد كان هناك امتحان صعب للكشف عن حقيقة إسلامه ، حيث واجه في مدينة الإسكندرية عموداً حجرياً خشناً ، يشبه جذع شجرة ميتة ، وفيه عدد من العقد ، يحكى أنه هو نفس شجرة التين التي لعنها المسيح فصارت عجفاء ، وإذا استطاع أي شخص أن يسير بإتجاهه وهو معصوب العينين ، من مسافة عشر ياردات ، فإن ذلك برهان على أنه مسلم حقاً ، ومن حسن حظ بتس ، أنه نجح في هذا الامتحـــــان .

وبعد أن لقى سيده الثاني مصرعه ، إثر تآمره على حاكم الجزائر ، بيع بتس لرجل أعزب وطاعن في السن ، عامله معاملة حسنة ، ومن المحتمل انهما ذهبا معاً في عام ١٦٨٥ لأداء فريضة الحج وخلال هذه الرحلة حدثت القصة المذكورة آنفاً . لقد أعطى بتس وصفاً مهماً عن القاهرة ، ولاحظ أن المصريين سليطوا اللسان ، ولكنهم نادراً ما يميلون إلى العنف ، ويحبون خداع الناس القليلة معرفتهم بالعملة النقدية وقد واصل الرجلان سفرهما إلى السويس وركبا سفينة إلى جدة حيث وصلا إليها بعد شهر تقريباً . وبعد أن لبسا ملابس الإحرام ، تحمَّلا لمرات كثيرة ، حرارة الشمس المحرقة ، حتى إنها أحرقت جلودهم التي تغطي ظهورهم وأذرعتهم وقد ورمت رءوسهم لدرجة كبيرة . وقد وصلا إلى مكة ، وكان بتس كأي شخص إنجليزي خارج بلاده لا يظهر استحسانه لما يراه ، فقد ظن أن مكة مدينة صغيرة وقديمة ، ومع إنه دخل إلى الكعبة مرتين ، فإنه – على حد قوله – لم يجد شيئاً يستحق الذكر ، والناس فيها لا يستحقون الذكر لفقرهم ، فأجسامهم نحيلة وبنيتهم ضعيفة وبشرتهم داكنة .

قام بتس بأداء مناسك الحج ، وعلى كره منه ، كتب يقول : «لم يكن في وسعي إلا التعبير عن إعجابي لرؤية أولئك الناس الفقراء ، في خشوع شديد وهيام عميق

بدينهم ، فقد كانوا يرتجفون من الخشية والرهبة ملكتهم ، حتى إنني لم أتمالك نفسي من البكاء ، فذرفت عيناي بالدمع ، وأنا أراهم بهذه الحماسة العمياء» ، وكذلك فقد تأثر بتس بالشعائر الدينية على جبل عرفات (لم يتأثر بالجبل نفسه بالطبع ، فالجبل له أهمية ضئيلة) ، وقال : «لقد كان حقاً منظراً يهز القلوب ، فترى الآلاف من الناس في لباس الذلة والزهد بالحياة ، برءوسهم العارية ، وقد سالت الدموع علي خدودهم ، فتسمع ندبهم ونشيجهم المحزن وهم يبكون ، يتوسلون ويتضرعون بكل إخلاص من أجل مغفرة ربهم» .



أحدى الصور الأخيرة لمكة وقد رسمت حسب وصف شفوي قبل أن توصف على نحو مضبوط من قبل علي بك وبوركهارت وهذه الصورة محفورة في عام ١٧٩٠م وتوضح مدى نجاح الجهود الكبيرة التي بذلت في السابق لوصف مكة .

وقد رجع بتس مع سيده إلى القاهرة عن طريق البر مارين بالمدينة التي لم يتوقع أنها صغيرة وفقيرة ، وقد زاد مكانتها سوءاً ، في نظره كما يبدو ، سرقة منديل حرير من سيده حينما كان يصلي عند قبر الرسول ﷺ . وقد وصلا إلى مصر بعد سفر دام ثلاثين يوماً لم يشاهدا خلاله خضرةً أو حيواناً برياً أو طيراً ، وبعد وصولهما وجدا البلاد وقد اجتاحها الطاعون . وفي مدينة الاسكندرية أصيب بتس بالطاعون إلاّ أنه استطاع أن يمرض نفسه ، على حد قوله ، وذلك أنه كان يشوي بصلة على النار ثم يغمسها في الزيت ويضعها على جروحه . وفي الاسكندرية التقى بتس بزميل قديم له في المدرسة وبعث معه هدايا إلى والديه في إنجلترا .

رجع بتس وسيده إلى الجزائر ، وهناك نال حريته ، فقد أعتقه سيده عندما كان في مكة ، على شرط أن يبقى مسلماً ؛ وأي محاولة منه لنبذ الإسلام سيكون عقابه الموت . وبعد أن قضى سبع سنوات في الجزائر ، استطاع بتس أن يهرب وذلك عن طريق انخراطه في البحرية التركية . ومن ميناء أزمير استطاع الفرار من الخدمة ثم وصل إلى إنجلترا . وفي ليلته الأولى على أرض وطنه ألقت كتيبة التجنيد القبض عليه وسيق للخدمة في البحرية البريطانية ، ولكنه استطاع أن يخلص نفسه فوصل إلى بلده في عام ١٦٩٣ وركع مع أبيه شاكراً ، من أجل عودته ، وعاش بتس بعد ذلك فيما يعتقد ، حياة هادئة في اكستر لمدة أربعين سنة أخرى .

لقد قضى بتس ، ما يقارب خمس عشرة سنة في البلاد العربية ، ولكونه مسلماً في الظاهر، فقد كان على معرفة لا بأس بها بالدين الإسلامي وقد كانت القصة التي سردها ما هى إلا نموذج لانطباعات رجل إنجليزي صريح ، فهو مليء بالتحامل وعدم الثقة في الأجانب ، ولكنه دقيق وصادق ، ويبدو أن كتابه بقي غالباً ، غير مقروء كلية .

علي بك العبـــاسي :

لقد ورد في بداية هذا الفصل أن الرحالة فارثيما ذهب إلى مكة كأحد حراس القافلة ، والرحالة الثاني بتس ، ذهب بصفته عبداً مع سيده ، أما الرحالة الثالث علي بك العباسي ، فقد ذهب كأمير من سلالة الخلفاء العباسيين ، الذين من ضمنهم هارون الرشيد ، ونادراً ما يكون وصف رحلة ما ، مبدوءاً بمعلومات ضئيلة عن المؤلف ، [غير أن هذا الرحالة لم يعطنا شيئاً عن ماضيه] فقط هناك دعاء قصير بالعربية ، تلته هذه الجملة : «بعد قضاء سنوات عديدة في الدول النصرانية ، دارساً هناك العلوم الطبيعية والآداب ذات الفائدة الكبيرة للإنسان في المجتمع ... عقدت العزم أخيراً ، على زيارة البلاد الإسلامية ، فعن طريق أداء الحج إلى مكة ، يمكن التعرف عن قرب على أخلاق وعادات وطبيعة البلدان التي أمر بها ، فلعل قيامي بهذه الرحلة الجادة يكون فيه بعض الفائدة للبلاد التي سأختارها لي مقراً» .



علي بك كما يمثل نفسه ، من صورة محفورة نشرت عام ١٨١٤م .

وعندئذ تبدأ قصة علي بك مباشرة بعد ما نزل من السفينة في طنجة في يونيو ١٨٠٣م ، وتعتبر الصورة التي أعطاها عن المغرب خارج نطاق هذا الكتاب ، ولكنها مهمة حيث إنها تعطي فكرة عن الانطباع الذي تركه هذا البلد عند صاحبنا . لقد أصبح علي بك صديقاً شخصياً للسلطان الذي قدم له علي بك هدايا من ضمنها عشرون بندقية مع الحراب وبرميل من البارود ومظلة أنيقة . ومقابل هذا تسلم رغيفين من الخبز الأسمر من فرن السلطان الخاص ، دلالة على الأخوة ، وبالإضافة إلى ذلك يذكر لنا أن السلطان قد استقطع له بعض الأراضي الكبيرة التي درت عليه أموالاً مكنته من العيش حسبما يليق بمنزلته ، كذلك بعث له بسيدتين ثيبتين من جواريه .

بعدَ مرور عامين [على إقامته في المغرب] ، بدأ علي بك رحلته إلى الحج ، وفي طريقه مر بطرابلس حيث توسل حاكمها إليه بالبقاء معه وفي قبرص تسابق البطارقة لملاقاته والترحيب به ، وفي القاهرة توقف قليلاً حيث استقبله ، طبعاً ، محمد علي بنفسه ، وفي ١٥ ديسمبر عام ١٨٠٦م ، سافر علي بك مع القافلة المتجة إلى السويس ويذكر لنا أن موكبه ضمن القافلة كان يتألف من أربعة عشر جملاً وثلاثة حصن فقط وذلك لأنه ترك معظم متاعه وعدداً من خدمه في مصر ، وقد اعتاد اثنان من رجاله أن يسافرا قبله فيسبقانه إلى مكان الاستراحة في الطريق ، لإعداد الطعام .

[ومن مدينة السويس] ركب علي بك سفينة ، ذكرته بسفن طرواده القديمة ، وبعد أسبوعين جنحت السفينة خلال الليل ويقول علي بك : «لقد ظننَّا كلنا بأننا في

عداد المفقودين وقد بكى الجميع من العزلة واليأس ، ووسط هذا الضجيج ميزت صوت رجل أجش يبكي وينشج كالطفل ، وسألت عنه فوجدت أنه الملاح» . استطاع علي بك أن يحصل قسراً على قارب صغير ، وقام بتنظيم عملية التجديف بالغناء للمجدفين ، وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى ساحل الجزيرة العربية ، حيث لحقت بهم بعد بضع ساعات ، سفينتهم نفسها التي أسعفتهم فركبوا فيها كلهم بعد أن تعانقوا مع بعضهم البعض .

وفي ٢٣ يناير عام ١٨٠٧م وصل علي بك إلى مكة وسكن في بيت بجانب قصر الشريف ، كان قد أعد له قبلا ، وفي الحال استقبله شريف مكة ، وأخبره علي بك أنه من حلب ، وتشاوروا في الشئون العالمية ، ولكونه شخصية مميزة ، فقد عين له الشريف رجلاً ذا مركز عالٍ يصاحبه في تنقلاته في المدينة وهو المسئول الرسمي عن بئر زمزم والذي يحمل لقباً إضافياً ، هو «المسمم» ، وقد أصبحا صديقين حميمين ، إلا أن علي بك دائماً ما يحمل في جيبه جرعة من دواء قوي مضاد للسموم .

يعتبر علي بك ، أول من أعطى الغرب وصفاً منظماً عن مكة وهو أول من وصف تجارتها ، ووصف أزهارها ونباتاتها وحتى إنه أول من حدد موقعها بدقة ، وقد وجد أن أجزاءً كبيرةً من المدينة قد تحولت إلى خرائب وأن سكانها قد تضاءل عددهم من مائة ألف ، على الأقل إلى ستة عشر ألف فقط ، وكان يعتقد أنه لا توجد مدينة ينقصها حرفيون : فلم يكن هناك من يصنع أو يصلح البنادق ولا من يصنع الأقفال ولا يوجد أحد من الأساكفة ومن المستحيل [على حد قوله] ، أن تشتري مصحفاً مكتوباً بخط جيد أو حتى خالياً من الأخطاء ، ومن ناحية أخرى ، لم ير بتاتاً ، مثل تلك الفئران الوقحة التي ترقص وتقفز عليه في كل ليلة وتلحس المرهم من أصبعه . قضى علي بك [أيامه في مكة] بحرية واستقبل عدداً من الشخصيات البارزة ، وكثيراً ما رافقه شريف مكة في أداء مناسك الحج ودعاه للاشتراك معه في غسل الكعبة كما أهداه قطعة كبيرة من كسوتها .

ترك علي بك مكة في ٢ مارس عام ١٨٠٧ ، ومن جدة ركب البحر إلى ينبع ميناء المدينة ، وقرر هناك أن يترك معظم خدمه ، وارتحل إلى المدينة المقدسة الثانية مصطحباً معه ثلاثة فقط من خدمه ، ولكنه مثل بيرتون الذي جاء من بعده ، فوجىء في الطريق بهجوم من بعض الجماعات الذين نهبوه وأرغموه على الرجوع ، وخوفاً من اتهامه بالسحر ، فقد تخلص من كل العينات التي كان يحملها معه من حشرات وأزهار وما جمعه من نباتات أو حيوانات متحجرة .

لقد رجع علي بك إلى ينبع وركب السفينة إلى مصر ، ولكن بعد سيرها ، جنحت هي الأخرى ، عن الطريق ولكنه وصل إلى البر ، فتركها وشق طريقه خلال صحراء سيناء ، ونظراً لخطورة هذه الرحلة ، فقد أخذ معه عشرة حراس من الجنود الأتراك يساندهم خمسون آخرون وعدد من البدو المسلحين . ولم يمكث علي بك طويلاً في القاهرة بل غادرها براً إلى أوربا ، وزار في طريقه مسجد عمر في القدس ، ثالث المباني المقدسة في الإسلام ، ولذلك فهو محرم على النصارى مثل مكة[١٧] . وقد انتهى علي بك من وصف رحلته ، وهو في رومانيا ، في ديسمبر عام ١٨٠٧ ، وبصورة مفاجئة كما بدأهـــــا .

من هو علي بك العبـــاسي ؟

لم يشر علي بك في كتابه مطلقاً إلى أنه لم يكن غير تلك الشخصية التي ادعاها ، ولكن من هو علي بك ؟ . إنه شخص من مقاطعة قطلونيا [بأسبانيا] ، وإسمه دمنجو باديا لابلخ Domingo Badia y Leblich ، ولكن تبقى أشياء كثيرة غامضة ، فهو يبدو إنه ولد في مدينة برشلونة عام ١٧٦٦ تقريباً ودرس اللغة العربية والعلوم في مدينة بلنسية . وفي عام ١٨٠٢م ، زار لندن والتقى بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم إمكانية

(١٧) تشير الدراسات إلى أن مسجد عمر رضي الله عنه يقع في الموضع المعروف بمحراب عمر بصدر المسجد الأقصى الحالي (يوسف ، ص ١٠٢ - ١٠٣) أما عن مسألة تحريمه على النصارى ، فقد ورد في فتاوي ابن تيمية (ص ١٤ - ١٥) بعدم ما يدل على أنه حرم مثل مكة (المترجم) .

إجراء بعض الاكتشافات في القارة ، بالذهاب جنوباً عبر [جبال] الأطلس ، وبعد سنة من ذلك نجده كما مر بنا ، قد بدأ رحلته متنكراً تماماً في الزي العربي ، ومزوداً بمال وافر ، وكان يُظن أنه كان يعمل لحساب الحكومة الاسبانية ولكن من المرجح أنه كان يعمل لحساب نابليون الذي كان اهتمامه بالعالم الإسلامي معروفاً جيداً .

وبعد ، لم يمض وقت طويل ، حتى كان نابليون يفكر في إنزال عسكري على الساحل الجزائري ، كذلك هناك دلائل تشير إلى أنه كان يفكر في إنشاء مستعمرات سكنية أوربية على الساحل الشمالي لأفريقية للاستفادة من الحبوب فيها لسد حاجة جيوشـــــه .

وفي عام ١٨٠٥م ، وجدت فرنسا نفسها مرة أخرى في حرب مع روسيا [القيصرية] فانتعشت سياسة نابليون نحو الشرق الأوسط مرة ثانية فأرسل بعثة إلى إيران وأخرى إلى تركيا وكانت هناك محاولة للحصول على قاعدة في مسقط ، وفي خلال هذا الوقت تقريباً ، غادر علي بك المغرب متجهاً نحو الشرق ، وكمايتضح تماماً من خلال حديثه عن رحلته ، أنه عمل دراسة مفصلة لموانيء البحر الأحمر ، وإن كان ذلك لا يبرر بالقدر الكافي بذخه وصرفه للأموال التي لابد أنها قد كلفت الجهة التي مولته كثيراً . إن ذلك يقودنا إلى الاعتقاد بأن علي بك ، كان عميلاً لجهة ما في لعبة كبيرة ، ولكن مازال أمر ذلك كله مجهولاً .

عند رجوعه [إلى أوربا] قابل علي بك الأمبراطور نابليون عدة مرات وبعد ذلك انتقل إلى خدمة [أخيه] جوزيف بونابرت ، وعندما طرد ويلينجتون Wellington الفرنسيين[١٨] ، غادر علي بك أسبانيا ليستقر في باريس تحت اسم الجنرال باديا .

وفي عام ١٨١٨م وبعد مفاوضات طويلة مع الحكومة الفرنسية لضمان مستقبل

(١٨) تم طرد الفرنسيين من أسبانيا بعد ما اجتاحتها جيوش الحلفاء بقيادته (المترجم) .

عائلته ، قام صاحبنا برحلة أخرى . وكانت خطته أن يذهب إلى مكة ، ويرجع منها مع قافلة الحجاج المتجهة إلى أفريقيا مروراً بالحبشة ودارفور ، وكان أمله أن يكتشف بحر نجريشيا الواقع شرق مدينة تِمبْكتو وينتهي في السّنغال . غير أنه توفي في أغسطس من عام ١٨١٨م في مدينة دمشق بعد إصابته بالزُّحار فيما يعتقد وهو مرض الديزنطاريا . هذا مع العلم أن المصادر الفرنسية قد اتهمت دوائر التجسس البريطانية بتسميمه ، وقد قيل إنه وُجِدَ عليه صليب كان قد أخفاه تحت قميصه .

إنه من غير المحتمل معرفة كل شيء عن هذا الرجل الغامض ، غير أنه لا يمكن تجاهل أهميته كرحالة ، فقد كانت مساهمته كبيرة في تقديم المعرفة عن جزءين كبيرين منفصلين من العالم العربي ، مع أنه كان من الصعب على رحالة في مثل حالته من التنكر ، أن يتمكن من ملاحظة أشياء كثيرة .

إن من الصعوبة بمكان أن يتصور إنسان ما ، ثلاثة من الرجال يتباينون فيما بينهم أكثر مما يتباين هؤلاء الذين حاولنا وصف مغامراتهم في هذا الفصل إلا أن هناك شيئاً واحداً يجمع بينهم : وهو أن كل واحد منهم ، مَثَّل عصره . فنجد عند فارثيما روح الفضول وحب التعرف على العالم الذي كان معظمه جديداً ومشوِّقاً . بينما نجد بتس يؤمن باعتقاد راسخ بأن الانجليز وحدهم هم ذوو الأخلاق النبيلة ، أما علي بك فبإسلوبه المنظم وبمعرفته العلمية واللغوية يقف وحده كرجل يُمثِّل العالم الحديث .

نيبـــور وأصحـــابه

في عام ١٧٤٦م اعتلى عرش الدنمارك فريدريك الخامس ، وكان محباً للعلم والأدب والفنون ، وقد زين عاصمته بساحة أمالينبورج الجميلة ، وأنشأ الكنيسة الرخامية وأسس الأكاديمية الملكية للفنون ، والحديقة التجريبية للنباتات ، والمصنع الملكي للخزف . إن هذه الاهتمامات الحضارية وسط قارة كانت قد مزقتها الحروب والمشاحنات ، دفعت العلماء والباحثين للاتصال به على أمل الحصول على مساعدة مالية لمشاريعهم ، حيث إنه كان يتوجب على الباحثين آنذاك أن يقضوا جل وقتهم في جمع المال للقيام بأبحاثهم ومن بين هؤلاء العلماء أستاذ مشهور في أوربا إسمه جوهان ميخائيليس J. Michaelis من [جامعة] جوتنجن ، وهو رجل علامة ولكن الدراسات السامية تأتي في مقدمة اهتماماته ، وهو من الأوائل الذين اعتقدوا بأن فهم الكتاب المقدس وإدراكه لا يتم كلياً إلا بعد دراسة وتفهم البيئة التي نشأ فيها . لهذا فمن الواجب دراسة القبائل الساكنة في تلك المنطقة والتي لا زالت تحتفظ بالعادات والتقاليد القديمة الموروثة عن شعوب وقبائل ذُكرت في الكتاب المقـــدس .

وقد كشفت الخرائط المنشورة في ذلك الوقت ، خاصة خريطة دى أنْفِل D'Anville (نُشرت عام ١٧٥٥م) عن جهل الأوربيين بجغرافية الجزيرة العربية ، فيما وراء المناطق الساحلية ، ولذلك اقترح ميخائيليس في عام ١٧٥٦م على الملك فريدريك إرسال بعثة إستكشافية للمناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية ، وبذلك سيحصل على شهرة واسعة . ولكن المشكلة هي أنه لم يكن هناك آنذاك أي شخص مُؤَهّل لمثل هذه المهمة ، فما كان منهم إلاّ أن اختاروا فريقاً من الرجال وبدأوا في تدريبهم على المهمة . ولم تكتمل تلك التحضيرات إلا في يناير من عام ١٧٦١م حيث وقع الخيار على ستة رجال بدأوا رحلتهم بحراً من مدينة كوبنهاجن وكان كل أعضاء البعثة من الشباب ، فأكبرهم لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وأصغرهم كان في الثامنة والعشرين وكانوا على معرفة بسيطة جداً ببعضهم .

وحملت البعثة معها تعليمات من الملك كان قد نسخها ميخائيليس ، ومن هذه التعليمات ، أن يجلسوا مع بعضهم ، وأن يحتفظ كل واحد منهم بدفتر لتدوين اليوميات ، وحذروا بصفة خاصة من إقامة علاقات عاطفية مع نساء البلد ، ولفت نظرهم إلى أن حرية الممارسة مع الجنس اللطيف ، أمر مألوف في أوربا ، غير أنها في الجزيرة العربية ، قد تؤدي إلى انتقام عنيف ، ويجب عليهم أن يكونوا سواسية ، وأن يساند بعضهم بعضا ، وأن لا يحاول أي منهم التآمر على الآخرين ، وأن يسود التعاون فيما بينهم ،وللأسف كان هذا من باب التمني .

وقد أخذت البعثة معها عدداً كبيراً من الأسئلة كتبها ميخائيلس في ٢٣٥ صفحة ، كانت معظمها أسئلة لغوية تتعلق بالكتاب المقدس ، وقد طلب منهم بصفة خاصة بحث حركة المد والجزر في البحر الأحمر ودراستها (أُعطي لهذا السؤال أهمية كبيرة لصلته بعملية هروب بني إسرائيل من مصر) ، وهناك أسئلة تتعلق بعلم الحيوان ، عن الأسماك الطائرة والزحاف الخرافي والجراد والفئران الصحراوية ، مع أسئلة طبية عن مرض الفُيال[١٩] وعن الجذام وعن أهمية الختان ، وكانت هناك أسئلة تتعلق بعلم الاجتماع : عن البصاق وعن إثبات البكارة ، كما طلب منهم كتابة تقرير عن حورية الماء[٢٠] وعن العسل البري وعن شكل الخيام ، ولابد أن ميخائيلس انتظر بشوق للحصول على الكمية الهائلة من المعلومات والتي ستثبت نجاح البعثة .

لقد اختير أعضاء البعثة على أساس خبراتهم المتعددة التي يحتاجها هذا المشروع الكبير فكان اثنان منهم من الدنمارك : فون هافن Von Haven وهو لغوي ، وكرستيان كرامر Kramer وهو طبيب ، وإثنان من السويد : بيتر فورسكال Forsskal وهو عالم في الطبيعة والأحياء وتلميذ لعالم النبات الشهير لينايوس ، وبيرجرن Berggern وهو جندي قوي البنية ليكون خادماً للبعثة ، وإثنان مولودان في ألمانيا وهما : جورج باورنفايند

(١٩) الفيال : تضخم هائل في عضو ما من الجسد (المترجم) .

(٢٠) مخلوقة بحرية خرافية لها جسد امرأة وذيل سمكة (المترجم) .

Baurenfeind وهو رسام من نورمبرج ، وكارستن نيبور Neibuhr .

انحدر نيبور من عائلة فقيرة تمتهن الفلاحة بمقاطعة فريسلاند ، ولم يحصل على أي تعليم منتظم حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وها هو الآن في الثامنة والعشرين من عمره ومؤهل كمسّاح ، ولقد تولع بحب الرياضيات والهندسة ، وتعَلَّم قليلاً من العربية تحت إشراف ميخائيلس . وعين برتبة ملازم في الجيش الدنماركي . وكان نيبور أقل أعضاء البعثة تأهيلاً في المجال العلمي ، ولكن الظروف أثبتت أنه أكثرهم عقلانية وأكثرهم تحمساً لعمله ، وأقدرهم على تحمل المصاعب .

لقد مضت ثمانية عشر شهراً قبل أن تطأ أقدامهم التراب العربي وقد كانت هناك عواصف مخيفة في الشهرين الأولين من حملتهم وقطعت سيفنتهم خلالها ٢٨٠٠ ميل ، مع أنها كثيراً ما رجعت إلى الوراء . إن المجال هنا لا يتسع لذكر كل تفاصيل الرحلة التي تخللتها حوادث كثيرة كالرعب الذي ألم بهم عندما ألقوا أول نظرة على أحد الأتراك ، وكالمشاحنات العنيفة بين أعضاء البعثة حتى إنهم اتهموا فون هافن بأنه حاول دس السم لهم ، وعن السنة التي قضوها في مصر وقاموا خلالها بمختلف المهام الملقاة عليهم ، وقد اكتشف فورسكال أنواعاً جديدة من النباتات وتعرض لنهب وسلب من البدو والذين – على غير ما عرف عنهم من اللطافة – تركوا له سرواله الداخلي ، وقام نيبور بمسح فرع الرشيد من نهر النيل ، ورسم خريطة صحيحة للمواقع التي مسحها وتوصل لمعرفة ارتفاع الأهرامات . وقام كل من هافن ونيبور بزيارة سيناء وكان هذا الأخير من أوائل من نسخ النقوش المصرية الهيروغليفية .

ومن ميناء السويس استقلوا البحر ، وكانت الملاحة في البحر الأحمر دائماً صعبة ، بسبب الصخور المرجانية ، وتقلب التيارات ، وقد تم التغلب على الأخطار بصعوبة ، لأن ربان سفينتهم اليوناني ادعى أنه لا يستطيع تمييز المعالم حتى يشحذ بصره بتناول كأس من البراندي بين حين وآخر ، وأخيراً وصلوا إلى جدة دون حدوث كارثة

ومكثوا فيها ستة أشهر ، وكالعادة فقد انبرى نيبور لتسجيل الأشياء التي تهمه ، وقد لاحظ أن الناس يصيدون البط بوضع باقة من نباتات بحرية على رؤوسهم ثم يسبحون في اتجاه تجمع تلك الطيور . كذلك فإنه شاهد سارقاً قبض عليه بطريقة سحرية ، حيث أعطي لكل المتهمين قطَعةً من الورق ليضعوها في أفواههم ، وأخبروا أنه باستطاعتهم ابتلاعها بسهولة ، إلاّ السارق فإنه سيجد صعوبة في ذلك ، وقد ثبت صحة ذلك .

لم تستطع البعثة السفر إلى داخل الجزيرة العربية لأن ذلك سيؤدي إلى اقترابهم من مكة ، فأخذوا سفينة عمانية تُستعَمل عادة لنقلِ البُن ، وقد ذكر نيبور أن تلك السفينة هي أشبه بالبرميل منها بالسفينة ، وأن ربّانها لم يرتَدِ سوى إزار بسيط ، وأن بقية الملاحين يلبسون أقل من ذلك ، وهكذا بعد عامين من مغادرتهم الدنمارك حطوا رحالهم في اللحية ، وفي ٢٩ ديسمبر عام١٧٦٢م بدأوا رحلتهم في أرض اليمن السعيد .

لقد أعجبتهم اليمن كثيراً وأيدوا تسميتها بالأرض السعيدة . ومنذ اللحظة الأولى من وصولهم قوبلوا بالترحيب ووجدوا أن حاكم المدينة كان عبداً مملوكاً في السابق إلا أنهم وجدوه رجلاً ذا أخلاق نبيلة حقاً وأنه إنسان صادق ، شهم ، مخلص في صداقته ، وإذا كان هذا الحاكم يشعر بعدم الارتياح للوصول المفاجيء ، وبدون دعوة ، لهذه المجموعة من الأساتذة الأكاديميين ، فإنه لم يظهر أية علامة للدهشة ، بل على العكس ، فقد بعث لهم طعاماً وشراباً ، واستعد بدفع كل مصاريفهم ، وكانت علاقة البعثة مع الحاكم علاقة اجتماعية طيبة . فعندما تركوا اللحية أهدوه ساعةً يقوم بتعبئتها له يومياً رجل كان قد سافر إلى مصر .

ولاحظ نيبور أن طبائع الناس تختلف عما هي عليه في مصر ، وقال عن أهل اللحية إنهم أناس أذكياء ، كرماء وذوو أخلاق عالية. بقيت العلاقات طبيعية بين البعثة والأهالي حتى بعد الحادثة التي سبَّبها فورسكال ، والذي كان يفتقر إلى اللباقة ، فلقد سأل فورسكال مسؤول الجمارك أن يزوده بقملةٍ كي يجرب مجهره ، فأجابه المسؤول

قائلاً : إنه ليس من عادته أن يحمل مثل هذه الكائنات وكلف أحد الموظفين ليتعامل معه ولحسن الحظ تمكن المسئول من احتواء الموقف . لقد وجد فورسكال نفسه غير قادر على دراسة النباتات واللصوص في آن واحد وقال بأنه يستطيع جمع النباتات ودراستها بحرية مثل أوربا . وقد تجول نيبور في القرى اليمانية ، وبدأ برسم خارطة اليمن ، والتي بقيت لمدة قرن من الزمن ، أفضل خارطة موجودة لليمن .

قررت البعثة ، كما ذكر نيبور في مذكراته أن تتجنب ما أمكن ، التعرض للخطر في رحلتها في اليمن مثل أي بلد آخر في العالم ، لذا فقد تخلت عن زيارة مدينة مخا ، عن طريق البحر ، كما كان مقرراً في الخطة ولكنهم فقط بعثوا بكل أمتعتهم الثقيلة ومنها العينات التي جمعوها ، بينما هم سلكوا الطريق البري على ظهور الحمير ، ووصلوا مدينة بيت الفقيه في مارس عام ١٧٦٣م حيث اتخذوها مركزاً لهم ، وبقوا فيها حتى شهر أبريل .

إستمر نيبور في عمله لإعداد الخارطة ، فقد استأجر حماراً وارتحل مع صاحب الحمار الذي اتخذه خادماً له « ... [وفي رحلتي هذه أخذت] معطفاً كبيراً يغطي ذراعي ، وقمصياً وسروالاً من الكتان ونعالاً ، هذه كل ملابسي وقد حملت معي سيفاً ومسدسين علقتهما في حزامي على عادة أهل هذه البلاد ، الذين يحملون السلاح أثناء سفرهم ، وأخذت معي قطعة سجادة قديمة ، استعملها كسرج على الحمار ، وأجلس عليها عند خلودي للراحة ، وطاولة وأغراضاً أخرى متنوعة ، ولكي التحف في الليل أخذت معي قطعة من القماش ، يلفها الناس هنا حول أكتافهم وقاية لهم من المطر وحر الشمس ، وسطلاً للماء علقته على السرج وهو ضروري لكل مسافر في تلك المناطق الجافة» . وقد عاش نيبور مثل أي مواطن هناك حيث عود نفسه على أكل الخبز الخشن ، وهو الطعام الوحيد المتوفر تقريباً على طول الطريق ، وخلال بعض تلك الجولات كان باورنفايند يقوم برسم المناطق الواقعة على الطريق وكذلك السكان القاطنين بها .

لقد تحير الأهالي من النشاطات التي يقوم بها هؤلاء الغرباء ، فبالرغم من أن بيت الفقيه مركز لتجارة البن ، وسبق أن شهدت الاوربيين من قبل إلا أن هذه الجماعة تختلف عن غيرها ، فلا يبدو عليها أنها من التجار ، واعتقد بعض الناس أنهم من السحرة

أو ربما من الذين يعملون لكسب المال ، لان فورسكال يبحث عن الاعشاب ، ويعمل نيبور عدداً من التجارب في علم الفلك ، وقد ظُن مرة أنهما من رجال الدين الأتراك ، وقصدهما النساء للتبرك بهما وكانت المشكلة الوحيدة التي يعاني منها أغلبهم ، في هذه الفترة السعيدة ، هي البرد أو الحمى ، حتى إن الطبيب كرامر لم يكن يعرف حينذاك أن اليمن السعيد واحد من أكثر الاماكن التي تنتشر بها الملاريا ، في العالم .

وفي نهاية شهر أبريل تحركت البعثة إلى مدينة مخا ، وهناك حصلت لهم أول حادثة عكرت صفو رحلتهم في اليمن ، بسبب مكيدة دبرها لهم صديق منافق ، ففي دائرة الجمارك أصر الموظفون على فتح قنينة كانت تحتوي على بعض العينات وكانت العينة ، عبارة عن سمكة لم يحفظها فورسكال بطريقة جيدة ، فاخرجت رائحة كريهة ، اضطرت الموظفين إلى الهرب وعندما عادوا بعد أصبح ذلك ممكناً وجدوا في تحيتهم مواد أخرى وهى ثعابين حفظت بمادة الكحول بداخل قوارير ، فأصبح الأمر واضحاً بأن هؤلاء النصارى قد جاءوا لتسميم الأهالي المسلمين ، وثار الغضب ضدهم ، فرميت أمتعتهم خارج البيت الذي استاجروه وأمروا بمغادرة المدينة فوراً ، ولكن بوساطة تقديم رشوة للوالي التركي وبمساعدة بعض التجار الانجليز المقيمين هناك ، سمح لهم بالبقاء ، وفي الخامس والعشرين من مايو ، توفي فون هافن في مدينة مخا ، متأثراً بمرض الملاريا .

وبعد أيام من دفنه ، اتجهت البعثة إلى مدينة تعز ، أكبر مدينة في جنوب اليمن ، ولحسن الحظ أن الوالي كان قد سجن مؤخراً تاجراً معروفاً ، فأصبحت الفرصة مهيأة للوالي لإنزال هؤلاء الضيوف ، الذين فاجأوه بزيارتهم ، في بيت هذا التاجر . وقد بقوا في تعز لمدة أسبوعين ، وواصلوا كالعادة جولتهم ، ومن خلال استفساراتهم عن الاشياء الغريبة هناك ، سمع نيبور حكاية طريفة مفادها ، أن رجلاً صالحاً اسمه إسماعيل ملك كان قد اشتهر بكرمه ، وبعد وفاته زار شحاذ قبره ، والتمس منه هبة سخية ، فخرجت يد من القبر بخطاب إلى الوالي تطلب منه أن يدفع لحاملها مائة كراون[٥٠٠ شلن] ، فأخذها الرجل ، وذهب بها إلى الوالي الذي نفذ الأمر ، ولكنه بنى سوراً حول القبر ليمنع تكرار ذلك ، وقد أبدى الوالي ، فيما بعد ، نفس اللؤم في تعامله مع البعثة ، واشتدت المشاحنات بين الطرفين ، وذلك لأنهم أعربوا عن رغبتهم في الذهاب إلى صنعاء ، بينما

كان الوالي يحاول إعادتهم إلى مخا .

وفي خلال تلك الفترة ، أخذت صحة فورسكال في التدهور وحينها أصبح نيبور المسؤول الأول عن البعثة ، وبينما كانوا متجهين نحو الشمال توفي فورسكال في الحادي عشر من شهر يوليو في مدينة يريم ، وبعد خمسة أيام من ذلك وصلت البعثة إلى صنعاء ، حيث إن استقبالهم نادراً ما كان كريماً ، وبعد فترة وجيزة من وصولهم استقبلهم الإمام في ديوانه العام[٢١] ويقول نيبور إنه وجد الأمير جالساً بين الوسائد ، واضعاً رجلاً على رجل ، حسب الطريقة الشرقية وعلى جانبيه جلس اخوته وأولاده وكان مرتدياً لباساً أخضر خيوطه من الذهب ، وعمامة كبيرة بيضاء ، وعندما دخل الضيوف ، صاح الحاضرون : «حفظ الله الإمام» ، ومد الإمام يده بلباقة ، لتقبيلها . وقد رحب الإمام بهم وبعث لهم فيما بعد بمال وغنم وكسوة دليلاً على الحفاوة والتكريم .

وقد وصف نيبور صنعاء وكأنها فردوس ، بأسواقها التجارية الغنية بالبضائع الأوربية والهندية ، وبمبانيها الجميلة حقاً سواء العامة منها أو الخاصة . وقد رحب الإمام ببقائهم فيها لمدة سنة ، وعلى نفقته الخاصة ، ولكنهم كانوا خائفين ، فقد توفي إثنان من رفاقهم ويبدو أنهم أحسوا بنفس المرض ، وإذا ماتوا في اليمن ، فلن يعرف أحد في أوربا عن نتائج مجهوداتهم وسيعد ذلك فشلاً ذريعاً للبعثة .

مكث أفراد البعثة في صنعاء مدة عشرة أيام فقط ثم غادروها إلى مخا آملين أن يلحقوا بسفينة بريطانية كانت في طريقها إلى الهند وكانت رحلتهم إلى مخا شاقة جداً ، فقد شعر جميعهم بالمرض وكان عليهم أن يمهدوا جزءاً من الطريق الذي سلكوه ، وعند وصولهم إلى مخا وجدوا السفن قد غادرت ، ولكن لحسن حظهم رست سفينة أخرى بعد أسبوعين ، وحينما استقلوها كان نيبور الوحيد الذي كان قادراً على الصعود إليها بنفسه ، أما الباقون ، فقد حملوا إليها ، وقبل وصولهم إلى الهند توفي كل من باورنفايند

(٢١) هو الإمام العباس بن الحسين بن القاسم ولقبه المهدي ، ولد عام ١١٣١هـ وتوفى عام ١١٨٩هـ (الواسعي ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥) - المترجم .

وبيرجرن ، وبعدها ببضعة أشهر توفي الطبيب كارمر في بومباي ، أما نيبور فبالرغم من إصابته بالملاريا إلا أنه بقى حياً .

وفي ديسمبر ١٧٦٤م غادر نيبور إلى وطنه ، وفي طريقه زار مدينة بيرسيبولس Persepolis في إيران ، فكان أول من أعطى وصفاً مفصلاً لآثارها ، التي يظن أنها مثيرة للإعجاب أكثر من الأهرامات ، كما أصبح أول من نسخ نقشاً مسمارياً طويلاً ، وأصبحت نصوص نيبور ، أول نصوص أشورية قديمة ، يتم فك رموزها ، وبوصوله إلى البصرة في أواخر صيف ١٧٦٥م ، كان قد عمل خارطة قيمة للخليج .

واستمر نيبور في سفره ، وفي الطريق إلى الموصل أصبح أول أوربي يزور مدينة النجف ، حيث يوجد ضريح علي [رضي الله عنه] ، زوج ابنة الرسول ﷺ ؛ وأجرى نيبور تغييرات بسيطة على معداته التي كانت معه في اليمن وكان الجديد فيها هو فقط قربة فيها بعض الخمر من البراندي ليخلطه مع الماء الكريه في أغلب الأحيان ، وغليوناً حصل عليه حينما كان في إيران . وفي الحادي عشر من أبريل ١٧٦٦م [إنضم نيبور إلى] قافلة كبيرة تجمعت خارج مدينة الموصل ، مؤلفة من أكثر من ألف وخمسمائة بعير وأربعمائة مسافر ومائة وخمسين جندياً لحراستها ، وكانت القافلة محملة بالحرير والجوز ، الذي تستورده أوربا عن طريق مدينة حلب . وفي السادس من شهـــــر يونيو وصل نيبور إلى حلب ، وعلى نحو مميز بدأ أبحاثه هناك ، في مواضيع مختلفة وأقام في سوريا بعض الوقت رسم خلالها أول خارطة صحيحة للقدس . وبعد سنة من ذلك غادر القسطنطينية ، وهي المرحلة الأخيرة من رحلته حيث وصل إلى كوبنهاجن في شهر نوفمبر ١٧٦٧م ، فوجد أن الملك فردريك قد مات ، وأن الملك الجديد لم تكن عنده الرغبة في متابعة أعمال البعثة ، وقد شاركه في مثل ذلك من عدم الاهتمام ؛ الناس العامة والمتعلمين على سواء .

وقد اعتبر نيبور نفسه الوريث الوحيد لزملائه من أعضاء البعثة فبذل جهده لنشر

كل مكتشفاتهم ، وكتب مجهوداته التي قام بها هو تحت عنوان «Description of Arabia وصف الجزيرة العربية» وقد أبرز نيبور في هذا الكتاب الجهد العلمي الذي قام به فورسكال متضمناً الرسومات التي رسمها باورنفايند . وقد تحتاج إلى جهد ، وسعة خيال لندرك الجهود التي حققها نيبور ، وذلك لأن كثيراً منها أصبح الآن شيئاً مألوفاً ، فكلنا نعرف اليوم كيف يلبس البدوي وكيف يأكل ، وكلنا نتفق معه في رأيه : أنه إذا كان هناك شعب في العالم له أمجاد تاريخية قديمة وعلى قدر كبير من البساطة ، فالعرب هم الذين يتصفون بذلك . وبالعيش معهم ، فإن الواحد منا لا يستطيع أن يتخيل نفسه أنه انتقل فجأة من مجتمع متقدم إلى مجتمعات العصور القديمة التي أعقبت الطوفان . إننا هنا نجد أنفسنا منجذبين نحو تخيل أنفسنا بين أولئك الشيوخ الذين استمتعنا بمغامراتهم ونحن صغار ، فاللغة التي استخدمت منذ غابر العصور والتي تشبه تقريباً تلك التي تعودنا أن نعتبرها عريقة في القدم تكمل الصورة التي نتخيلها ، ومرة أخرى عندما نقرأ كتاب نيبور ، نكاد لا نجد شيئاً لا نعرفه اليوم ، ولكننا يجب أن نتذكر أن المعلومات التي جاء بها [قبل مائتي عام] ، كانت الأولى من نوعها في أوربا . وكل الرحّالة الذين جاءوا بعده اعترفوا بحقه عليهم ، وقلّما وجدوه مخطئاً .

كان وصف نيبور خالياً تقريباً من الأهواء الشخصية ، فهو عبارة عن تقرير رسمي التزم فيه الجانب العلمي والفلسفي ، إضافة إلى توخيه الدقة والحذر . كما أنه لم ينتحل شخصيات أخرى مثل أولئك الذين دخلوا مكة أو الذين تجولوا مع البدو وهم متنكرون ، ولكن مع هذا فإن من ساهم منهم في دراسة الجزيرة العربية ، عدد قليل .

ليس هناك ما يستحق ذكره عن حياة نيبور ، بعد رجوعه إلى الدنمارك ، فقد تزوج واشتغل كاتباً للمجلس البلدي في مدينة نائية ، بعد ذلك اشترى حقلاً زراعياً ، واستقر به حتى جاءته المنية في عام ١٨١٥م ، وكان عمره آنذاك في الثانية والثمانين .

بوركهـــــــارت



يوهان لودفيج بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧م)، واحد من أدق الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية وأصحهم , تدويناً . من صورة نقشها ريتشـــارد وســتول .

إننا لا نستطيع القول إن يوهان لودفيج بوركهارت Burkhardt كان حقاً رحالة في الجزيرة العربية ، إذ كان أمله الوحيد ، هو الوصول إلى تمبكتو ، ومنابع نهر النيجر . وفي أثناء رحلته تلك ، اكتشف شيئين مهمين في الشرق الأوسط ما زالا محط أنظار السائحين : مدينة البتراء ، ومعبد أبو سنبل ، بالإضافة إلى أنه عاش ستة أشهر في مكة . ولكنه لم يخرج مطلقاً عن نطاق الألفي ميل التي كانت ضمن خطته الأصلية .

إنه لمن الصعب الكتابة عن بوركهارت في كتاب كهذا ، فقد كان الرجل ممتهناً لحرفة الاستكشاف إذ عمل مخططاً ومنهاجاً كاملاً لكل رحلاته ، لذلك نجد ما ذكره في كتابه خالياً من روح المغامرة ، حيث لم يجد صعوبات كثيرة في رحلته ، ماعدا سوء صحته . وبالرغم من أن كتاباته تكاد تكون مُمِلّة وخالية من التشويق (هذا مع العلم أنه كتب كتابه بلغة تعتبر أجنبية بالنسبة له) إلاّ أنها مع ذلك تعتبر معلومات أساسية عن المناطق التي زارها .

كان بوركهات رجلاً سمحاً ، حكيماً ، جاداً في عمله وفناناً بارعاً . ولد في عام

١٧٨٤م من أب سويسري كان يعمل ضابطاً برتبة عقيد ، وقد اضطر إلى الهرب من بلدته عندما اجتاحتها الجيوش الفرنسية . درس بوركهارت في ألمانيا قبل مجيئه إلى بريطانيا ، حيث التقى بالسير جوزيف بانكس Joseph Banks عضو الجمعية الأفريقية التي موَّلت عدداً من البعثات الاستكشافية إلى منطقة النيجر ، والتي انتهت كلها بهلاك المكتشفين ، وعرض بوركهارت خدماته على الجمعية الأفريقية ، على أن يحاول الوصول إلى تمبكتو ، مع قافلة للحج كانت في طريق عودتها من مكة ، وتم الاتفاق بينه وبين الجمعية ، وكانت أجرته جنيهاً في اليوم .

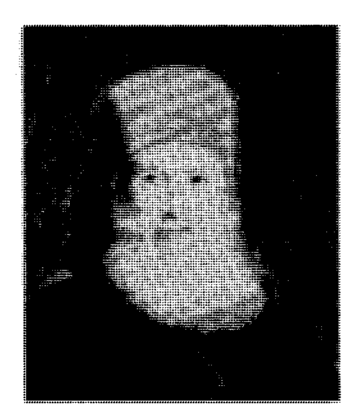
بدأ بوركهارت يتهيأ للرحلة ، فذهب إلى جامعة كمبردج وهناك درس اللغة العربية والطب والفلك وعلوماً أخرى ، وبدأ يطلق لحيته وقام بممارسة الأمور القاسية ، كالنوم على الأرض ، والمشي لمسافات طويلة ، واعتماده في طعامه على أكل الخضار . وبعد سنة واحدة سافر إلى مالطة متنكراً في زي طبيب هندي . وعندما طُلب منه مرةً أن يقول شيئاً باللغة الهندستانية ، قال بعض الكلام بلغته الألمانية – السويسرية ، فصدقه السائلون على أنه تكلم بلسان بربري .

لقد قضى بوركهارت سنتين في حلب حسن خلالها معرفته باللغة العربية ، مبرهناً على قدرته بترجمة قصة روبنسون كروزو Robinson Crusoe إلى اللغة العربية . بالإضافة إلى ذلك ، فقد درس العلوم الإسلامية بنفس المستوى ، وبدأ يتعاطف مع هذه العقيدة حتى إنه أسلم رسمياً . إن معرفته بالعلوم الإسلامية ، كانت واسعة جداً وكثيراً ما استشاره علماء البلد هناك ، حتى إن قاضي مكة ذكر عنه أنه ليس مسلماً فحسب وإنما هو عالم حقاً وعن طريق الصدفة اكتشف بوركهارت أول نقش حيثي معروف .

وفي خلال هذه الفترة كان بوركهارت كثيراً ما يتجول مع البدو ، وخصوصاً مع قبيلة عنزة ، واستطاع أن يصل إلى تدمر وإلى نهر الفرات ، وقد نشر نتائج أبحاثه التي تضمنت دراسة عن البدو الرحل تكاد تكون الأولى من نوعها في علم

الانثروبولوجيا ، وعن هذه الفترة كتب يقول : لقد قضيت بين البدو بعضاً من أسعد الأيام في حياتي ، ولكن قضيت بينهم أيضاً ، بعضاً من أضجر الأوقات وأكثرها مللا ، عندما يضيق صدري وأنا جالس طوال النهار ، أراقب قرص الشمس من شروقها إلى غروبها يخترق الخيمة حيث كنت أعرف أنه سيكون في المساء ، بعضاً من الغناء والرقص ، الذي يخلصني من رفاق لعبة الداما .

لقد ظهرت في تلك الفترة ، مشاهدات غريبة عن : «كيف تسرق جملاً ؟» وينصحك بوركهارت بمسك ذيل الجمل وعندئذ يعدو بسرعة ويسحبك وراءه ، كما يصف النعامة وتصرفاتها فيقول : «حينما تجلس النعامة على بيضها ، يذهب الذكر إلى أقرب مكان مرتفع لمراقبة موقع العش ، غير أنه بذلك يثير الانتباه ، وعندما يقترب الصياد من العش ، تطير النعامة تاركة بيضها وعندئذ يحفر البدوي حفرة ويضع بندقيته فيها ، معبأة بالذخيرة مع فتيل احتراق طويل ويصوبها نحو العش ويذهب بعيداً ، وعندما يخلو المكان تعود الطيور وتطلق النار عليها بواسطة التحكم من بعد . ومن المشاهد الجادة التي رواها بوركهارت هي عن طريقة أخذ العهد ، وواجبات الضيافة ، ومفهوم الشرف ، وقد كتب آخرون بعده ولكن بوركهارت فاز عليهم بقصب السبق .



محمد علي باشا والي مصر . كان أصله جندياً ألبانياً في الجيش العثماني ، وبسبب عبقريته السياسية وقسوته الخالية من الرحمة جعل من نفسه حاكم مصر لمدة تزيد على أربعين سنة واستغل سلطته في الإسراع بالتصنيع في الداخل والتوسع في الخارج . وبناء على طلب السلطان التركي صاحب السلطة العليا عليه قام في عام ١٨١١م بغزو الجزيرة العربية لإستعادة الأراضي المقدسة من الوهابيين ، وقد كان لطيفاً مع علي بك وبوركهارت ومساعداً لهما . الصورة من متحف تيت جالرى بلندن .

وفي فبراير من عام ١٨١٢م شعر بوركهارت أنه قد آن الأوان لأن يبدأ في القيام بالمرحلة الثانية من رحلته إلى النيجر : فسافر على مهله إلى جنوب سوريا في طريقه إلى القاهرة التي وصلها في سبتمبر ولكنه على أية حال لم يجد قافلة تستعد للسفر إلى غرب أفريقيا ، قبل حلول شهر يونيو ، لذلك فقد قرر أن ينحدر مع النيل حتى منطقة النوبة ، ومن هناك كان يأمل أن يجد طريقاً إلى غرب القارة ، وإذا فشل في محاولته هذه فباستطاعته الرجوع إلى القاهرة في الوقت المناسب [للإنضمام إلى القافلة الآنفة الذكر] . وعلى كل حال ، فإن رحلة كهذه ستمكنه من أن يصل إلى مناطق جديدة لم تُكتشف من قبل ، إذ لم يصل أي شخص أوربي إلى المناطق الجنوبية لأسوان ، وقد استطاع بوركهارت أن يصل إلى مسافة مائتي ميل جنوب أسوان ، وأن يكتشف معبد أبو سنبل ، وقد واجه مشاكل من الحكام المحليين المستبدين عادة والسكارى في بعض الأحيان ، والظاهر أنه لم يستطع الاستمرار في سيره نحو الجنوب ولا نحو الغرب ، فعبر النيل على ظهر مركب متقلقل وقرر أن يعود أدراجه ، وفي أسيوط علم أنه ليس هناك أي أمل قريب في الذهاب إلى غرب أفريقيا لذلك قرر أن يزيد من فرص نجاحه لتحقيق هذا الهدف ، بالحصول على لقب «حاج» والذي سيخدمه خلال تنقله في البلدان الإسلامية الشاسعة ، فانضم إلى قافلة حج تألفت من نوبيين وسوادنيين وجهتها مكة ، ويقول إنه ارتدى في تلك الرحلة ثوباً وعباءة وسروالاً وقلنسوة ملفوفاً حولها بقماش ، واحتذى نعالاً وأخذ معه دفترين للملاحظات وقلم رصاص وسكينة جيب وبوصلة وكيساً من التبغ وحجر قداحه من الصوان وخمسين دولاراً أسبانياً وقطعتين نقديتين من الذهب ، خيِّط عليهما في حجاب ، أما بالنسبة إلى السلاح ، فقد أخذ معه بندقية ومسدساً وعصا ذات رأس حديدي ، وليحمي نفسه أكثر ، فقد أخذ معه خطاباً من باشا مصر ؛ محمد علي على أنه الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي .

واستعداداً لرحلته عبر الصحراء ، والتي سيقطع فيها مسافة ١٢٠٠ ميل وتدوم لمدة أربعة أشهر ، فقد أخذ معه أربعين رطلاً من الطحين ، وعشرين رطلاً من البسكويت ، وخمسة عشر رطلاً من التمر ، وعشرة أرطال من العدس ، وستة أرطال من

الزبدة ، وخمسة أرطال ملح ، وثلاثة أرطال من الأرز ، ورطلين من اللبن ، وأربعة أرطال تبغ ، ورطلاً واحداً من الفلفل ، وبعضاً من البصل ، وثمانين رطلاً من الدخن لحماره ، كما أخذ معه أيضاً غلاية ماء نحاسية ، وصحناً نحاسياً ، ومحمصة للقهوة ، وهاوناً لطحن القهوة ، وفنجانين للقهوة ، وسكيناً ومعلقة ، وطاسة خشبية للشرب وللمِلء القرب ، وفأساً ، وعشر ياردات من الحبال ، وإبراً وخيوطاً ومخيطاً ، وقميصاً احتياطياً ، ومشطاً ، وقطعة بساط ، وقطعة قماش تستخدم كبطانية ، وبعضاً من الأدوية ، وثلاث قرب احتياطية للماء ، كما أخذ معه بعض المواد للمتاجرة بها ، إذ حمل معه عشرين رطلاً من السكر ، وخمسة عشر رطلاً من الصابون ، ورطلين من جوز الطيب ، وإثنتي عشر أداة حلاقة ، وقلنسوتين حمراوتين ، وبضعة درازن من المسابح الخشبية . وقد زادت أمتعته في مدينة شندي[٢٢] ، فقد اشترى عبداً بستة عشر دولاراً وقد كان كثير من رفاقه تجار رقيق .

بقى بوركهارت شهراً واحداً في شندي ، والتي وصفها وصفاً مسهباً وعلى نمط الكاتب جيبون فإنه ينتقل إلى الكتابة باللاتينية فيما يختص بالمسائل التي يجب أن لا تذكر أمام النساء . وكان بإمكان بوركهارت أن يستقر في شندي مدى الحياة ، إذ عرض عليه الحاكم المحلي ؛ عبداً وجاريتين إذا هو قبل العمل في صناعة الأسلحة أو صيانتها ، وفي السابع من تموز عام ١٨١٤م استقل بوركهارت وعبده البحر من سواكن ، على البحر الأحمر ، وبعد رحلة دامت لمدة أسبوعين تقريباً بسبب قلة خبرة الملاح ، وصل إلى جدة سالماً .

وحال وصوله إلى جدة ، وقع بوكهارت مريضاً ، وربما كان مصاباً بالملاريا ، وقد ظن أنه سيموت لولا أنه تلقى علاجاً بالحجامة على يد حلاق من أهل البلد ، كما وجد نفسه بلا نقود مطلقاً بعد أن رفض التاجر ، أن يدفع له نقوداً بموجب الاعتماد المالي الذيّ قدمه ، فاضطر آسفاً إلى بيع عبده ، الذي أصبح محباً له للغاية ، بسعر ٤٨

(٢٢) تقع شندي على بعد حوالي ١٤٥ كم شمالي الخرطوم على الضفة الشرقية لنهر النيل وهى قريبة من مدينة مروى الأثرية التي بلغت قمة ازدهارها في الفترة ما بين القرن الخامس ق.م والقرن الرابع الميلادي (عن مروى أنظر عبدالله ، ص ١٩ — ٢٠) — المترجم .

دولاراً ، وهو ثلاثة أضعاف قيمته ، وكان ذلك تقريباً ، كافياً لتغطية مصاريف رحلته عبر الصحراء .

وقد تقمص بوركهارت شخصية ثري مصري ضاقت به الحال ، وكتب إلى القاهرة لتزويده بالمال . بالإضافة إلى ذلك ، فإنه كتب إلى محمد علي والذي كان موجوداً في الطائف حينذاك لمتابعة حملاته ضد الوهابيين . وبعد فترة قصيرة استلم بوركهارت إذناً للحصول على بعض المال ، وبدلة ملابس ، ودعوة لزيارة محمد علي باشا . لقد مر على بوركهارت أكثر من شهر في مدينة جدة بما فيها أيام مرضه ، كتب خلالها مائة صفحة من الملاحظات الدقيقة ، مع وصف مفصل عن عادات أهلها وتجارتها ، حتى إنه كتب عن العلامات التجارية للتبغ المتوفر في السوق .

وفي الطائف سكن بوركهارت في البيت الذي يسكن فيه الطبيب الأرمني لمحمد علي باشا واسمه : بصري Bosari ، والذي كان يعرفه في القاهرة ، وفي المساء من يوم وصوله ، استقبله محمد علي وتبادلا أطراف الحديث عن الشئون العالمية ، وقد أبدى الباشا مخاوفه من الإنجليز ، ومن سياستهم التوسعية تجاه مصر مستغلين قوتهم بعد هزيمتهم لنابليون ولكنه على أية حال أوضح قائلاً : إن الملك القوي لا يعرف إلاّ شيئين : سيفه وخزانته ، ودائماً ما يشهر الأول ليملأ الثاني . وفي تلك المحادثة دُهش بوركهارت حينما أخبره الباشا بأن السويد قد احتلت المدينة الإيطالية جنوه ، ولكن دهشته سرعان ما زالت عندما أدرك خطأ النقل إلى العربية من اللغة الأجنبية حيث كانت سويسرا في الواقع هي التي احتلت هذه المدينة .

وكان قاضي مكة دائماً ما يتردد على مجلس محمد علي باشا ، فتناقش مع بوركهارت في العلوم الدينية وأثبت بوركهارت معرفةً لا بأس بها . وفي بعض الأحيان كانا يقيمان الصلاة سويا ، ويخبرنا بوركهارت أنه كان يحاول قراءة السور الطويلة التي يحفظها من القرآن ، ولم يستطع بوركهارت أن يتأكد فيما إذا كان محمد علي باشا قد

شك في إسلامه أم لا ، وعلى كل حال فإن الباشا لم تكن تهمه تلك الأمور ، طالما أن أمره لم ينكشف وحتى لو انكشف فإن بإمكان الباشا أن يضع المسئولية على القاضي ، ومع أن بوركهارت لم ينكر أنه أوربي إلا أنه شعر أنه مشكوك في كونه جاسوساً بريطانياً ، وأنه تحت المراقبة لذا قرر ترك الطائف فعمد إلى تصرفات تبغضه إلى مضيفه بالرغم من انه كان يقول ، إنه في وضع مريح وأنه ينوي الإقامة لعدة أشهر .

وبطلب عاجل من بصري ، أعطى محمد علي موافقته على مغادرة بوركهارت وفي الثامن من ديسمبر عام ١٨١٤م ، دخل بوركهارت مكة وكان عليه أن يبقى فيها حتى يناير ١٨١٥م ، وإن كان قد ذهب إلى جدة في زيارة قصيرة لإحضار بعض الأدوات ولشراء عبد . وقد كتب يقول : «خلال كل رحلاتي في الشرق ، لم استمتع براحة كاملة مثلما استمتعت بها في مكة ، وسأحتفظ دائما بذكرى جميلة عن إقامتي بها ، وبالتاكيد ، فإن بوركهارت قد استغل وقته في مكة كاملاً حتى بلغ وصفه لها ، نحواً من ٣٥٠ صفحة ولم يترك للرحالة الذي جاء بعده مثل الناقد بيرتون شيئاً ليضيفه أو ليصححه . لقد أعجب بوركهارت بأهل مكة ، فقد وجدهم كرماء ، ظرفاء ومرحين ، وكان متعجباً من شعورهم المتمثل في قولهم : «الله جعلنا مذنبين بذنوب كبيرة ولكنه أعطانا فضيلة التوبة» ، وهذه العناية الآلهية جعلتهم يعيشون في مكة لاستلام الصدقات لا لإعطائها والفئة الوحيدة التي كال بوركهارت لها الذم ، هي فئة المطوفين التي تجهز نفسها لانتظار الحجاج ولا تدعهم يعودون قبل أن يفرغوا ما في جعبتهم من نقود ، ويخص بالذكر ، صاحبه الذي كان شحاذاً دون خجل وسرق منه ملابسه ودائماً ما كان يزوره ويشاركه طعامه بدون دعوة سابقة ويحضر معه كيساً ليأخذ به كل ما تبقى كما أنه دعي مرة كل أصدقائه لوليمة أقامها على شرف بوركهارت في مسكن بوركهارت نفسه ثم أرسل لضيفه فاتورة بالحساب . وكان هناك تصرف غريب من قبل المطوفين : فالمرأة غير المصحوبة بزوج قد لا يمكنها أداء الحج ، فيقوم المطوفون بتهيئة زواج مؤقت للثريات من الأرامل الزائرات ، وعادة ما يفترق الزوجان بالطلاق في نهاية الموسم ولكن لو رفض الزوج الطلاق فإن رباط الزوجية يظل قائماً .

لقد ترك لنا بوركهارت ، وصفاً مسهباً لا يضاهى ، عن المسجد الحرام الذي كان يضاء بآلاف الفوانيس ، التي بدت على نحو باهر على أعمدة المسجد ، في ليالي شهر رمضان الجميلة ، وعن النسيم البارد (سببه ، كما يعتقد الناس ، رفرفة أجنحة سبعين ألف ملك) الذي كان مريحاً للنفس ؛ بعد صيام يوم حار . وقد استأنس بوركهارت بضوضاء تلاميذ المدرسة ، وهم يتلقون دروسهم في المسجد واسترعى انتباهه أن عصا المدرس لا تفتر من الاستعمال .

قام بوركهارت بأداء كل مناسك الحج ، وقد حضر الوقوف على جبل عرفات مع كل الحجاج وكتب قائلاً : «خلال هذه الشعيرة التي دامت ثلاث ساعات شوهد القاضي يمسح باستمرار دموعه بالمنديل ، أما الخطيب والواعظ ومن في منزلتهم فكانوا في موقف الشاعر بالندم وأضاف قائلاً : إنه متى ماجرى الدمع على وجهه فهو دلالة على أن الله قد أنار بصيرته وإنه [تعالى] مستعد ليسمع دعواته ، وكان بعض الحجاج ومعظمهم من الأجانب يجهشون بالبكاء أو يضربون صدورهم ، معترفين بعظم ذنوبهم والبعض الآخر ، وهم قلة ، قد وقفوا في ذلة وخشوع وعيونهم تملأها الدموع ، ومجموعة من أهل الحجاز ومثلهم من الجنود الأتراك يتحدثون ويضحكون ، بل ويومئون بانتقاداتهم وكأنهم يسخرون من الشعيرة نفسها ، وخلفنا على التل شاهدت عدداً من العرب والجنود في جلسة هدوء يدخنون النارجيله ، وفي كهف قريب كانت إمرأة فاجرة تبيع القهوة ، وكان زوارها بقهقهتهم العالية وصخبهم ، كثيراً ما أزعجوا الحجاج القريبين منهم ، المنهمكين في تعبدهم وتضرعهم .

واضطر بوركهارت أن يبقى في مكة مدة شهر بعد انتهاء موسم الحج بسبب عدم استقرار الأوضاع في البلاد حيث كان محمد علي ، ما يزال منهمكاً في إجراء الاستعدادات لهزيمة الوهابيين مما اضطره إلى مصادرة كل بعير لحمل تجهيزاته ، وفي إحدى المرات دارت إشاعة ، مفادها أن محمد علي قد هزم ، وأن جماعة من البدو اللصوص في طريقهم لنهب مكة ، فما كان من بوركهارت إلا أن يأخذ خادمه ويحتمي بالمسجد الحرام ، ومهما يكن من أمر ، فإن محمد علي باشا قاد جيشه في حملة عسكرية

في بداية شهر يناير من عام ١٨١٥م وقضى على مقاومة القبائل مما أدى إلى استعادة جزئية للأمن في المنطقة (لقد ذهبوا إلى المعركة وأرجلهم مربوطة بالسلاسل لمنعهم من الهرب) .

وقد غادر بوركهارت مكة إلى المدينة وقد استغرقت مدة السفر على ظهر الجمل قرابة اسبوعين ، وقد كانت رحلته كالعادة بدون أية حادثة تذكر ولكنها كانت مثل باقي رحلاته ، متعبة وغير مريحة حيث لم يكن هناك مكان للاستراحة على طول الطريق البالغ ٣٠٠ ميل . مكث بوركهارت ثلاثة أشهر في المدينة ، كان خلالها طريح الفراش لمدة ثمانية أسابيع لدرجة أنه أيقن بالموت ، وكان الرجل حي الضمير ، فلم يكن قلقاً على نفسه بقدر ما كان قلقاً على احتمال ضياع المعلومات التي جمعها أثناء رحلاته وعدم وصولها إلى من أرسلوه ، وكانت سلوته الوحيدة في تلك الفترة ، قراءة كتاب [ديوان الشاعر الإنجليزي] ملتون Milton والتحدث مع العجوز اللطيفة سيدة المنزل الذي سكن فيه .

لم يكن وصفه للمدينة شاملاً بنفس الصورة التي وصف بها مكة ، فقد فوجيء بأن وجدها في حالة لا تليق ، حيث إن قبر الرسول ﷺ كان بسيطاً جداً ، في الوقت الذي كان فيه ضريح قديس كاثوليكي صغير القدر قد بني على أحسن ما يكون وعلق على ذلك بقوله إنه مهما كانت قوة إيمان المسلم وتعصبه ، فإنه مع ذلك غير مستعد للتضحية المالية في سبيل عقيدته ، أما الحرف والصنائع فإنها أقل مما هى عليه في مكة ، واقترح أنه في حالة إجراء ترميمات ولو بسيطة للمسجد فإنه يتوجب جلب الحَرفيين من مصر للقيام بذلك ، وقد لاحظ أن أساليب الزراعة فيها متقدمة .

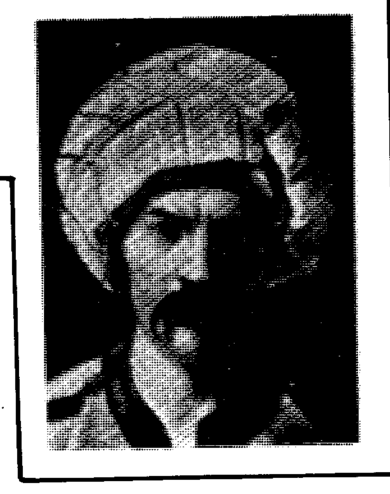
وبالرغم من مرض بوركهارت فإنه غادر المدينة قاصداً ينبع ، فوجد الطاعون – أخطر وباء في المنطقة – قد اجتاحها ، وقد وبّخ بوركهارت ، على تفوهه بهذا لإن المعروف [عند العامة] أن الله ، قد استثنى الحجاز المبارك من هذا الوباء ، ومهما يكن فقد

كان الناس يموتون يومياً ، وكان هناك جمل وضع على ظهره غطاءٌ مزركش وقيد خلال شوارع المدينة ليلتقط كل الجراثيم ثم ذبح وترك لحمه فريسة للطيور الجارحة والكلاب ، وقد زادت مخاوفه عندما علم أن عبده قد تطوع لغسل الموتى ، وبعد حوالي ثلاثة أسابيع استقل بوركهارت «سمبوكاً» فوجد أن الوباء قد انتشر بين ركابه ، وفي ٢٤ يونيو دخل بوركهارت القاهرة بعد غياب دام سنتين ونصف .

لا يبدو على بوركهارت أنه قد استرد كل عافيته بعد الجهود المضنية التي بذلها ، ومع هذا فإنه لم يفقد أمله بالانضمام إلى القافلة وجهتها تمبكتو ، غير أنه وجد أنه لا يبدو في الأفق احتمال تحرك مثل هذه القافلة في المستقبل ، فبدأ بكتابة وصف لرحلاته وقضى شهرين في صحراء سيناء تعرض خلالها لحادث لم يتعرض لمثله في شبه الجزيرة حيث أشرف على الهلاك على يد البدو ، وبعد رجوعه إلى القاهرة ، توفي فيها في ١٥ أكتوبر ١٨١٧م ودفن في مقابر المسلمين ، وبعد شهرين من وفاته ، غادرت القاهرة قافلة متجهة إلى تمبكتو وهي الأولى بعد انقطاع دام أربع سنوات .

لقد شاهد بوركهارت ، كما شاهد نيبور من قبله ، مساحة صغيرة من الجزيرة العربية ، ولكنه من الصعب أن تجد رجلين قد وصفا ما شاهداه وصفاً دقيقاً وشاملاً ، كما فعل هذان الرجلان . إن شخصية بوركهارت وأعماله تضعانه عالياً بين الرحالة المشهورين في التاريخ .

بيرتـــــــون



ريتشارد بيرتون ، كان متقناً بارعاً لفن التنكر ، ولديه مهارة لا تصدق في تعلم اللغات وهاتان الخصلتان ساعدتاه جداً في الجزيرة العربية عندما وصل إليها في عام ١٨٥٣م .

لو نظرنا إلى كل الشخصيات المذكورة على صفحات هذا الكتاب ، لوجدنا أن ريتشارد فرانسيس بيرتون Burton من أكثرهم نشاطاً وحيوية وأكثرهم إنتاجاً ، لذلك نجده من بين الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية ، باستثناء لورانس ، ينفرد بجذب كتاب السيرة ، وأول سيرة لحياته نشرت قبل عشر سنوات من وفاته ، وإن قائمة بمؤلفاته لتغطي أكثر من ٣٠٠ صفحة . لقد كتب بيرتون عن : الطعن بالسلاح الأبيض ، والصيد بواسطة الصقر ، وهندسة المناجم ، وعلم الآثار ، والثعابين ، والطب ، والهندسة ، وتسلق الجبال ، والدين ، والجنس . وقد وصف بيرتون رحلات قام بها في كل قارات العالم ما عدا إستراليا ، وعن أفريقيا وحدها كتب ثلاثة عشر جزءاً ، تعداد صفحاتها أكثر من ٤٦٠٠ صفحة ، أما الجزيرة العربية ، فقد ظلت ، كما يقول بيرتون : «الأرض التي تولع بها قلبي» ، وهذا الفصل من الكتاب يخص فقط تلك الفترة من حياته التي قضاها على هذه الأرض .

لقد ادعت أمه أنها منحدرة من سلالة أحد الأولاد غير الشرعيين للملك لويس الرابع عشر ، ومع أن أباه كان ضابطاً في الجيش ، لكنه كثيراً ما قيل إن أصله غجري ، وبعد فترة قصيرة من ولادة أبنه ريتشارد ، ترك الأب مهنته في الجيش وأخذ يترحل في

فرنسا وإيطاليا ، ولم يتلق ولديه سوى قليل من التعليم المنتظم باستثناء التدريب على استعمال السيف ، وتعلم نصف درزن من اللغات المحلية .

كان العقيد بيرتون يعد ولده للكنيسة ، فأرسله إلى جامعة أكسفورد ، ولكن ريتشارد افتعل الأسباب لطرده منها ، وهكذا تخلص من العمل في الكنيسة ، وحتى قبل طرده ، حدث مرة أن أثار دهشة الآخرين ، عندما طلب من أحد زملائه أن ينازله في مبارزة لأنه سخر من شاربه . وصل ريتشارد بيرتون إلى بومباي في أكتوبر ١٨٤٢م كملازم ثاني في القوات المسلحة لشركة الهند الشرقية وقد برع بيرتون بشكل لا يصدق في إتقانه للغات الأجنبية ، ففي كل بضعة أشهر كان يتعلم لغة ، حتى إنه في أواخر حياته كان باستطاعته أن يتكلم تسعاً وعشرين لغة ، وما لا يقل عن إثنتي عشرة لهجة مختلفة ، ولم يقنع أبداً بتكلم اللغة ، بل يطمح لأن يتنكر في زي واحد من أهلها ويود أن يستأجر دكاناً ويجلس به ويتعامل مع التجار كأنه واحد منهم ، وقد أقنعت هذه المواهب رئيسه الجنرال ليطلب منه ، أن يعد له تقريراً عن أماكن الرذيلة ، وقد وجد بيرتون هذه المهمة ممتعة ، فقام بها على أكمل وجه ، إلا أن التقرير وقع في أيدي أناس آخرين فأستغلوه ضده وشوهوا سمعته حتى إنه لقب «دك الشرير»[٢٣] وقد كانت محاولته لاختطاف راهبة وما بدر منه من تصرفات غريبة ، كهوايته تربية القردة التي كان يدعوها إلى مائدة الطعام والتي سمى إحداها زوجة له ، فهذه التصرفات وغيرها أدت إلى عدم تحسين سمعته السيئة وإلى كره المسئولين له ، حتى إنه منع من الاشتراك في حرب السيخ الثانية عام ١٨٤٨م ، بالرغم من أنه كان الضابط الوحيد الذي كان يتكلم لغة السيخ ، وبعد أن وجد كل الطرق قد أغلقت في وجهه في الهند ، قرر أن يأخذ إجازة مرضية طويلة الأمد ، ورجع إلى أوربا لمدة أربع سنوات قضاها في البحث والكتابة .

كان اهتمام الناس بالاكتشافات الجغرافية في منتصف القرن التاسع عشر ، كاهتمامهم اليوم باكتشاف الفضاء ، وكان بالإمكان لأي شخص أن يحصل على

(٢٣) دِك اسم تصغير لاسم ريتشارد (المترجم) .

مساعدات مالية ومعنوية إذا جاء بخطة معقولة للقيام برحلة . وفي خريف عام ١٨٥٢م عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية في لندن ، لغرض إجراء بعض الاكتشافات في المنطقتين الوسطىٰ والشرقية للجزيرة العربية . وكانت خطة بيرتون هي السفر إلى مسقط ، ومن هناك يبدأ رحلته إلى كل من مكة والمدينة ، ماراً بالربع الخالي . وقد أيّدت الجمعية الجغرافية تلك الخطة . إلاّ أن شركة الهند الشرقية ، وهي الممولة للمشروع ، رأت أن الخطة مليئة بالأخطار ، ولكنها وافقت بدلاً من ذلك ، على أن تسانده في دراسة اللغة العربية في بلاد يتم فيها تعلم اللغة على أحسن وجه . وعلى كل حال فإن خطة بيرتون الأولى ، كانت تحتاج إلى وقت طويل [ولا تسمح له إجازته بذلك] ، وهكذا فقد عكس الخطة على أن يبدأ رحلته من مكة إلى مسقط ، ماراً بالربع الخالي ، ومن مسقط يركب إلى الهند ، قبل انتهاء إجازته ، وقد وجد بيرتون أن مثل هذه الخطة لها فوائد عديدة ، فبالإضافة إلى اكتشافه مناطق في الجزيرة العربية ، لم تكن معروفة للأوربيين من قبل ، فإنه كان يأمل مثل بوركهارت ، أن يحصل على لقب حاج الذي سوف يسهل له الحركة في البلاد الإسلامية . وكذلك فإنه خلال وجوده في الجزيرة العربية ، سيحاول الحصول على الخيول العربية للجيش البريطاني في الهند ، وفي أبريل من عام ١٨٥٣م غادر بيرتون ميناء ساوثهامتون متنكراً في زي سيد إيراني ، وأثناء الرحلة البحرية حاول أن يتقن تنكره كمسلم ، فعندما شرب الماء أمسك بالقدح وكأنه يمسك بحنجرة عدو له ، ثم تجشأ عندما إنتهى ، وبعد شهر من وصوله إلى مصر ، قرر أن يغير شخصيته من تلك التي تنكر فيها كسيد إيراني إلى درويش متجول ، لاعتقاده بأن الايرانيين يعتنقون مذهباً غير مقبول في الجزيرة العربية ، ثم فيما بعد اختار التنكر في زي رجل أفغاني الأصل ، يحمل الجنسية البريطانية ، وأنه قد درس الطب في رانجون Rangoon . وقد اشترى عدداً من الملابس الجديدة ، لكي يظهر بمظهر لائق يضفي عليه الاحترام ، في الأماكن التي يعتبر فيها ذو الملابس الرثة ، من الفقراء المعوزين ، وبالتالي فإنه يعتبر من الأوغاد ، إلا إذا كان ينتمي إلى جماعة دينية معينة له الحق فيها أن يكون فقيراً ، وبالاضافة إلى ذلك فإنه اشترى أغراضاً أخرى : مظلة صفراء كبيرة تشبه الزهرة ، ومشطاً خشبياً ، وقربة ماء ، وقطعة سجادة إيرانية خشنة تقوم بوظيفة

الكرسي والطاولة وللصلاة فوقها إلى جانب كونها بساطاً ، وقماشاً قطنياً مع وسادة وملاءة ، وخنجراً ، ومحبرة نحاسية وحاملة الريشة ؛ مثبتة في حزامه ، ومسبحة طويلة مع عدد من الأبر وأكمل معداته بصندوق أخضر فاتح اللون ؛ مزين بأزهار حمراء صفراء ويتحمل السقوط من ظهر الجمل مرتين في اليوم ، أما ما حمله من المال في رحلته هذه ، فكان خمسة وعشرين جنيهاً ذهباً ، وضعها في حزام تحت ردائه .

وقد استمتع بيرتون بجو الاسكندرية ، حيث وجد فيها ما يسميه العرب بالكيف ، فالرجل الشرقي يحب الخلود إلى الراحة والاستمتاع بالملذات الحيوانية ، وبناء القصور في الهواء ، وقد تجده جالساً تحت شجرة تفوح بالعطر مستمتعاً باحتساء القهوة أو تدخين النارجيله أو شرب الشربيت غير مكترث بما يدور حوله في الأمور التي تعكر صفو الحياة ، بينما الحياة الباردة في أوربا تملي على الرجل الغربي أن يكون مفعماً بالنشاط والحيوية .

ومن الاسكندرية أخذ بيرتون مركباً بخارياً [عبر النيل] إلى القاهرة وسكن في القاهرة في فندق شعبي يعرف «بالوكالة»[٢٤] وباشر عمله كطبيب ، ونجح في علاج فتاتين جاريتين حبشيتين من الشخير مما زاد كثيراً في قيمتهما ، والأهم من ذلك أنه أصبح يحضر دروساً دينية في الأزهر ، لأن أي خطأ ديني يرتكبه بعد وصوله إلى مكة أو أي تصرف قد يسيء للمعتقدات الدينية ، سيؤدي إلى كشف أمره أكثر بكثير من ارتكابه خطأ لغوياً ، قد يجد له ما يبرره ولكنه قد لا يجد أي مبرر لتصرف لا يفعله مسلم ، وفعلاً حدث فيما بعد ، كما قيل ، أن بيرتون قد أرتكب خطأً من هذا القبيل أثناء رحلته ما بين المدينة ومكة ، وقد شاهده أحد الحجاج ، فما كان من بيرتون إلا أن يقطع حنجرته وقضى عليه في الحال ، حتى لا ينتشر الخبر ويفشى سره .

---

(٢٤) الوكالة : كانت معروفة في مصر منذ عهد المماليك وهى عبارة عن مبنى يستريح فيه المسافرون ، ويشتمل على فناء تربط فيه دوابهم (المترجم) .

[وفي أثناء وجوده في مصر] ، حصل بيرتون على ثمانين جنيهاً إسترلينياً آخر قبل سفره للحج ، وبدأ يبحث عن جواز سفر ، وقد انزعج عندما تقدم للقنصل الإيراني بطلبه وكان القنصل أول جهة يتقدم إليها ، فرفض القنصل طلبه إلا إذا دفع أربعة جنيهات إسترلينية وكان بيرتون قد عرض عليه جنيهاً واحداً وعلى أية حال فإن أصدقاءه قدموه إلى عميد المدرسة الأفغانية في الأزهر الذي تعهد له – لاعتبارات بسيطة – بتيسير سفره إلى مكة ، ورافقه إلى القلعة للحصول على الورقة اللازمة لذلك ، مقابل شلن واحد .

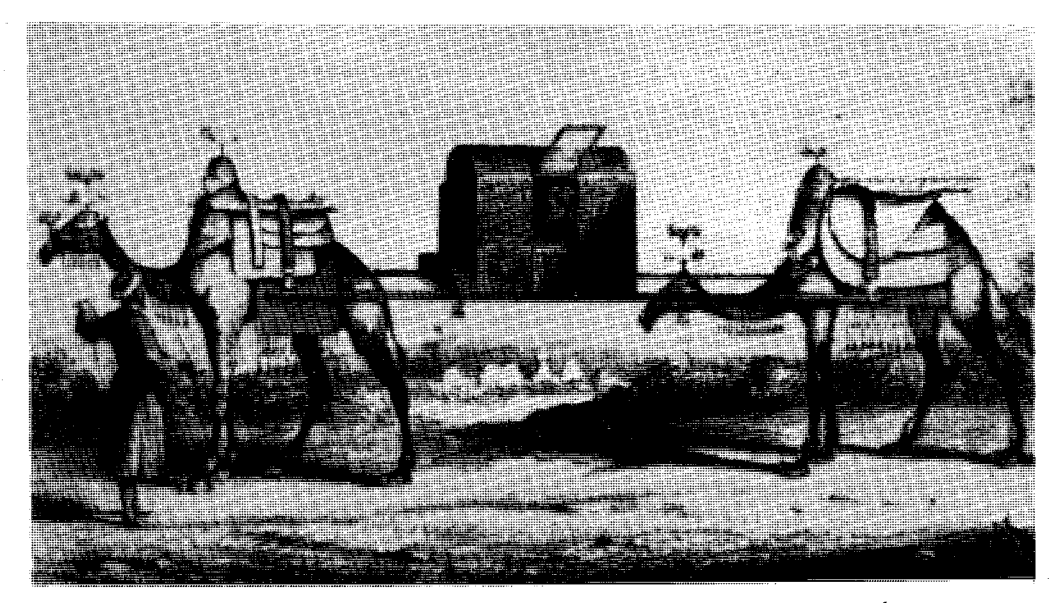
وعندما استعد بيرتون ، تقريباً للبدء في رحلته التقى في الفندق الشعبي بظابط ألباني ، كان في إجازة من عمله في الحجاز والذي دعاه إلى غرفته ، وبعد أن خلع الاثنان خنجريهما انغمسا في شرب الخمر حتى ثملا وحاولا إقناع بعض المواطنين ، والذين كانوا يرتجفون من الخوف ، بمشاركتهم ، ولما رفضوا ، بللوهم تبليلاً تاماً بنوع رخيص من خمر البراندي ، ثم دعوا براقصات ودلفوا إلى أحد الغرف ، فانتهرتهم أصوات عجوزين ، أدت بهم إلى الفرار ، وانهالوا بالشتائم على المصريين ، ولما شرع الألباني يهدد البواب بأنه سيشرب من دمه ، تمكن خادمه من أخذه إلى فراشه ، وكتب بيرتون [عن نفسه] : «لم يحدث أن أرتكب طالب ويلزي من جامعة أكسفورد ، مشاكل أكثر مما فعل» .

لم يكن بمستغرب أن يرى بيرتون أنه من الأفضل مغادرة القاهرة ، بأسرع وقت ممكن ، وبعد أن وجد بدوياً من سيناء مسافراً في نفس الاتجاه استأجر جملين بسعر جنيه إسترليني واحد ، ومن ثم غادر مع خادم هندي إلى السويس وفي الطريق تقابل مع بعض التجار المحترمين من المدينة ، وهم في طريق عودتهم إلى بلدهم كما التقى مع صبي كان قد تعرف عليه في القاهرة واسمه محمد البسيوني من أهل مكة ، والتحق الجميع بقافلة واحدة ، وتولى محمد الاهتمام بأمور بيرتون وأمتعته ولزم الجلوس معه بقية الرحلة ، ولم يكن بيرتون مهتماً بالأشخاص ، فكتابه ينقصه التصوير الحي للشخصيات الذي نجده

عند داوتي وأقرب ما وصل إليه في تصوير شخصية حية هو وصفه لهذا الولد محمد ، وهو يقلد ساخراً ، ذلك التاجر الرزين والبدوي الرصين .

وفي السويس استقلت المجموعة «سمبوكا» ، حمولته خمسون طناً واسمه «سلك الذهب» ، ولما كانت السفينة تتسع لحمل ستين راكباً إلا أنه كان على ظهرها مائة وثلاثون مسافراً وقد شعروا أنهم في وضع غير مريح ، وبينما كان بيرتون ورفاقه يجلسون في مقاعد الدرجة الأولى المريحة إذا بجماعة من شمال أفريقيا من ركاب مؤخرة السفينة ، يندفعون فجأة ليشاركوا بيرتون ورفاقه بالجلوس معهم في مكانهم ، فاندلعت معركة شرسة استعملت فيها السكاكين والعصى والأسنان وازداد الأمر خطورة بعد أن دفع بيرتون بزير كبير مملوء بالماء على رؤوس المهاجمين أدى إلى كبح جماحهم فتوسلوا إلى طلب الصلح واندفعوا بكل إحترام يقبلون أيادي وأكتاف ورؤوس المنتصرين ، واستمرت الرحلة وبصرف النظر عن جنوح السفينة عن الطريق ، فقد حدثت مشاجرات مع ربانها وأخيراً وصلت السفينة إلى ينبع ميناء المدينة دون حادثة أخرى .

وبينما كان بيرتون ، يسير على الساحل حافي القدمين ، عضه قنفد بحري فيما يعتقد ، أدى إلى تسمم أصبع رجله مما سبب له متاعب في بقية الرحلة ، ولكن ذلك لم يكن كارثة عليه ، بل أدى به إلى شراء شقدوف بسعر دولارين ، مما ساعده على كتابة ملاحظاته بيسر وفي ستر أكثر مما لو كتبها وهو على سنام الجمل ، وقد استأجرت الجماعة مجموعة من الجمال بسعر ثلاثة دولارات للجمل الواحد ، وبدأوا رحلتهم إلى المدينة التي تبعد ١٣٠ ميلاً ، وبما أن معدل سرعة الجمل ميلان في الساعة الواحدة ، فإن الرحلة ستستغرق ثمانية أيام . وبينما هم في الطريق ، مرّت القافلة بممر ضيق ، يقال له «ممر الحجاج» وهناك تعرض لهجوم من السراق ، فقد اندفع البدو مثل الدبابير ، وصبوا وابل نيرانهم ، وكانت الجماعة المسافرة في موقف صعب جداً وذلك لأن البدو كانوا يطلقون نيرانهم من خلف الصخور التي أعدوها مسبقاً ، ولو قتل واحد من البدو ، فإن كل السكان القاطنين هناك سوف ينضمون إلى المعركة ويتغلبون على



مِحفَّة جمل ، رسمها بيرتون ، أما شقدوفه هو فربما كان أقل فخامه ويحمل على بعير واحد

القافلة ، وبينما الأمر كذلك ، فقد تمكنت القافلة من الهرب لحسن حظها بعد أن فقدت إثنى عشر رجلاً فقط .

وفي ٢٥ يوليو عام ١٨٥٣م ، وصل بيرتون إلى المدينة وكتب قائلاً : «عندما نظرنا إلى المشرق ، وجدنا الشمس قد بزغت من الأفق ذي التلال المنخفضة المكسوة بشجيرات صغيرة ، ولكن ضباب الصباح الباكر جعلها وكأنها أشجار شاخة ، أما الأرض فكانت مغطاة بنباتات ظهرت وكأنها مزيج من لوني البنفسج والذهب ، وأمتد أمامنا سهل رحب تحده هضبة نجد ، وإلى اليسار ارتفع جبل أحد المشهور ، واحتضن في سفحه مجموعة من الشجيرات الخضراء وقبة بيضاء أو أثنتين ، أما إلى اليمين ، فقد انتشرت خطوط عريضة بلون أرجواني فاتح من الضباب الكثيف مع طراوة منعشة ، ومن خلاله تسربت أشعة شمس الصباح لتنشر نورها الخافت على بساتين النخيل ، وحدائق قبا ، التي برزت بخضرتها الزمردية فوق السهل الرمادي» .

كان على بيرتون أن يبقى في المدينة لأكثر من شهر ، وقد كتب جزءاً كاملاً في

وصفها ، ووصف الشعائر الدينية التي شارك في أدائها ، ولم يعجبه مسجد الرسول ﷺ وكان في نظره «دون المستوى المتوقع .. يشابه متحفاً للفنون من الدرجة الثانية أو دكان متحف مليئاً بالزينات غير المناسبة ومزخرفاً بطريقة تنم عن عظمة بائسه» إلا أنه أعجب بمقبرة البقيع التي سوف تشهد يوم القيامة قيام مائة ألف من الصالحين بوجوه متلألأة كالبدر .

وفي طريقه وهو قادم من ينبع ، كان بيرتون قد التقى ببدوي شرير كان يود مساعدته في السفر من المدينة إلى مسقط ، ولكن حدث أن دارت مشاجرة بين اثنين من البدو بسبب جمل ، وسرعان ما تطورت المشاجرة إلى حرب شاملة بين القبيلتين ، سمعت فيها طلقات الرصاص من داخل المدينة ، وخلال الشوارع شوهدت جماعات من البدو تحمل السيوف والبنادق في أيديها أو تحمل فقط الهراوات على أكتافها ، وهي تركض مسرعة للمشاركة في القتال ، أما سكان المدينة فما كان بمقدروهم إلا إنزال اللعنة على هؤلاء المتقاتلين ، متمنين لكل أفراد هذا العنصر المؤذي أن يفنى بعضه بعضا ، وهذا القتال يعني شيئاً واحداً فقط ؛ هو أن الطريق إلى مكة سيكون مفتوحاً ، هذا وقد أدرك بيرتون ، أنه لا يوجد هناك ما يمكن إضافته إلى ما ذكره بوركهارت في وصفه ، إلا القليل ، ولكنه أعتبر نفسه ، عوضاً عن ذلك ، أول أوربي يسلك الطريق الشرقي في سفره بين المدينتين المقدستين .

كانت هناك حركة دائبة في سبيل الاعداد للسفر ، فقد أصلح بيرتون ، قرب الماء التي أحدثت الفئران ثقوباً بها ، وأدخر ما يسد حاجته وحاجة صديقه محمد من المؤن لمدة أسبوعين ثم أتفق مع بدوي على استئجار جملين بعشرين دولاراً ، ونصحه أصدقاؤه بأن يأكل مع مرافقيه ، مرة على الأقل في كل يوم ، حتى يكون ملحه في بطونهم ، وهذا بالتالي سوف يمنعهم من الطمع فيه ونهبه وقد كان معظم سير القافلة يتم خلال الليل ، وفي إحدى المراحل استمر سيرها من الساعة الثالثة مساءً حتى الحادية عشر من صباح اليوم التالي ، ومع ذلك فقد تعرضت القافلة لهجوم ، قتل فيه بعير واحد ، لا يبعد عن

بيرتون سوى ياردات قليلة .

في الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٥٣م ، وصل بيرتون إلى مكة وقام بأداء كل مناسك الحج ، وكان دليله هو الغلام محمد الذي أسكنه في بيت أمه وهيأ له الدخول إلى الكعبة ، وبما أن محمداً هذا من أهل مكة وفي مكان يحرم فيه حمل السلاح فقد استطاع مقاومة إيرانيين وبدو وفسح الطريق لبيرتون لكي يقبل الحجر الأسود ، وقد قام بيرتون برجم الشيطان ، وحضر الوقفة على جبل عرفات حيث يجتمع كل الحجاج هناك ، ووصف الموقف بقوله : «لقد رأيت شعائر دينية في بلاد كثيرة ولكن لم أشاهد في حياتي بتاتاً مثل تلك الشعيرة برهبتها وعظمتها» . وقد سافر بيرتون إلى جدة واكتشف محمد في اللحظة الأخيرة أنه كان يرافق كما قال : «صاحباً[٢٥] من الهند ضحك على ذقوننا» .

ولو أن بيرتون رجع مباشرة إلى إنجلترا ، لأصبح حديث الساعة ولكنه بدلاً من ذلك قرر التوجه إلى القاهرة والبقاء بها حتى تنتهي إجازته وقد استمتع بالحياة هناك بمضايقة بعض أصدقائه المارين في الطريق ، واستمر متنكراً في زيه العربي .

إن ما كتبه بيرتون عن الحج يعتبر مثل كل كتبه ، مليئاً بالمشاهدات المفصلة والمعلومات الهامشية ، ومليئاً كذلك بالتحامل المتطرف الممزوج بالفكاهة الممقوتة . ولم يضف بيرتون كثيراً للمعرفة الانسانية ولكنه نقل لنا الجو السائد هناك وروى لنا القصة بشكل أفضل وبإسلوب مشوق ، أكثر مما فعل سابقوه ، وسنترك الحديث عن الوصف التفصيلي الذي ذكره بيرتون عن الشعائر الدينية ، ونكتفي ببعض ما ذكره من الملاحظات الغريبة ، فقد لاحظ أن علاج الماء الأبيض يتم بشوي أسنان البغل بالنار ثم تطحن ويستخدم طحينها في علاج العين المصابة ، ولاحظ أن قردة الحجاز ذات المؤخرة

(٢٥) الصاحب : لقب بمعنى «سيد» يستخدمه الهنود في مناداة الأوربيين من ذوى المكانة الاجتماعية أو المناصب الرسمية (المورد ، ص ٨٠٧) — المترجم .

الوردية اللون ، تصيد الطيور بانبطاحها على بطونها ، فتأتي الطيور إليها معتقدة إنها قطع لحم متروكة ، وفجأة يقفز عليها قرد آخر ، يكون مختبئاً في مكان قريب ، ويمسك برقابها .

وقد درس بيرتون أسواق المدينة التجارية ، ووجد أنه بالامكان شراء بيض نعام طازج ، وأن سعر الجارية الحبشية قد يزيد قليلاً عن عشرين جنيهاً استرلينياً ، كما أهتم بيرتون كثيراً بالبدو وأشار إلى أن رقصهم شبيه بقفزة الدب أكثر من كونه رقصاً مثيراً وممتعاً وكان أول من أشار إلى أن البدو يشبهون الهنود الحمر ، فليس بمستغرب أن يكون أحد المؤسسين للمعهد الملكي الانثروبولوجي . لقد كتب بيرتون الكثير وفي مدة قصيرة جداً ، ولكن هناك كنزاً من المعلومات في كتاباته ، وقد اتضحت معرفته الشاملة بالشرق ، من خلال الستة عشر جزءاً ، التي اشتملت على ترجمته لقصص «ألف ليلة وليلة» [إلى اللغة الانجليزية] ، وما أضافه عليها من ملاحظات غزيرة ، هذا ومن المعروف أن اهتمامات بيرتون بالرذائل أكثر من إهتماماته بالفضائل .

لقد مضى ربع قرن من الزمان قبل أن يعود بيرتون إلى الجزيرة العربية ويمكن أن نتعرف على نشاطاته خلال فترة ربع القرن هذه ، بالاطلاع على مختلف ما كتب عن سيرة حياته ، ويكفي أن نذكر هنا أنه أول أوربي يصل إلى مدينة هرر في عام ١٨٥٥م ، وكان ذلك إنجازاً بارعاً يعد أخطر من رحلته إلى مكة ، ففي فترة لاحقة من نفس العام ، تعرض مخيمه قرب مدينة بربرة لهجوم من الصوماليين ، وقتلوا واحداً من رفاقه ، أما هو فقد أصيب بضربة رمح في وجهه تركت عليه علامة طوال حياته ، وفي عام ١٨٥٨م اكتشف بيرتون وسبيك Speke بحيرة تنجانيقا ، حينما كانا يحاولان اكتشاف منابع نهر النيل ، [بعدها سافر إلى أمريكا] وزار مدينة بحيرة الملح حيث تتمركز جماعة المورمينيين[٢٦] ، ودرس بشكل مميز الناحية التقنية لفروة الرأس .

(٢٦) طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠م وقد أباحت تعدد الزوجات ثم حظرته (المورد ، ص ٥٩٢) – المترجم .

وفي يناير من عام ١٨٦١م ، تزوج بيرتون من سيدة متدينة تنحدر من عائلة نبيلة ، اسمها إيزابيل آرونديل Isabel Arundell وكانت قد رأته قبل عشر سنوات ومنذ أن وقع بصرها عليه ، قالت لأختها : «ذاك الرجل سيتزوجني» ، وبمساعدة زوجته استطاع بيرتون أن يحصل على وظيفة قنصل ، في غرب أفريقيا ، وفي البرازيل ، ثم في دمشق ، وأخيراً في تريستا[٢٧] . وخلال معظم هذه الفترة ، تولت زوجته حزم الأمتعة ودفع النفقات ، ورافقته في جولاته حول العالم ومع ذلك كله ، كانت من أخلص الزوجات ، وما كتبته عن سيرة حياته يعبر حقاً عن هيامها به . وحينما كان في تريستا ، ضجر بيرتون من الحياة المملة ثم تذكر ما أخبره به صديق قديم كان قد تعرف عليه في الفندق الشعبي «الوكالة» بالقاهرة ، وذلك أنه حينما كان صديقه هذا ، في طريق عودته من الحج ، وجد صخرة تحتوي على كمية من الذهب ، وكان ذلك في أقصى المناطق الشمالية من الجزيرة العربية وهي أرض مدين القديمة التي لا يفصلها عن سيناء سوى خليج العقبة ، والتي كان أهلها قد اجتثهم «جدعون» قبل ثلاثة آلاف سنة[٢٨] . وكان اهتمام بيرتون بالذهب يعود إلى أيامه عندما كان في الهند ، كما أصبحت عنده فكرة عن المناجم من خلال رحلاته ، وفي ذلك الوقت ، كانت خزانة إسماعيل باشا ، خديوي مصر ؛ قد أفلست وأصبح في حاجة إلى مصدر مالي يساعده في محنته تلك ، وقد فكر أن يغامر على مثل هذه المغامرة وأن يمول البعثة حسب اقتراح بيرتون ، فلعل ذلك ينقذ وضعه المتدهور .

وبحث بيرتون عن صديقه القديم ووجده في الثانية والثمانين من عمره وأقنعه بمرافقة البعثة بالرغم من أنه كان ينتظر ولادة طفله الخامس وأخذا معهما مهندس مناجم فرنسياً ، ومجموعة من الجنود ، وأبحرت البعثة من السويس في نهاية شهر مارس ١٨٧٧م ، وقد اعتبر بيرتون هذه الرحلة مكملة لرحلته إلى الأراضي المقدسة .

---

(٢٧) تقع حالياً في إيطاليا (المترجم) .

(٢٨) جدعون ويسمى أيضاً يُربعل : قائد عبري وأحد قضاة بني إسرائيل قبل قيام الملكية ، وقد حارب المديانيين بالقرب من غزة ، (لمزيد من المعلومات ، أنظر قضاء ٦ ، ٧ في كتاب العهد القديم) – المترجم

قضت البعثة ثلاثة أسابيع في المنطقة وكان بيرتون مقتنعاً بأنه من الممكن استخراج الذهب من المناطق الداخلية هناك ، وكل ما وجده هو مجموعة متحجرة من بعر الجمال العتيق وكتابات قديمة ، وبعض النباتات والحشرات الجديدة ، ولكنهم لم يعثروا على أي ذهب ، ولكن ذلك لم يمنع بيرتون من ارسال برقية للخديوي يخبره فيها أن البعثة قد نجحت في مهمتها ، وهكذا فقد رجعوا إلى القاهرة مع عيناتهم من الحجر والرمل والحصى .

بقي بيرتون مليئاً بروح التفاؤل ، فلم يجد صعوبة في تأليف كتاب عن مثل تلك الرحلة الاستكشافية المحدودة ، وكالعادة فقد كان كتابه هذا مليئاً بالمعلومات والملاحظات الهامشية والمراجع ، ولحسن الحظ فقد ظل الخديوي أيضاً ، مليئاً بروح الأمل والتفاؤل [في إمكانية حصوله على الذهب] ، فجهز بعثة كبيرة تألفت من أربعة أوربيين وستة من الضباط المصريين ، واثنين وثلاثين جندياً مصرياً (معظهم من الزنوج المعتوقين) ، وثلاثين عاملاً ، وطباخ يوناني ، مع خادم وبحار . وحطت البعثة رحالها في مدين في ١٩ ديسمبر ١٨٧٧م .

كانت البعثة نشطة للغاية ويخبرنا بيرتون أنها غطت ألفين وخمسمائة ميل في غضون أربعة أشهر ، ورجعت بخمسة وعشرين طناً من العينات وقاموا بمسح ثمانية عشر موقعاً لمستوطنات قديمة ، ولكنهم مرة أخرى لم يحضروا معهم قطعة واحدة من الذهب ، وعلى كل حال فإن عمليات المسح التي أجراها بيرتون في المنطقة ، تعتبر في رأي الجغرافيين ، أكبر مساهمة له في زيادة المعرفة عن الجزيرة العربية ، وأهم بكثير من رحلته الأولى .

ويقال إن هناك اقتراحاً بأن يلتحق بيرتون بالجنرال جوردون للعمل معه في السودان ، ولكنه أدرك بحكمته صعوبة التفاهم مع جوردن في مجال العمل الحكومي ، فقام بزيارة قصيرة إلى غرب أفريقيا لإجراء مسح هناك من أجل العثور على مناجم

للذهب في جبال الكونغ Kong ، ولكن نشاط بيرتون بدأ في الانحسار ، وأصبح يركز معظم جهده في الكتابة وخاصة قصص «ألف ليلة وليلة» ، وما يعتبر قمة إبداعه وهي ترجمة كتاب «الروض العاطر» مع وضع شروحات لها تضمنت عصارة أفكاره وتجاربه ، وفي عام ١٨٨٦م اندهش عندما وجد نفسه ، قد منح لقب «فارس» تقديراً لخدماته للامبراطورية البريطانية . وفي أكتوبر من عام ١٨٩٠م توفي بيرتون ، واحياءً لذكراه قامت زوجته بخطوتين ؛ فقد بنت ضريحاً متميزاً على قبره في شكل خيمة البدو ، وذلك في مقبرة مورتلاك ، كما أنها أحرقت كل المخطوطات التي بذل جهده لكتابتها في سنواته الأخيرة ، لأنها اعتبرتها من كتب الرذيلة .

كثيراً ما كتب عن بيرتون ، أنه بالرغم من كونه من أهل العصر الإيليزابيثي ، إلا أنه ولد قبل زمانه ، ولكن لعل من الأصح أن نقول ؛ إنه رجل لا يمكنه أن ينسجم مع أي عصر ، لكونه رجلاً ثائراً ، قوي العزم ومعتداً بآرائه ، وكما قال هو عن نفسه : «... [إنني أملك] كل موهبة ما عدا [واحدة ألا وهي] استخدام هذه المواهب» . فكم كان بيرتون مصيباً في آرائه ، فهو من الأوائل الذين قالوا : إن مرض الملاريا ينتشر بوساطة البعوض ، ولكنه في نفس الوقت ، أخطأ في أمور أخرى ، كقوله : بأن الجنس الزنجي ليس لديه الاستعداد للتقدم والتطور ، وربما نستطيع القول ، إن العصر الفكتوري ، بكل إمكاناته ، كان مناسباً له ، وأخيراً لابد وأن نذكر ما قاله صديقه ، الأصغر منه ، سوينبورن Swinburn ، عنه : «إن بيرتون وجد على الأرض ولم يوجد له مثيل» .

بلجـــــــريف



وليام جيفورد بلجريف (١٨٢٦ - ١٨٨٨م) ، جندي وراهب يسوعي وعميل سري [جاسوس] وأخيراً دبلوماسي ، وما برح وصفه لرحلاته في الجزيرة العربية مثيراً للجدل .

ولد وليام جيفورد بلجريف Palgrave في عام ١٨٢٦م لأب عالم مشهور جداً ، لعب دوراً هاماً في تأسيس دائرة المعارف العامة [البريطانية] ، وقد ولد السير فرانسيس بلجريف وكان اسمه فرانسيس كوهين ولكنه إثر زواجه اتخذ الاسم العائلي لزوجته قبل زواجها . لقد حقق كل واحد من أبناء السير فرانسيس ، تفوقاً ملحوظاً : فرانك وكان أستاذاً للشعر في جامعة أكسفورد ومصنف الكتاب المشهور «خزينة الذهب Golden Treasury» الذي كان لا يخلو بيت منه في بريطانيا ، إنجليز Englis وكان رئيس تحرير الايكونومست ، ريجنالد Reggie وكان كاتب التحرير في مجلس العموم البريطاني خلفاً لإيرسكاين ماي Erskine May .

أما رحالة المستقبل ، وكان يعرف بين أفراد العائلة جفي فقد كان من الأوائل في [مدرسته] Charterhous ثم في جامعة أكسفورد قبل أن يلتحق بالجيش البريطاني في بومباي ، وقد وقعت عينه على العرب لأول مرة ، أثناء مروره بمصر في يناير عام ١٨٤٨م عندما كان في طريقه إلى الهند ، ولم تكد تمر سنة على سفره حتى فاجأ عائلته بنبأ ترك السلك العسكري وانضمامه إلى جماعة الآباء اليسوعيين المسيحية ، وقد أفصح

بلجريف فيما بعد عن أنه كان يهدف من خلال انضمامه إلى هذه الجماعة للعمل كمبشر بالنصرانية بين العرب ، وقد بقي بلجريف في الهند ، يسكن ديراً للرهبان حتى منتصف عام ١٨٥٣م ، بعدها أرسل إلى روما ليتدرب في مجال الرهبنة . وعلى كل حال فإنه لم يعين كراهب حتى شهر مارس من عام ١٨٥٧م ، وكان قد أمضى آنذاك فترة عامين تقريباً ، في البعثة التبشيرية في بيروت .

وأول عمل قام به بلجريف عند وصوله ، هو تحسين معرفته باللغة العربية التي أجاد نطقها ، حتى إنه كان بإمكانه أن يدعي أنها لغته الأصلية ، وقد درس بها في المدارس التي ساهم في إنشائها فيما بعد ، وألقى بها خطب الوعظ والإرشاد إلى طريق النصرانية وكتب بها بعض الترانيم الدينية .

كان لبنان في ذلك الوقت يعيش سنوات مضطربة ، فالحروب الطائفية بين النصارى والمسلمين والدروز جعلت الحكام الأتراك والقناصل الأوربيين ، وحتى البعثات التبشيرية كلهم يحاولون الصيد في الماء العكر ، وقد قام بلجريف بعدد من المهمات السرية ، زار خلالها جماعات الدروز ، والطائفة الاسماعيلية ، ويقال إنه تنكر مرة في زي زعيم درزي ، ومن المؤكد أنه قام بنشاط تجسسي بين النصارى الأرثوذوكس .

وفي صيف عام ١٨٦٠م حدثت هناك مذبحة قام بها الدروز ضد جيرانهم النصارى ، وقد طلب من بلجريف لخبرته السابقة في الجيش ، أن يتولى القيادة العسكرية لمجموعته ولكنه رفض بكل أسف ، وكان في الحقيقة محظوظاً عندما هرب ونجا بنفسه من هجوم ضارٍ على صيدا ، وقد استدعي بلجريف ، من قبل رؤسائه الرهبان ، إلى أوربا ، ليقدم لهم تقاريره وليعمل على جمع الأموال لمساعدة أولئك [نصارى لبنان] ، الذين بقوا على قيد الحياة ليبدءوا في العيش مرة أخرى ، وقد ألقى سلسلة من المحاضرات واستقبله البابا والأهم من ذلك أنه استقبل من قبل نابليون الثالث .

لقد كان نابليون ، على الدوام مهتماً جداً بالعالم الإسلامي ، وقام بمساعدة فرديناند دي ليسبس De Lesseps أحد أقرباء زوجته بحفر قناة السويس ، وقد زار الجزائر مرتين حيث أعلن نفسه ملكاً على العرب وأرسل قوات إلى سوريا لحماية النصارى هناك ، وكان يحلم بإنشاء أمبراطوريتين عربيتين تحت الوصاية الفرنسية ، تقع إحداهما غرب السويس والأخرى في شرقها ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا المشروع هي محاولة إقناع خديوي مصر ليعلن الاستقلال عن تركيا والاحتماء بفرنسا .

وقد وقع اختيار نابليون على بلجريف ليقوم بهذه المهمة نظراً لمؤهلاته الجيدة ، حيث يجمع بين المهارات اللغوية (وقد تعلم ، فيما بعد اليابانية في مدة شهرين) والخبرة العسكرية والدبلوماسية ، ولكن بلجريف فشل في مهمته في مصر إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بعملية أخرى ، ففي فبراير من عام ١٨٦٢م سافر بلجريف إلى الجزيرة العربية في مهمة بقيت غايتها سرية إلى يومنا هذا ، ولم يكن لدى الأوربيين في ذلك الوقت ، معلومات حديثة عن نجد ، وحقيقة أنه بعد زيارة سادلير السريعة ، منذ أربعين سنة خلت ، لم يصل أي رحالة غربي إلى هناك . وقد استطاع بلجريف إقناع رؤسائه الدينيين أنه ربما ينجح في تحويل الوهابيين إلى النصرانية .

كان بلجريف معروفاً في سوريا باسم الأب ميخائيل كوهين أو ميخائيل سهيل ، ولكنه في هذه المرحلة أصبح معروفاً باسم سليم أبو محمود العيسى ، وتنكر في زي طبيب وتاجر متجول ، واصطحب معه ، شاباً يونانياً يعمل مدير مدرسة بمدينة زحلة في لبنان ، ويتكلم اللغة العربية كواحد من أهلها ، بالإضافة إلى أن مظهره وملامحه تكاد تكون عربية وكان اسمه الحقيقي جريجوري Geraigeri وفي خلال الرحلة أخذ الاسم المستعار بركات ، وادعى أنه نسيب الطبيب وأحياناً مساعده ، وأحياناً أخرى شريكه في التجارة ، وقد أخذا معهما كمية من الأدوية تكفي لعلاج أو قتل نصف المرضى من الرجال هناك ، مع كتب عربية تبحث في الطب ، لتزيد من ثقة الناس بهم وبعض الكتب الطبية الإنجليزية الحديثة التي أخفوها بحذر عن الناظرين ، أما للمتاجرة ، فقد

أخذ كميات من القهوة والقماش والحلى الزجاجية والغلايين ، وارتديا ملابس مصرية وانتعل كل منهما بحذاء جلدي عالي الساق .

يذكر بلجريف في مقدمة كتابه أن الغرض من رحلته ، هو الأمل في تأدية بعض الخدمات الاجتماعية لشعب تلك المنطقة الواسعة ورغبته الملحة في توصيل مياه الحياة الشرقية الراكدة بمياه أوربا الجارية ، وربما أن طبيعة حب الاستطلاع والولع بالمغامرة ليس بالشيء الغريب عند الإنجليز ، وقد أشار أيضاً إلى أن الحاجة تدعو للتعرف أكثر على المناطق التي لابد وأن سيكون لنا دور بمشيئة الله في التحكم بمصائرها .

بدأ الرجلان المتنكران رحلتهما من مدينة معان الأردنية في ١٦ يونيو ١٨٦٢م وكان يرافقهما ثلاثة رجال من البدو ، وقد وصف بلجريف أثنين منهما بقوله : «الهمجية التامة في مظهرهما لا تقل عن همجية أخلاقهما .. متوحشان .. متقلبان .. متهوران .. تفكيرهما ضحل كضحالة النبات على تلك الأرض» . إن رأي بلجريف في البدو ، يختلف عن رأي معظم الرحالة الآخرين ، فهو لم يثن عليهم إلا نادراً ، وأعتبرهم : «خائنين ، مشاغبين وقطاع طرق ، وليسوا من الجنس العربي الأصيل ، بل هم فرع منحط من تلك الشجرة العظيمة ، وليسوا من جذورها أو من جذعها أو من ساقها» ، بينما نجده يكيل الثناء لأهالي المدن والقرى ، بنفس القدر الذي ذم به البدو .

وهنا نجد أن قصة كل من بلجريف وداوتي متضاربتان ، وكأنهما يصفان شعبين مختلفين ، فلقد لاقى داوتي معاملة خشنة من الحضر ومعاملة حسنة من البدو ، وسنتطرق إلى قصته في الفصل القادم . أما بلجريف فقد قال : أنه بإمكان أي نصراني وأي إنجليزي أن يتنقل في الجزيرة العربية بما فيها منطقة نجد ، دون أن يضطر إلى المساومة على دينه أو كرامته ، على شرط أن يكون متفهماً للعادات والتقاليد الشرقية والإلمام بلغة شرقية

واحدة على الأقل وأن يتوخى الحذر في أقواله وأفعاله ، وادعى بلجريف أن معظم السكان ، هناك ، يعتبرون النصرانية نحله من النحل الإسلامية ، ولم يحاول بلجريف فيما يبدو أن يصحح هذا المفهوم ،بل تظاهر بالإسلام ، حتى إنه في أكثر من مناسبة كان يؤدي الصلاة في المساجد .

ومع هذا الحذر فإنه يبدو أن رحلة بلجريف لم تتعرض للخطر إلا نادراً والمشكلة التي ضايقته كثيراً هى بالطبع ، العواصف الرملية وحرارة الصيف التي قال عنها : إنها جهنم على الأرض ، مع فرق واحد إنها ليست أبدية ، وقد قضى بلجريف أوقاتاً سعيدة كا مرت عليه في واحة الجوف [دومة الجندل] ، حيث باع كثيراً من بضاعته ، ووجد الناس كرماء ، حتى إن بعضهم عرض عليه مشاركته في التجارة ، بل وحتى تزويجه إن رغب في البقاء عندهم .

وعلى أية حال فقد حمل نفسه وذهب إلى حائل حيث استقبله الأمير طلال بن رشيد بحفاوة ، وأخذه في جولة وسط المدينة مشياً على الأقدام واضعاً يده في يده . وقد بقيت علاقته ودية مع الأمير ، بالرغم من أنه مر بلحظات حرجة [كاد فيها أن ينفضح أمره] وذلك بسبب وجود شخص من أهل دمشق كان يعرفه من قبل بأنه رجل أوربي ، بل وربما يعرف كذلك أنه قسيس ، وقد عرفه شخص آخر أيضاً ، ولكن بلجريف استطاع مرة أخرى الخروج من ذلك المأزق الحرج بحيلة ما .

ترك الأمير طلال بن رشيد أثراً حسناً عند بلجريف ، فكتب يقول : «... خلال لقائي مع الأمراء والحكام من أوربيين وآسيويين ، الذين تشرفت بمعرفتهم معرفة شخصية ، فإنني أعرف قليلاً من الحكومات ، التي تماثل حكومته في مبادئها» ، وقد رسم بلجريف صورة واضحة لحكومة ابن رشيد ، فوصفها بالكفاءة والتسامح وبتشجيعها للتجارة ، وتعتبر أن ذهاب الشخص إلى المسجد ، ما هو إلا لإظهار حسن

أخلاقه أمام جيرانه . لقد بعث الأمير بأولاده للعيادة عند طبيبين دلالة على ثقته بهما ، مع أنه يعلم أن هذين الغريبين جاءا إلى حائل لسبب خفي ، وقد اعتقد بأنهما جاءا لشراء عدد من خيوله العربية الأصيلة ، غير أنه في أحد الأيام طلبا من الأمير مقابلة شخصية ، وفي خلال تلك المقابلة أخبراه عن حقيقة أمرهما ، وبعد أن استمع إلى ما قالاه ، حذّرهما وأمرهما بأن لا يفشيا سرهما لأحدٍ ، وإلاّ فإن مصيرهما ومصيـــره سيكون في خطرٍ .

وفي الثامن من سبتمبر عام ١٨٦٢م غادر بلجريف وصاحبه مدينة حائل بجواز سفر من طلال ورسالة توصية من عمه ، معنونة إلى الأمير عبدالله بن فيصل بن سعود الابن الأكبر للإمام ونائب الحاكم في الدولة السعودية ، [ولم يطمئن بلجريف للرسالة ففتحها ووجد] أن ما كتب فيها ؛ إن حاملها من السحرة المشعوذين (جريمة ، عقابها الموت) وأضاف قائلاً : «أرجو من الله أن لا يصيبكم مكروه» وقد نوه بلجريف إلى أن الرسالة كانت معه عندما غادر الرياض مشيراً إلى أنه قد عرف محتواها وأدرك أنه يحمل رخصة موت .

دخل بلجريف وبركات مدينة الرياض ومعهما دليل اسمه أبو عيسى وهو من الأشخاص القلائل الذين برزت أسماؤهم في كتاب بلجريف ، وكان قد فشل في تجارته كبائع للسجاد ، ويشتغل الآن في عمل غير مستقر وهو العناية بشئون الحجاج الإيرانيين . وفي الرياض عمل بلجريف ورفيقه صداقات مع كبار المسئولين الذين جاءوا للعلاج عندهما والذين تمثل إكرامهم لهما ، في المثل النجدي : « يا ضيفنا لو زرتنا ، لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل» ، وبعد فترة قصيرة [من وصوله إلى الرياض] ، استقبل بلجريف من قبل الأمير عبدالله ، الذي وصفه بأنه شبيه بهنري الثامن لاعتزازه بنفسه ، ولغلظته وشجاعته ، ومهارته السياسية ، أما الأمام فيصل فكان رجلاً كبير السن وبدا عليه التعب ، وقد وافق بلجريف الآخرين من أهل الرياض في توقعاتهم ، أنه بعد موت الإمام ستقوم مشكلة ولاية العهد بين الأمير عبدالله وأخيه

الأصغر سعود ، الذي وصفه بأنه يشبه ضابطاً في فصيل الهوصار[٢٩] ، وقد عزم عبدالله على أن يسبق الأحداث ويبادر بضربته ، فلمح لبلجريف عدة مرات وبطريق غير مباشر ، عن رغبته في الحصول على كمية من عقار «ستركنين Strychnin» السام ثم عبر له عن تلك الرغبة صراحة ، قائلاً إنه يأمل أن لا يرد طلبه ، فهمس بلجريف في أذن الأمير : «لا مانع عندي من مشاركتك في جريمتك وأن أكون مسؤولاً مثلك أمام الله يوم الحساب ، ولكنك لن تحصل عليه أبداً فاسـود وجه الأمير وانتفخت أوداجه من الغضب الذي لم أر مثله قبل ذلك ولا بعد وعرفت حينئذ أن الغضب من الشيطان ، ومرت برهة من الصمت ، كان الأمير يراجع فيها نفسه ، كتم بعدها غيظه وسيطر على نفسه فانفرجت أسارير وجهه وغير لهجته وبدأ في الحديث عن مواضيع أخرى»، وفي ليلة من ليالي نوفمبر ، وبينما كان بلجريف يعد العدة لمغادرة الرياض ، بعد أن عمل دراسة تاريخية وسياسية عن الحركة الوهابية ، استدعي في منتصف الليل للمثول حالاً أمام الأمير عبدالله ، الذي أجلسه قريباً منه ، وبعد برهة من الصمت الطويل ، أخبره الأمير فجأة بقوله : «الآن أعرف تماماً من أنتم !! أنتم لستم أطباء .. أنتم جواسيس نصارى وثوريون ، جئتم هنا لتخريب أوضاعنا والنيل من عقيدتنا نيابة عن أولئك الذين أرسلوكم .. إن عقاب من هو مثلكم ، كما تعرفون ؛ هو الموت والذي قد عزمت على إنفاذه بلا تردد» . ونظر بلجريف – وروايته لهذه الحادثة ، هي المصدر الوحيد لدينا – في وجه المدعّي عليه ببرود ، واعترف له بأنه نصراني حقيقة ولكنه نفى أن يكون جاسوساً ، وتحدى الأمير أن يقتله ، بعد أن أصبح ضيف الملك [والد عبدالله] لأكثر من شهر . فما كان من عبدالله إلا أن لعب ورقته الأخيرة ، فدخل خادمه حاملاً فنجاناً واحداً فقط من القهوة وقدمه لبلجريف ، وكانت مسألة التحدي واضحة ، حيث إن الامتناع عن قبول القهوة ، سيؤدي في هذه الحالة إلى رفع الحصانة التي يتمتع بها الضيف ، ولكن بلجريف أخذ الفنجان وشربه وطلب آخر وعندها ظهرت ملامح الحرج على وجه عبدالله فتشاغل بلجريف بالتحدث ، مظهراً رباطة جأشه ، عاكساً البرود

---

(٢٩) الهوصار : فصيل في الجيش البريطاني معروف بشجاعته في القتال وفي المورد الهوصار : جندي في وحدة من الوحدات العسكرية الأوربية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الخفيف في القرن الخامس عشر (المورد ، ص ٤٤٠) – المترجم .

الإنجليزي المعروف في وجه الأعداء وعند المصاعب ومع ذلك خرج بلجريف من المجلس وفي ذهنه شيء واحد : مغادرة الرياض بأسرع وقت ممكن ، وهكذا وبمساعدة بن أبي عيسى وصلوا إلى الهفوف دون مصاعب تذكر ومن هناك اتجهوا إلى الخليج الذي وصفه بلجريف بدقة:«أرض كأنها صفيحة من رصاص ، نصفها مغطى بالسبخات ونصفها الآخر مغطى بنبات البردي»،وفي الخليج ترك بركات صاحبه بلجريف ورجع إلى وطنه ليصبح فيما بعد قسيساً ثم بطريقاً للأرثوذوكس الشرقيين ، أما بلجريف فقد استمر في رحلته وزار خلالها كلاً من البحرين وقطر ، وإمارات الساحل المتصالح بمصاحبة خادمه أبي عيسى . وفي إحدى رحلاته البحرية في الخليج قريباً من منطقة سيب ، تحطمت السفينة العربية التي كانت تقله ، وقد تسلم بلجريف دفة القيادة بعد ما فقد الربان أعصابه فوصل إلى الشاطيء مع من نجا من البحارة ولكنه فقد كل ما كان يحمله من الملاحظات والمشاهدات وكل ما لديه من نقود وقد استقبله السلطان مع من نجا من هذه الحادثة وعوضهم عما فقدوه من المال ، وأخيراً عاد بلجريف عن طريق بغداد وحلب ووصل إنجلترا سالما .

وفي ربيع عام ١٨٦٥م ظهر كتابه بعنوان «مذكرات رحلة سنة كاملة في وسط الجزيرة العربية وشرقها» ، وقد أهداه إلى نيبور الذي قال عنه : «إن شجاعته وذكاءه أول من فتح أبواب الجزيرة العربية للأوربيين» ، كما قد تأثر بها المؤلف ، وبعد وفاة بلجريف كتبت جريدة التايمز عموداً في تأبينه وأشارت إلى أن كتابه يعتبر من أجمل ما كتب في مجال الرحلات التي استمتع بها الناس ولكن ذلك يصعب تصديقه اليوم ، فكتاب بلجريف ، يشتمل على كثير من الهفوات التي تعتبر من أردأ ما كتب في العهد الفكتوري ، فقد جاء باقتباسات وشواهد وتلميحات لا داعي لها سوى إظهار ثقافته الواسعة فمثلاً ماذا يستفيد القارىء من وصفه لمؤلفات محمد بن عبدالوهاب بأنها : «رسائل ربما يقرؤها أولئك الذين زاغت قلوبهم عن الدين من أجل تنويرهم ، والانتنوميان الذي يخطأ غالباً بحق قوانين مجلس دورت Dort الكنسي» ، لقد كان الكتاب في العهد الفكتوري يتكلفون في كتاباتهم فيقولون مثلاً «الأطراف السفلى» بدلاً

من «السيقان» ، ولقد أشار بلجريف مرة إلى حشرة معينة من الحشرات التي تقفز وهي منتشرة في سوريا وجنوب أوربا ، بقوله : «أربعة حروف تكون اسمها» وكان يعني بذلك «البرغوث Flea» ، وإذا جاز لكاتب هذا الكتاب أن يبدي رأيه الشخصي ، فإنه يعتقد أن كتاب بلجريف مزعج ومتسم بالغرور بالرغم من أن بعض فقراته مليئة بالحيوية .

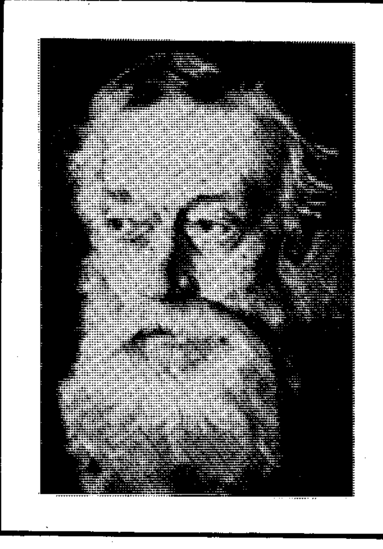
وهناك على أية حال ، كثير من الاتهامات الجادة التي طرحت ضد بلجريف [بخصوص ما كتبه عن الجزيرة العربية] . وأول هذه الاتهامات ، حول تقريره عن مقابلته للأمير عبدالله ، فالتقرير تنقصه الدقّة ، وتخللته الكثير من الأخطاء . بالإضافة إلى ذلك فإن بعض مشاهداته في الجزيرة العربية كانت خاليةً من الصحة ، فمثلاً نجده يكتب عن سلسلة جبال لم يشاهدها الرحّالة الذين جاءوا من بعده وسلكوا نفس طريقه ، والظاهر أنه لم يلاحظ البحيرة الوحيدة في الجزيرة العربية في منطقة الأفلاج جنوب الرياض . وليس هناك أحد من الرحالة الذين زاروا كلاً من قطر والبحرين ، ذكر أن تعداد سكان قطر يكاد يكون ضعفي تعداد سكان البحرين ، كذلك ، فإن من جاء بعده من الرحالة وجد أن خريطته للهفوف غير صحيحة ، وإذا كان ما قاله عن غرق السفينة في مسقط صحيحاً ، فلماذا لم يقم بزيارة المندوب السامي البريطاني هناك .

ومن أشد الناقدين لبلجريف فلبي ، الذي غطى بزياراته نفس الأرض التي زارها بلجريف ، ويشك فلبي أن صاحبنا قد زار مدينة حائل ، وهو على يقين أن بقية ما ذكره هو مجرد خيال ، وعلى العكس من ذلك فأن داوتي وبلنت ، قد اعتبرا أن كل ما رواه بلجريف صحيح ، بينما يرى لورانس أن بلجريف يقف كرحالة في صف كل من فلبي وتوماس ، وكتب بطريقة ذكية قائلاً : «إننا لا نستطيع الجزم في القول حول ما ذكره بلجريف صدقاً كان أم لا ، ولكننا نستطيع أن نأخذ برأي هوجارث Hogarth » الذي قال عنه ، لا شك أنه قام بمعظم الرحلة التي ذكرها في كتابه ، ولكن القصة كما رآها بلجريف «هي مجرد عمل فني لا يمكن إفساده ببعض الحقائق» ، فلم

يعط بلجريف للحقائق أهمية كبيرة بقدر ما كانت تهمه تسطير إنطباعاته ، وغالباً ما نجح في هذا الموضوع ، سواءً أخطأ أم أصاب .

لقد كانت تلك الرحلة هي الأخيرة لبلجريف ، فلم يرجع إلى الجزيرة العربية بعدها ، [وحال وصوله إلى أوربا] ، قدم تقريره إلى الأمبراطور نابليون الثالث ، والذي تضمن خطة لتوحيد مصر وسوريا ووضعهما تحت الحماية الفرنسية . حاول بلجريف بعد ذلك أن يعمل في البعثات التبشيرية في البلاد العربية ، ولكنه فشل في ذلك ، وبعدها ترك الكنسية الكاثوليكية ، وجماعة الآباء اليسوعيين ، وما حصل لبلجريف بعد ذلك هو خارج نطاق هذا الكتاب ، إلاّ أنه يمكننا أن نقول أنه قد عين في منصب قنصل بريطانيا في مقاطعة شرق أناضوليا من عام ١٨٦٦م حتى عام ١٨٧٣م ، وقد تزوج وأنجب ثلاثة أولاد ، ونقل عمله بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية ، ثم نقل إلى الفلبين ليشغل نفس المنصب حتى عام ١٨٧٨م ، وكان هناك اقتراح بعودته إلى الشرق الأوسط ليتسلم وظيفة مساعد للجنرال جوردون Gordon [في السودان] ، ولكنه ذهب إلى بانكوك ، ثم أخيراً نقل إلى «مونتفيديو Montevideo» كوزير بريطاني فيها ، حيث توفي هناك عام ١٨٨٨م ، ونقل جثمانه إلى لندن ودفن في ضاحية فولهام .

داوتـــــــي



داوتي في أواخر عمره ويبدو هادئاً ولكنه يقظ .. صورة رسمها إرك كيننجتون عام ١٩٢١م .

«المتحف الوطني للصور بلندن»

ولد تشارلز مونتيجيو داوتي Doughty في مقاطعة سفولك Suffolk بإنجلترا في أغسطس عام ١٨٤٣م من عائلة مالكة للأراضي وكان معظم أولادها قد اشتغلوا في خدمة البحرية البريطانية والكنيسة [الانجليكانية] ، وذهب داوتي إلى جامعة كمبردج ودرس الجيولوجيا ، وفي أثناء دراسته قام برحلة إستكشافية إلى المناطق المتجمدة في النرويج وبينما كان في بداية العشرين من عمره ، قرر الانصراف لخدمة لغته الوطنية كما يفرض عليه واجبه الوطني في هذه الحياة ، فاللغة الإنجليزية القديمة قوية وتزخر باللب والمتانة واعتبر هذه الخدمة واجباً وشرفاً ، وقد كتب في أواخر أيامه : «انه من الواجب على كل من يحب وطنه أن يستعمل أداة التفكير عنده وهي لغته الأصلية بأدب وتميز وأن يحافظ على وقارها نقياً ولامعاً وعليه أن يبقى ذلك في ذهنه على الدوام ... ويترك كل ما يتعلق بالكلام البذيء الذي يدل بالتأكيد على تدهور الناس وانحطاطهم» .

وقد أمضى داوتي بعضاً من السنين يعد نفسه لهذا الهدف ، فدرس الهولندية

والدنماركية ولغات أخرى في سبيل فهم لغته الإنجليزية ، وقضى سنة واحدة في جامعة أكسفورد ، درس خلالها الشعر في العصور الوسطى وفي العصر الأبليزابيثي[٣٠] . وفي مقدمة الذين اهتم بدراستهم تشوسر Chaucer ، وسبنسر Spencer . كما أنه كثيراً ما فكر في موضوع يستطيع أن يكتب عنه كما كتب الشعراء السابقون . بدأ داوتي رحلاته في أسبانيا ، وإيطاليا ، وهناك شهد اندلاع الحِمَم من بركان فيسوفيس «Vesuvius» عام ١٨٧٢م ، وبعد ذلك ذهب إلى اليونان ثم إلى مصر حيث وصل القاهرة في بداية عام ١٨٧٥م ، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل إلى مدينة البتراء[٣١] ، وهناك سمع عن مدينة أثرية أروع من البتراء يقال لها «مدائن صالح» قرب الحدود الشمالية للحجاز[٣٢] . وتتكون مدائن صالح المشهورة في الكتب الإسلامية من سبع مدن كبيرة منحوتة في الجبال ، وقد اشتهرت تلك المدن وأصبحت مراكز تجارية غنية لوقوعها على الطريق الرئيسي لتجارة البخور بين جنوب الجزيرة العربية وكل من القدس وممفيس . ودعا النبي «صالح» أهل هذه المدينة للهداية ولكنهم سخروا منه واستهزءوا به ، وطلبوا منه أن يريهم علامة نبوته ، فأظهر لهم ناقة حبلى من بين الجبال ، ولكنهم نحروها . فانفلق الجبل ليحتضن جنين الناقة ، ويقال : إن بُكاءَ ذلك الجنين لا يزال يسمع إلى اليوم ![٣٣] فغضب الله على فعلتهم وأرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية فدمرت بيوتهم وجعلت عاليها سافلها[٣٤] . ولم ينجح كل من بوركهارت وبيرتون في الوصول إلى هذه الانقاض ، أما داوتي فقد عزم على مشاهدتها بالرغم من رفض السلطات التركية ، التي كانت ما تزال تسيطر على معظم الشرق العربي ، السماح له بالسفر إليها .

---

(٣٠) اليزابيث الأولى ملكة انجلترا وايرلندا في الفترة من ١٥٥٨ - ١٦٠٣م (المورد ، ص ٢٩ من معجم الاعلام) - المترجم .

(٣١) يعتبر السويسري يوهان بوركهارت أول رحالة غربي يصل إلى البتراء عاصمة الأنباط وذلك في عام ١٨١٢م (المترجم) .

(٣٢) تقع مدائن صالح (الحجر) على بعد ٣٠٨,٢ ميل من معان جنوبي الأردن و ٢٠٧,٧ ميل من المدينة المنورة (Western Arabia, P. 523) - المترجم .

(٣٣) صحيح أن الناس في تلك المنطقة يتناقلون هذا الادعاء ، ولكنه لا يزيد عن كونه خرافة ، وأما عن الناقة ، فاقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف من الآية (٧٣) إلى الآية (٧٩) - المترجم .

(٣٤) الصحيح أن أهل الحجر قد أخذتهم الصيحة (سورة الحجر ، آية ٨٣) - المترجم .

وعلي أي حال فقد قال أصدقاؤه : إنه ليس هناك باشا يستطيع منعه من الانضمام إلى قافلة الحج المتجهة إلى مكة ، بشرط عدم الاقتراب من الأماكن المقدسة في الحجاز ، وهكذا تنكّر داوتي في زي رجل سوري متوسط الحال ، وانضم إلى جماعة الإيرانيين في القافلة معتقداً أن ذلك سيقلل من عوامل إثارة الشبهات حوله ، وقد أخذ معه في رحلته ، ١٣ جنيهاً ذهباً ، ودفترين لتدوين ملاحظاته ، وآلة السدسُ(٣٥) ، وبارومتراً معدنياً ، وميزان حرارة ، وبندقية صغيرة ، ومسدساً أخفاه تحت قميصه ، وصندوقاً للأدوية ليتظاهر بأنه طبيب ، وليكسب بعض المال من عمل كهذا ، وقد حمل معه رسالتين في الطب العربي ، ونسخة من قصص كانتربري لتشوسر(٣٦) . وبالرغم من أن الأغراض التي أخذها معه تعتبر قليلةً ، إلاّ أنها كانت كثيرة إذا ما قورنت بما يأخذه البدو الذين سيتجول معهم في رحلاتهم . وقد تألفت القافلة من ٦٠٠٠ حاج و ٣٠٠ حارس ، مئتان من الخيّالة بالإضافة إلى مدفعين ومائة رجل من عقيل ، وهم جماعة من البدو من ذوي القوة والشكيمة . وفي أثناء الرحلة تسمى داوتي باسم خليل وهو اسم يستعمله سكان بلاد الشام على مختلف دياناتهم ، وحذره أصدقاؤه من جماعة العقيلات ، والويل لمن يسقط في أيديهم ! إنه ميت لا محال .

إن فكرة الانضمام إلى قافلة الحج أعجبت داوتي كثيراً فقد ذكرته بقصص تشوسر . وفي تلك الرحلة ذكر لنا داوتي كيف أن الكلاب التي رافقت القافلة سارت مسافة ألفي ميل مابين دمشق والمدينة ذهاباً وإياباً ، وكيف أن العبيد كانوا يجلبون الفحم لمدخني النارجيلة ، وعن الديك الأبيض الذي رافق الحجاج الإيرانيين . وذكر أيضاً أن سيدة إيرانية توفيت في الطريق ، فما كان من خادمها إلا أن ذبح جملاً وخيط جثمانها

---

(٣٥) جهاز لقياس إرتفاع الاجرام السماوية (المترجم) .

(٣٦) جفري تشوسر : شاعر إنجليزي عاش تقريباً من عام ١٣٤٠ - ١٤٠٠م ويعتبر أبو الأدب الانجليزي وقد ألف «حكايات كانتربرى» التي جمعها من قصص القرون الوسطى وقبل ذلك كان قد كلف كمفوض سياسي للقيام برحلات برحلات إلى عدد من الأقطار الأوربية ، من فرنسا وإيطاليا ، حيث تحصل فيها على معرفة متميزة تقريباً عن دانتي ، كبير شعراء إيطاليا وبوكاتشيو ، أبى النثر الايطالي الكلاسيكي (Who did What, P. 68) - المترجم.

داخل الجلد غير المدبوغ وذلك لكي يحمله إلى الأراضي المقدسة . وقد كانت المسيرة طويلة حيث يستمر سير القافلة أحياناً مدة ٢٤ ساعة كل ٢٦ ساعة ويكون التوقف عادة لمدة قصيرة ، «يعقبها حينئذ فترة قصيرة من الجهد والعناء يستعد فيها الركب للرحيل .. بعضهم ينادي وبعضهم يجري بالمصابيح .. وجلبة متواصلة ، يختلط فيها أصوات الناس مع هدير الجمال ، أما الخيام فإنها تحمل فوق رءوسنا» .

وعند نهاية شهر نوفمبر عام ١٨٧٦م وصل خليل إلى مدائن صالح وقد علم الباشا الذي يقود القافلة – وهو شخص حقير ومنافق يلعق الدهن من كل ذقن – أن صاحبنا نصراني ، فتركه تحت إشراف رجل مغربي ، كان مسئولاً عن قلعة بنيت حول بئر[٣٧] ماء وستكون هذه القلعة مركزاً له ، حتى تعود القافلة من الحج ، وقد تجول داوتي في المنطقة مستنسخاً الكتابات القديمة والرسوم المنقوشة في واجهات المقابر المنحوتة في الجبال . ولم يتعرض داوتي لأي خطر ، ما عدا الغضب الفجائي من حارسه : «... ماسكاً بلحيتي كالكلب المسعور ، فيدفعني هذا الوحش بعنف ، هنا وهناك ، وهو في منتهى الحقارة من الغضب» ، وعلى أية حال ، فقد كانت هذه فقط المرة الأولى فيما وقع له في خلال الثمانية عشر شهراً التالية .

لم يذكر لنا داوتي عن أهدافه ولا عن السبب الحقيقي في اتخاذه قراراً بعدم العودة مع الحجاج إلى دمشق ، ولم يبال بتحذير صديق ، أوضح له تماماً حياة البدو الفقيرة وغير الودية تجاه الآخرين ، فهي حياة جافة وتعيسة وقال له : أنظر بأي طريقة يأملون في العيش .. بإفتراس بعضهم البعض ، وليس من الصعب عليهم أن يقطعوا المسافات مشياً على الأقدام دون شرب ، ويأكلون ما يجدونه في الطريق ، هذا فقط إن وجدوا شيئاً يؤكل ، وقد انضم داوتي إلى جماعة صغيرة من البدو ، على رأسهم شخص اسمه

(٣٧) هذه القلعة لازالت قائمة بجانب محطة سكة حديد الحجاز وقد رممت مؤخراً من قبل الادارة العامة للآثار والمتاحف بالمملكة العربية السعودية ، ويتوسطها بئر يعتقد أنه بئر الناقه ويوجد إلى الجنوب منها بركة كبيرة ، وقد بناها أسعد باشا بن العظم والي دمشق (١١٥٦ – ١١٧٠هـ) حسبما ذكره ابن القاري في كتاب الوزراء (أنظر Ghabban, P. 264 – المترجم .

زيد[٣٨] وصفه داوتي ، أن له خدين غائرين ، وعينين كالحتين ، بلاده لا تخضع لقانون ، ويعمها الفقر والجوع ، أهم غذاء عنده ، احتساء القهوة من الصباح وشرب الدخان ، فالصبر هو سيد الفضائل عند البدو ، وبالصبر والشجاعة والصمود يتحمل الجوع ، ودائماً ما يتشاجر مع زوجته فيتوسط خليل للصلح بينهما ، وبالرغم من حالة الفقر التي يعيشونها ،فإن زيداً هذا قد وعد داوتي بتزويجه من سيدة إذا رغب في العيش معهم ، ويبدو أن داوتي قضى وقتاً ممتعاً في هذه الفترة بالرغم من أنه تخللتها بعض الخلافات مع زيد البخيل ، فقد استمتع بالاستماع إلى قصص البدو التي أعتبرها دروساً للمسافرين ومدرسة للحياة ، لكنه وجد أن موسيقاهم ليست جذابة مثل أحاديثهم ، فصوت الربابة مع صوت المغني مزعج ومثل النهيق ، وقد شاهد داوتي ، النساء يغلين روث الحمير حيث يقدم مع الحليب للمريض ، وكان حاضراً عندما أغار [على مضارب زيد] جماعة من الغزاة وأخذوا معهم عدداً من الإبل ، والغريب أن أحداً لم يحرك ساكناً ، وكل ما عمله الخاسرون ، هو توزيع ما تبقى من الإبل فيما بينهم ، وخلال تجواله مع هذه الجماعة مر بمدينة «تيماء» التي ذكرت في سفر التكوين[٣٩] .

وما أن حل شهر أبريل حتى بدت القفار شاحبة تحت حرارة الشمس المحرقة «... وبدأ الطقس كما لو أننا نتنفس اللهيب وقد بقيت الهث يوماً بكامله ولا أعرف كيف بقيت حياً ، مع أنني أعاني من صعوبة التنفس ولم أستطع الأكل» . وقد قرر داوتي الرجوع إلى مدائن صالح وهو عازم على السفر إلى الساحل ليركب البحر إلى مصر ، وقد مر عليه يوم عصيب ، تعرض فيه للإهانة ، والحرمان من الماء ، وفي ليلة من الليالي سمع الناس يتحدثون ويفكرون في قتله ، وقد أيقن أنه لا يستطيع النجاة من حرارة الجو في السهول الساحلية ، فقرر العودة والتوجه إلى المناطق المرتفعة بحثاً عن الجو البارد .

---

(٣٨) تنتمي هذه الجماعة إلى فخذ الفقراء من قبيلة عنزه (المترجم) .

(٣٩) سفر التكوين : الاصحاح (٢٥) فقرة (١٥) ، ويلاحظ هنا أن تيماء لم تترك في نفسه إنطباعاً حسناً فذم أهلها وتجارها بكلمات نابية لا داعي لترجمتها (المترجم) .

في نهاية شهر مايو ، قام داوتي بجولة في منطقة الحرة[٤٠] ، لمدة أربعة أشهر ، فوجدها أرضاً قاحلة لا حياة فيها .. تغطيها الصخور البركانية السوداء . وقال بأنها طبيعة لا تبتسم .. مقفرة .. محرقة ، ومرعبة . وقد مر داوتي بحادثة غير سارة عندما اتهمه بدوي مرة بأنه قد تركه في البرية وحيداً ، ولكن هيئة من الشيوخ برأت ساحته ، كما أنه مر بلحظة خطرة عندما ورد نبأ عن قرب وقوع غارة عليهم ولكنه وجد النساء يحثنّه على الهرب من وجه الغزاة حتى لا يصيبه أذى ، كما صاح الأطفال عليه : «أركب بسرعة وأهرب عنهم يا عم خليل» ، وهذا يوضح العلاقة الودية التي تمتع بها داوتي مع نساء البادية اللاتي يتبادلن الحديث معه ويسألنه ، وقد سألنه مرة : هل هناك نساء نصرانيات يا خليل ؟ وهل يرى القمر في بلاد الغرب .

في شهر أكتوبر دخل داوتي مدينة حائل في جبل شمر ، وكان حاكمها في ذلك الوقت محمد بن رشيد ، الذي قال عنه البدو : إنه ارتكب جرائم لم تُعرف من قبل . حتى إن داوتي شبه وصوله إلى السلطة كإحدى بطولات القتل والسحر في القرون الوسطى ، ولكن هذا الحاكم المرعب قد استقبل داوتي بلطف ، وأكرمه حتى إنه وعده بمركز عالٍ في حكومته ، إذا وافق على الدخول في الدين الإسلامي ، أما الأهالي فكانت علاقتهم به سيئة جداً ، لأنهم يعتبرون وجود النصراني بينهم إهانة ، وكان داوتي قد رفض التظاهر بالانتماء لغير دينه ، وقد ضرب مرتين وسرق مرة ، مما دعى الأمير للتدخل لحمايته ، مع أنه لم يكن ضيفاً لأنه جاء بغير دعوة ، وقد زوده الأمير ، بخطاب أمان وأمره بالمغادرة ، وفي ذلك اليوم كان داوتي قد أنهى سنةً كاملة في الجزيرة العربية .

كانت وجهة داوتي واحة خيبر المعروفة وهي مدينة اشتهرت في التاريخ ، حيث كان فيها مجموعة من اليهود الذين حاربوا الرسول ﷺ شخصياً كما اشتهرت بالتمر

(٤٠) يشير داوتي بذلك إلى حرة عويرض التي دعاها في خريطته باسم حرة المواهيب نسبة ، كما يبدو لي ، إلى فخذ المواهيب من قبيلة بلي الذين يقطنون في قرية ثربه الواقعة في الحره (أنظر الخارطه الملحقه في الجزء الثاني من كتابه (Arabia Deserta) – المترجم .

والحمّى ، ويقول داوتي :«كم هي غريبة وديان خيبر الرطبة في وسط الصحراء العربية الجافة ، لقد شعرت بشيء ثقيل كأنه شيطان يقع فوق قلبي ونحن نسير في الجو الخانق المميت» .

لقد كان داوتي محظوظاً عندما وصل إلى واحة خيبر حياً ، فقد بعثه ابن رشيد مع ثلاثة من الرعاع الذين تخلصوا منه عندما حانت لهم الفرصة ، حيث تركوه [في وسط الصحراء] ، وعلى أية حال فإن داوتي في هذه المرة أصبح حذراً ، فلم يتبجج هناك بنصرانيته ، ووجد بعض البدو الذين عطفوا عليه وأخذه أحدهم إلى خيبر .

كانت خيبر حينذاك تحت سيطرة الأتراك ، واعتقد داوتي أنه سيعامل معاملة حسنة ، وربما كان توقعه صحيحاً لو أنه لم يخبر الحاكم في الحال أنه نصراني وكالعادة رفض أية مساومة ، فهو مغتر بنفسه ، وغير مبال تقريباً بالمشاكل التي يخلقها لنفسه ، فما كان من الحاكم التركي ، إلا أن أمره بترك خيبر ، ولكنه رفض ، وعندها لم يكن بوسع الحاكم الزنجي المسكين ، أمام هذا الموقف المحرج له باعتباره ممثل الدولة ، إلا أن أخذ ما عند داوتي من نقود واحتفظ بها في مكان أمين وجمع بقية أوراقه وأرسلها إلى رئيسه باشا المدينة ، وكان على داوتي أن ينتظر صدور الأمر بشأنه ، فبقي في خيبر ستة أسابيع لم تسأ معاملته فيها إلا من الحاكم الذي ضربه أكثر من مرة ولكن ليس بشدة خوفاً من كلام الناس .

وفي خلال تلك الفترة تعرف داوتي على أعز صديق له قابله في الجزيرة العربية ، وهو العم محمد النجومي ، وكان محمدُ هذا جندياً متقاعداً ، وكانا يقضيان الوقت بالعمل في البساتين ويتحادثان سوياً وهما يشتغلان ، وقد أخبره النجومي ، أنه عقب إحدى المعارك قطعت أذني رجل ميت من الأعداء وبعث بهما إلى المدينة ، وروي داوتي لمستمعه ، حكاية يشك في صحتها كثيراً ، فقال : «لقد أخبرت الرجل الطيب ، كيف أن الشيوخ [النبلاء] في بلادي ، كانوا يذهبون لصيد الثعلب ، حيث يمتطون خيولهم

وهم لابسون معاطف حمراء ... ومعهم مائة كلب تجري أمامهم وهي تنبح .. تقفز فوق الأسوار والجداول ، وكل ذلك في سبيل المغامرة» . وقد رفض النجومي أي مكافأة من داوتي ، ولكنه طلب منه شيئاً واحداً وهو أن يقول : «الله يذكره بالخير» وذلك بعد أن تفرق بينهما الحياة والموت والجانب غير الإنساني في الديانة وهو شيء محزن انه عندما زار فلبي تلك المنطقة بعد مرور سبعين عاماً خلت ، سأل عن النجومي فأخبروه أنه قُتِلَ غدراً ، بينما كان يلعب الداما[٤١] .

نظر حاكم المدينة التركي نظرة عطف في قضية داوتي ، ولكنه كمسؤول رسمي لا يستطيع التسامح بوجوده في الأراضي المقدسة ، فأرسل أوراقه إلى خيبر ، وطلب من حاكمها أن يأمره بالرجوع إلى حائل ، رفض داوتي مغادرة خيبر ، إلاّ بعد أن تُعاد له كل نقوده وعندما تم الأمر فإن رحلته إلى حائل لم تكن رحلة سهلة ، فقد تعرض مع رفاقه إلى ظمأ شديد ، فاضطروا ولحسن حظهم ، أن يشربوا ماءاً مليئاً بالحشرات كما حدث مرة أن ثار شجار بينه وبين رفاقه .

دخل داوتي مدينة حائل مرة ثانية في اليوم الأول من شهر أبريل ١٨٧٨م ووجدها شبه خالية ، فقد كان ابن رشيد خارجاً في حملة عسكرية مما حرم داوتي من حماية الأمير وجعله عرضة لتهكم الناس المتعصبين عليه ، وقد طلبوا منه عدة مرات أن يدخل في الدين الإسلامي حتى إن أحدهم جاء بسكين ، ليجري له عملية الختان بالقوة ، كما وأنهم عرضوا عليه بعض المال ، فأجاب : «لو انكم تعطونني هذه القلعة ... والحفر وأكياس الفضة التي تقولون انها فيها ، فإنني لن أغير ديني» ، «إخس .. إخس .. إخس .. إخس» صدرت من الحناجر الغفيرة ، فازدريت بنفس واحد الدين القيم والكنوز المكنوزة في هذه الدنيا !! وبصرخات مرعبه لعنوا المسيح

(٤١) تقع الفترة التي كان داوتي يزور فيها خيبر ، فيما بين عامي ١٨٧٧ و ١٨٧٨م وقد غادرها في منتصف مارس ١٨٧٨م ، بينما كانت زيارة فلبي لها في الشهر الأخير من عام ١٩٥٠م (أنظر Freeth and Winstone; P. 243 - 8 and Philby, P. 47) — المترجم .

الدجال» . لابد وأن داوتي لم يتحسر كثيراً عندما أمر بمغادرة البلدة في الحال . وهكذا غادر داوتي مدينة حائل مع نفس الرجلين اللذين جاءا به من خيبر ، على كره منهما ، وكان داوتي يسير وراءهما متعثراً ، فقد كان يعاني من حر الرمضاء ومن إصابة عينه بالرمد حتى إنه لا يبصر رفيقيه إلا بصعوبة ، كما كان أنفه ينزف دماً حتى إنه أحس أن قلبه يكاد ينفطر ، وأخيراً تركه الرجلان بعناية جماعة أخرى كادت تقتله لولا تدخل سيدة لحمايته ، ثم وجد من يأخذه إلى مدينة بريده ، ولكنه حُذِّر من إشهار نصرانيته ، لأنه لم يسبق لأحد من غير المسلمين دخول هذه المدينة . وبينما هو داخل بريدة أذن للصلاة ، وكان داوتي لسوء حظه ، في محل عام ، وكان واضحاً للجميع أنه ، لم يذهب إلى المسجد ، وعندما واجه تحدياً ، رفض ، كما هي عادته دائماً ، أن ينكر أنه نصراني .

وقد تجمع حوله بعض الناس ، وتعرض داوتي للتوبيخ والضرب وسلبت كل أغراضه ، ولكن الأمير تدخل وأعاد إليه ما فقده ، غير أنه طلب من هذا الزائر المزعج مغادرة البلدة ، وسمح له أن يبقى فيها لمدة يوم واحد لرؤية هذه المدينة المدهشة بأزدهارها ، ولكن ما أن دخل وقت العصر حتى تجمع الناس عليه مرة أخرى وطالبوا بقتله ، غير أن إمرأتين في البيت ، وقفتا بجرأة مع هذا الغريب وصاحتا عليهم : «من أنتم يا همج .. يا قليلي الحياء حتى تقذفوا سكن الحريم بالحجارة» . وما أن عاد مُضيفه حتى تفرق الجميع .

بعد ذلك عين له الأمير دليلاً يأخذه إلى مدينة عنيزة وهي على مسافة قصيرة إلى الجنوب فأخذه الدليل ولكنه تركه خارج البلدة ، وهكذا أصبح داوتي الآن وحيداً ولا يملك درهماً واحداً وليس هناك أحد يحميه ، ولكنه الآن قد تعلم طبائع العرب وعاداتهم ، فتوسل شربة ماء من بستاني وبذلك ، فقد تأسست علاقة الضيافة بينهما ، وقد أرسله مضيفه هذا فيما بعد إلى زامل أمير عنيزة .

لقد كان زامل رجلاً لطيفاً وكريماً ، فلقى منه ومن كثير من أعيان البلد ، معاملة

طيبة وذلك لأن مجتمع المدينة كان عبارة عن مجتمع تجاري ، اعتاد أفراده على التعامل مع الغرباء غير أن عم الأمير ، قد أثار بعض الناس المتعصبين ضده فقذفوا منزل داوتي بالحجارة وسرقوا ساعته وما يملكه من مال ولم يتركوا له سوى أقل من جنيه واحد ، وقد وجد الأمير نفسه مضطراً لأن يأمره بالمغادرة ولكن الأمير وافق على اقتراح من أصدقائه ، أنه ربما يدعوه للعودة مرة أخرى ، وبما أن دخوله للبلدة غير مأمون العواقب ، فقد عاش داوتي لمدة ستة أسابيع في بستان خارج المدينة ، استقبل خلالها كثيراً من الزوار . وفي الخامس من يوليو ١٨٧٨م غادر داوتي في آخر رحلة لـــه في الجزيرة العربية .

لقد هيأ له أصدقاؤه في عنيزة مرافقة قافلة محملة بأطنان من الزبدة[٤٢] ، في طريقها إلى الحجاز وزودوه بجمل ، وكان داوتي يسير خلف رفاقه ببطيء ، فقد كان يعاني من قرحة مؤلمة وقد عضه كلب عضة آلمته فكتب يقول : «آه .. ياله من ألم وحسرة حين يموت الإنسان كالكلب المسعور في أرض العدو» وعلى كل حال فقد قارب داوتي على الموت مرة لسبب آخر عندما عزم أحد الأشراف وكان مختل العقل على إدخاله في الدين الإسلامي وصاح عليه يطالبه بالنطق بالشهادة وإلا فإن عقابه سيكون الموت ، وكانت معه سكين ثم تجمع أناس آخرون حوله ، فصاح بعضهم : «دعونا نقطع هذا الملعون إرباً إرباً» وسرقوا منه مسدسه الذي احتفظ به دون أن يستعمله مطلقاً خلال كل ما مر به من أحداث ، وكاد أن ينسدل الستار على مغامراته وتنتهي هناك لولا أنه وصل لحسن حظه ، زنجي مسن وهو خادم شريف مكة الذي أصر على أخذه إلى مقر سيده في الطائف وهناك استقبله الشريف استقبالاً حسناً ، وبقي في ضيافته حتى استرد صحته ، ثم بعثه إلى جدة ، وفي الثالث من أغسطس عام ١٨٧٨م دخل داوتي إلى القنصلية البريطانية .

---

(٤٢) الصحيح ، كما يبدو لي ، أن هذه القافلة كانت محملة بأرطال من السمن وهو من المواد الرئيسية التي تبيعها البادية على الحاضرة (المترجم) .

وبعد عشر سنوات [من مغادرته الجزيرة العربية] ظهر كتابه «الصحراء العربية Arabia Deserta» – «مشاهدة رجل جائع وقصته من أشد الناس حزناً» – ولقد أهتم داوتي كثيراً بالصيغة اللغوية التي كتب فيها كتابه ، وكان اهتمامه بالأسلوب أكثر من اهتمامه بالمعلومات التي جاء بها ، ورفض رفضاً قاطعاً طلب الناشر بتغيير أسلوبه في التعبير ، وقال : يإما أن تنشره كما هو دون تغيير كلمة واحدة ، أو لا تنشره أبداً» . وقال لورانس عن كتاب داوتي هذا : «إنه كتاب ليس كالكتب الأخرى ، ولكنه شيء نادر ، إنه انجيل نوعه» .

لم يضف داوتي أية معلومات مهمة عن جغرافية الجزيرة العربية إلا أنه رسم لنا صورة فريدة من نوعها ، كما أنه لم يحاول أبداً أن يفعل كما فعل كثير من الكتاب الآخرين ، بالحكم على البدو من ظاهر حياتهم ، بأنهم يعيشون حياة مثالية في حريتها ورمانسيتها ولكنه ، وكمن ينظر من الداخل إلى الخارج ، وصف الشدة والمعاناة في حياتهم ، وشهد كرمهم ، وأوقات راحتهم وكيف يفرحون لأشياء بسيطة ، كوجبة طعام جيدة ، أو لظل يستريحون فيه ، كما أظهر لنا المفارقات في حياتهم الاجتماعية ، كالجشع والكرم ، الجبن والشجاعة المتهورة ، الغلظة واللطافة ، كما رأى داوتي مقدار الخطورة في مبادرة الشخص في الكشف عن هويته ، وأعرب عن دهشته كيف كان مضيفه يسأله أين قضى الليلة السابقة وماذا أكل ، عاقداً العزم على أن يقدم له إذا كان ذلك ممكناً ، طعاماً أفضل . وبإستثناء الجزيرة العربية ، أين هو المكان الذي يستطيع فيه المرء أن يعيش لمدة ١٨ شهراً وهو لا يملك شيئاً من المال ، دون أن يجوع حقيقة ؟ .

ومثل البدو ، فإن الجزيرة العربية نفسها موضوع رئيسي في الكتاب ، ولأن داوتي كان جيولوجياً ، فقد أدرك الرتابة الفائقة لصحراء التية القاحلة ، المخيفة ، حيث أن يد كل واحد مستعدة لتبطش بالآخر ، فهي قفر قاحل ، رمال وغبار ، يابسة بفعل الجفاف المستمر ، تحت ظل سماء شهباء على الدوام ، أكثر من كونها زرقاء ، وهي

بالنسبة للمسافر كما يقول : «هنا أرض موات ، فإذا لم يمت فيها المرء ، فأنه لا يرجع إلى بلده بشيء سوى الفتور الدائم في عظامه .

ربما لم يعان أحد من المستكشفين من الذل والهوان وقساوة الحياة مثلما عاناه داوتي ، وحقيقة كما يقول : «لقد عشت في الجزيرة العربية يوماً سعيداً واحداً ، أما بقية الأيام فكانت كلها سيئة بسبب تعصب الناس»، وعلى أية حال ، فقد كان هو نفسه لا يقل عنهم تعصباً ، وقد انتقده بيرتون بحدة ، وقال إنه هو نفسه الذي جلب الشدائد التي وقعت فوق رأسه ، وذلك بسبب عناده وعدم استعداده لإعطاء أي تنازل ، ولكن مع ذلك فقد بقى داوتي بطلاً . يقول لورانس ، إنه حتى بعد أربعين سنة [من مغادرته الجزيرة العربية] ، فإن البدو يتذكرونه في حد ذاته وما زالوا يتناقلون أخباره في الأماكن التي تنقل فيها ، وهناك شيء غريب ، بل رائع ، وهو بقاء رجل إنجليزي نبيل ووقور ولطيف وصادق ، في مخيمات البدو وسط صحراء الجزيرة العربية ، وعلى أية حال ، فإن داوتي نفسه ، يبرز في هذا الكتاب بدون قصد منه ، كموضوع رئيسي ثالث إلى جانب البدو والجزيرة العربية .

أما قصة بقية حياته ، فإنها رويت باختصار ، فقد تزوج داوتي بعد رجوعه من الجزيرة العربية (كان البدو يظنون أنه قد أجر زوجته في خلال رحلته) ، وعاش تقريباً منعزلاً عن الناس ، وكرس نفسه لكتابة القصائد التي أمل أن تكون استمراراً لما كتبه كل من تشوسر وسبنسر ، متخيلاً تماماً ، كما لو أنهما قد كتبا في الوقت الحاضر [أي زمن داوتي] . وكانت قصيدة «The Dawn in Britain الفجر في بريطانيا» ، طويلة جداً ، أكثر من المعتاد ، بحيث يقارب طولها ثلاث مرات طول قصيدة «Paradise Lost الفردوس المفقود»[٤٣] ، بينما توقع في قصائده الأخرى مجيء الحرب العالمية ورحلات الفضاء . وقد كان داوتي لطيفاً وكريماً مع أولئك الذين ساروا على خطاه ، رغم أن اهتماماته ، فيما يبدو ، بالجزيرة العربية قد تلاشت ، وقد توفي داوتي في مدينة

---

(٤٣) هذه قصيدة نظمها الشاعر الانجليزي جون ملتون في عام ١٦٦٧م (المترجم) .

«سيسينجهرست Sisinghurst» في شهر يناير من عام ١٩٢٦م ودفن في جولدن جرين Golden Green .

لقد حاولت قدر المستطاع أن أروي قصة داوتي بنفس كلماته ، ولكن لكي نحصل على صورة صحيحة تنطبع في الذهن عن أسلوبه الذي هو مزيج من كلمات ساكسونية قديمة ، وإنجليزية من العصر الفكتوري المبكر ، وأخرى عربية ، فأنه لابد لنا من الاستشهاد بما كتبه بالتفصيل ، وفيما يلي فقرة تمثل أسلوبه ، وليفهمها المرء فإنه لابد أن يعرف أن كلمة «منزل» تعني مكان المخيم وكلمة «بيت» تعني دار ، و «غنم» تعني قطيع . ويقول داوتي عن الكلاب التي ترافق القبيلة : «ما أن تحط الرحال ولا تكاد تنصب الخيام ، حتى تزحف الكلاب إلى الظل ، فتخمش الرمل الحار وتحفره بمخالبها لتهيء لها مكاناً بارداً في الطبقة السفلى . وإذا كان هناك كلب تائه عن أهله في «المنزل» ويجري بقرب خيام غريبة عنه ، فإن أهلها يصيحون عليه : «أهلك ... أهلك» . إن كلاب البدو العدوانية ، التي تشمشم عراقيب الناس الغرباء ، تكون بمثابة الشرطة للمخيم ، ويلاحظ أن بعضاً منها خطرة وخطافة بأسنانها ، وقد يمر رجل غريب ويناوش الكلاب بعصاه فينهره أصحابها أما إذا لم يكن هناك في البيت إلا النساء ، فإنهن لا يفعلن شيئاً سوى أن ينظرن نظرة خبث أنثوي ، فما على الرجل الغريب حينها إلا طرد الكلاب بالحجارة ، وقد تصيح عندئذ أحدى النساء : «أوه ... أوه ، لماذا ترمي كلبنا بالحجارة» . فيجيبها الرجل : «هذا الملعون يكاد يفترسني» وتقول المرأة :«ولكن لا ترميه بالحجارة» فيرد عليها : «إذاً أصرخي عليه ، ياغبية ، وإلا فأنني سأقضي عليه بهذا الحجر» ، فترد عليه : «ويحك ، لا تفعل ، أنه يأكل الذئب ، ويراقب العدو ، ويحرس بيتنا والغنم ، فأرجوك يا هذا أن لا ترميه بحجر آخَر» ، فيصيح الرجل عليها : «أيتها المرأة المجنونة ، قبل أن يأكلني فأنني ساكسر كل عظم في جسمه ، ملعون لسانك ، كان بإمكانك أن تنهريه بأقل جهد من هذا» .

فلبـــــــــي



فلبي إبان سنوات نشاطه الجم ، في العقد الرابع من القرن العشرين .

يحمل قبر فلبي في بيروت النقش التالي : «أعظم رحالة في الجزيرة العربية» ، والواقع أن ما ادعاه ابنه هنا ، له ما يبرره ، فلا يوجد هناك أحد من الكتاب الذين تحدثنا عنهم من رأى الجزيرة العربية بقدر ما رأى ، أو أن أحداً قد زار أنحاءها كما فعل هو الذي غطى بزياراته كل ركن فيها ، ولا يوجد أحد منهم قد أخترقها عدة مرات من مختلف الإتجاهات كما فعل هو أيضاً وأخيراً ، ليس هناك من بقي منهم في الجزيرة العربية أكثر من عشرين شهراً كما فعل فلبي الذي بقي فيها معظم الأربعين سنة [التي قضاها بالشرق] .

وُلِدَ هاري سانت جون فلبي ، المعروف بـ «جاك» أو الشيخ عبدالله في سيلان عام ١٨٨٥م ، وكان دائماً يمزح مع نفسه فيقول : «إنني لست أنا ... وإنّما أنا طفل سيلاني التقطته ممرضة بالخطأ وبدون مبالاة» . بعد أن أتم دراسته في كلية ويستمنستر Westminster ثم في كلية الثالوث الأقدس بجامعة كمبردج ، التحق بالخدمة المدنية في الهند ، ووصل إلى بومباي في ديسمبر عام ١٩٠٨م وعندما تزوج ، كان شاهد العريس [في مراسيم العقد] ابن عمه ، الذي أصبح يُعرف فيما بعد بالمارشال مونتجومري

Montgomery[٤٤] . وبالرغم من أن فلبي عرف عنه عدم انسجامه مع زملائه في العمل ، إلا أنه بلا شك كان لغوياً بارعاً وإدارياً من الدرجة الأولى (وقد ادعي أنه أول اشتراكي ينخرط في الخدمة) .

في نوفمبر من عام ١٩١٤م ، بعد إعلان الحرب ضد تركيا تم إنزال قوات بريطانية – هندية في العراق وسرعان ما احتلوا منطقة البصرة ، وقد أخذ الأتراك معهم عند إنسحابهم من البصرة كل السجلات الحكومية ، وغيرها مما يتعلق بالتنظيم الإداري للبصرة ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى إعادة بناء التنظيم الإداري في المنطقة ، وكان فلبي من بين الذين أختيروا للقيام بتلك المهمة ، وقد وصل إلى هناك ليمارس أول تجربة له في حياته في البلاد العربية وكان ذلك في عام ١٩١٥م وأنيطت به مهمات عديدة كجمع الضرائب ، والإشراف على إصدار جريدة لصالح الدعاية البريطانية .

في نوفمبر عام ١٩١٧م حدث ما غير مجرى حياة فلبي كلها ، فقد اندلعت الثورة العربية في شهر يونيو من العام السابق ، وكانت السلطات البريطانية قلقة جداً بسبب المنافسة القديمة القائمة بين شريف مكة ، وبين ابن سعود حاكم نجد ، وحاولت قدر الإمكان منع تلك الخلافات من أن تبدد جهد الأشراف في الحرب ضد الأتراك ، وحاولت في نفس الوقت جلب حاكم نجد إلى جانب الحلفاء . لم يكن هناك أي اتصال رسمي بين ابن سعود وبين بريطانيا لمدة أكثر من سنتين ، فتلقى فلبي الأوامر للذهاب إلى نجد لمعرفة الوضع السياسي هناك ، وقد وصل فلبي إلى العقير قرب البحرين في أحسن الملابس التقليدية للامبراطورية البريطانية في الهند ، إذ كان يرتدي بنطلوناً قصيراً وقبعة ، وفي أول توقف له أثناء رحلته طالبه مضيفوه بأن يقلل من مظهره الأوربي الجلي ، بارتداء الزي المحلي لتسهيل عملية تنقله في تلك الأرض التي لا يرحب أهلها بوجود نصراني بينهم ، وبعد رحلة دامت سبعة أيام على جمل ، وصل فلبي إلى الرياض ، وقابل هناك ولأول مرة ابن سعود ، عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود ، ونذكر اسمه الكامل لكونه

(٤٤) بطل معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

أعظم شخص ظهر على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية منذ أكثر من ألف عام ، إنه بطل محارب شجاع وحاكم جريء وشاعر فصيح ، يقف شامخ البنية بين أصحابه ، وكان إنساناً ذكياً محنكاً كريم الخلق لطيف المعشر ، كريماً ومضيافاً عاش في قصره المبني من اللبن في الرياض مع جنوده وخدمه ، وفي الصحراء عاش في خيمة تحت ضوء نجوم السماء ، قد نغالي إذا قلنا إن فلبي كان صادقاً في حب الملك عبدالعزيز ولكنه حقاً كان واقعاً تحت تأثير شخصية ابن سعود الجذابة وقد أثبت على الدوام اخلاصه وحبه لهذا الملك واحترامه للقيم الحضارية التي نشأ عليها وبالمقابل فإن ابن سعود ، قدر لفلبي وقدر معرفته وعلمه ، ودائماً ما كان يدعوه إلى مجالسه العائلية مع أولاده ، فنراه يلعب ويمزح مع الأمراء الشباب ، وكان أحد جلساء الملك الذين يحضرون في مجلسه الخـــاص .

كانت الخطة الأساسية أن يصادف وصول بعثة فلبي إلى الرياض وصول بعثة قادمة من القاهرة عن طريق جدة ، ولم تجد تلك الخطة طريقها إلى النور ، حيث إن شريف مكة ادّعى أنه ليس لابن سعود سوى سلطة ضعيفة جداً على القبائل التابعة له ، وأن قيام مثل هذه الرحلة من الأمور المستحيلة . ولكن فلبي ، وبتشجيع من ابن سعود ، قرر وبكل حماس أن يثبت بنفسه خطأ تلك الفكرة وذلك بالسفر [براً من الرياض] إلى جدة ، وبتوقيت مناسب ، أخبر فلبي روساءه بالخطة وبطريقة لم تترك لهم مجالاً للتفكير في رفضها ، وجهزه ابن سعود بالجمال ومجموعة من الحراس ، وقطع فلبي مسافة ٤٥٠ ميلاً إلى الطائف في مدة خمسة عشر يوماً ، ولم تكن رحلة سهلة ، فقد وجد الحراس صعوبة في حراسة رجل كافر ، حتى إن بعضهم تردد في الأكل معه لئلا يلوث طعامهم ، بالإضافة إلى ذلك فإنهم لم يلاقوا ترحيباً من القرى التي مروا بها في الطريق ، ويعتبر وصول فلبي إلى جدة ، هو العبور الثالث للجزيرة العربية في خلال قرن واحد .

وبعد أن قام فلبي ببعض المهمات السياسية في كل من القاهرة وجدة والقدس ، رجع إلى ابن سعود في خريف عام ١٩١٨م في مهمة جديدة ، لإقناعه بالقيام بحملة

عسكرية ضد ابن رشيد الذي يحكم منطقة تمتد بين ساحات المعارك في العراق وفلسطين . لقد كان ابن سعود في موقف حرج جداً ، فقد كانت المساعدات البريطانية تؤلف نسبة كبيرة من خزانته(...) لهذا فإن فلبي لم يجد صعوبة في إقناع ابن سعود بالقيام بالحملة العسكرية ، ولكنه رفض أن يأخذ فلبي معه لأن ذلك سيثير الشعور الإسلامي عند الأهالي هناك ولكنه وافق على أن يجهزه بقافلة لزيارة منطقة وادي الدواسر التي تقع على بعد ٥٠٠ ميل جنوب الرياض وذلك لمدة خمسين يوماً حيث إن هذه المنطقة غير موضوعة على الخارطة ، وقد جلب فلبي معه معلومات قيمة علمية وجغرافية ، كما أنه عقد العزم على أن يكون أول من عبر الربع الخالي .

وعند رجوعه [إلى الرياض] وجد فلبي أن الحرب [العالمية] عملياً قد انتهت تقريباً ، وأن النظرة السياسية [البريطانية للمنطقة] قد تغيرت ، فقد اعتبروا وجود ابن



جمهور من الناس وقد تجمعوا خارج قصر ابن سعود في الرياض للاحتفال بالعيد

الرشيد ، أمراً يجب المحافظة عليه ، ليكون حاجزاً بين العراق الواقع تحت حكمهم ، وبين الخطر المحتمل من التوسع السعودي ، وهكذا فقد استدعي فلبي ليتسلم منصبه الرسمي في بغداد ، وانغمس فوراً في الخلافات الدائرة حول تقرير مصير الحكومة العراقية ، وبينما هو في إحدى الحفلات الرسمية في تلك الفترة ، سمعه شخص ما ، يقول لمسؤول آخر : «لم أسمع ما قلته لي .. ولكن على كل حال فأنا لا أوافق عليه» . إن هذه الحادثة وغيرها تدلنا على أن فلبي لم يكن على وفاق مع المسؤولين في العراق ، وخاصة مع رئيسه في العمل . وأخيراً في يوليو ١٩٢١م اتفق فلبي مع رؤسائه ، على أن يرحل من العراق ، فأخذ إجازة وذهب إلى إيران ، واغتنم فرصة سفره مع مراسل صحيفة التايمز ، ليكشف أهم الأسرار المحرجة [للحكومة البريطانية] فيما يتعلق بالإدارة [البريطانية] في العراق .

لقد كان فلبي محظوظاً لحصوله على عمل آخر مع الحكومة ، ففي نوفمبر عام ١٩٢١م ذهب إلى عمان ليحل محل لورنس كممثل لبريطانيا في إمارة شرق الأردن المكونة حديثاً وكانت الأوضاع مضطربة ، انعدم فيها القانون واضطرب الأمن ، وقد روى أحد الضباط البريطانيين ، أنه رأى شخصاً شاهراً سيفه ، يركض خلف رجل آخر ، وما أن لحق به وقبض عليه حتى ضرب عنقه وسط السوق . لقد قضى فلبي أوقاتاً ممتعة في عمان ولكنه خلال السنتين اللتين قضاهما ، حصل بينه وبين كل من الحاكم المحلي ومرءوسيه هو شخصياً ، مشاجرات لا يمكن تفاديها ، وهكذا فقد أصبح فلبي منذ منتصف ١٩٢٤م بلا وظيفة .

وخلال وجوده في الأردن ، التقى فلبي مع الكاتبة والرحّالة المشهورة روسيتا فوربس Rosita Forbes ، وكانت حينذاك لا تزال في العقد الثالث من عمرها ، وقد ذاعت شهرتها من خلال أعمالها الجريئة الرومانتيكية ، والتي وصفت في كتب ما زالت تعتبر هي الأخرى ، أكثر رومانتيكية من أعمالها ، فقد زارت هذه السيدة وهي متنكرة جداً ، واحة كفرا الليبية والتي لم يسبق للأوربيين زيارتها من قبل سوى اللورد نورثكلف

Northcliffe ، وقد عرض عليها ، هذا اللورد مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني مقابل سفرها إلى مكة ، ولكنها حسب روايتها ، رفضت وذلك لأنها كما تقول ، قد شعرت في آخر لحظة بتأنيب الضمير لقبولها فكرة الادعاء بالإسلام ، وفي كتابها الثاني وصفت كيف أنها أخمدت تمرداً حدث على ظهر قارب شراعي في البحر الأحمر عندما كانت في طريقها لاستكشاف جزء مجهول في الجزيرة العربية ، ثم بعد فترة قصيرة سافرت إلى المغرب لكتابة قصة أحد قطاع الطرق المشهورين ثم عرضت عليها جريدة «الديلي تلغراف» ، أربعة آلاف جنيه إستراليني لترافق فلبي في رحلته التي يعبر فيها الربع الخالي ، حيث يقوم فلبي بمهمة البحث العلمي ، بينما تتولي هي التغطية الإعلامية على أن لا تحاط السلطات الحكومية التي سيمران بأراضيها ، علماً بهذه الرحلة سلفاً . وحتى لا تثار الشكوك من حولهما ، فقد قرر فلبي وروسيتا أن يسافرا إلى نجد ، كل منهما مستقل عن الآخر ، فسافرت هي مع مصور سينمائي إلى الخليج بينما توجه فلبي إلى جـــــدة .

إن الخلافات القديمة القائمة بين شريف مكة وابن سعود ، تطورت إلى حرب انتهت باستلام القوات السعودية لمكة ، ومن ثم محاصرة مدينة جدة ، وقد عرض فلبي خدماته للوساطة بين الجانبين ، وهنا حذرته الحكومة البريطانية بأن ينتبه فقط لأموره الخاصة وهددته بقطع معاشه التقاعدي وبالإضافة إلى ذلك فإنه منع من السفر إلى المناطق الداخلية [من الجزيرة العربية] ، وفي عدن ، تقابل فلبي مع روسيتا ، ولكن مشروعهما فشل مرة أخرى ، وقد بكت روسيتا على مكتب الممثل البريطاني ، ثم غادرت مع مصورها إلى الحبشة في رحلة استكشافية ، وهنا تختفي روسيتا من قصتنا حيث لا يتسع المجال لسرد مغامراتها مع ملكات البلقان ، وفي أمريكا الجنوبية بالإضافة إلى علاقاتها مع أتاتورك وستالين وهتلر وموسوليني ، أما فلبي فقد عاد يائساً إلى لندن .

وبعد سنة ، استطاع فلبي خلالها الحصول على بعض المساعدات المالية ، فأسس شركة تجارية صغيرة في جدة التي اتخذها مقراً له معظم أيام حياته . وقد إستورد السيارات وخطط لسحبها فوق التلال الرملية بوساطة قافلة من الجمال ، كما أنه ساهم

أيضاً في إدخال أجهزة الراديو والهاتف ، ولكن ذلك كان في حاجة لنفوذ ابن سعود الشخصي لإقناع العناصر المحافظة بأن ذلك الصوت الذي يسمعونه من مكان بعيد ، ليس بصوت الشيطان نفسه ، وأكثر من هذا كله ، فقد كان فلبي سعيداً لتأكده بأن امتيازات التنقيب عن النفط لم يذهب لشركة بريطانية ، بل ذهب للأمريكيين الذين في اعتقاده ، غير ملوثين بالإمبريالية ، ولكن لسخرية الأقدار ، فإن فلبي لم يدرك إلا في وقت متأخر ، بأن هذه الإجراءات ستؤدي إلى تغيير جذري لوجه الجزيرة العربية القاسي .

استأنف فلبي صداقته مع ابن سعود ، وقد قويت أواصرها بعد أن أصبح مسلماً في أغسطس عام ١٩٣٠م ، ولكنه على الأقل ، لا يبدو أنه كان ملتزماً جداً بتحريم الخمر ، عندما يكون في الخارج ، أما علاقاته بالسلطات البريطانية ، فكانت غالباً سيئة على الدوام ولعلنا نستشهد بتقرير عام ١٩٣٧م ، بعد رجوعه من حضرموت : «كان فلبي في حالة من أشد حالات بروميثيوس البطولية ، فإلى جانب رغبته في جلب نور العلم للبشرية ، فقد كان لديه عزم شديد لكشف المخادعات المتهمة بها حكومة صاحب الجلالة HMG [البريطانية] في تعاملها مع العرب في شبه الجزيرة»، ومع هذا فإن الحكومة البريطانية لم يقلقها تأثير فلبي على ابن سعود ، لعلمها بأن ابن سعود أقوى شخصية من فلبي ، أما الفرنسيين فما كان منهم إلاّ أن ينظروا بعين الحسد إلى نجاح البريطانيين في توطيد علاقاتهم مع الجزيرة العربية .

في نهاية عام ١٩٣١م استأنف فلبي رحلاته في الجزيرة العربية ، بالرغم من أنه أصيب بخيبة أمل حينما علم أن برترام توماس Thomas قد سبقه إلى الربع الخالي وحرمه الفوز بأولوية الاكتشاف . وبدأ فلبي رحلته من الهفوف بعد أن زوده ابن سعود بقافلة تتألف من إثنتين وثلاثين ناقة ، وجملاً واحداً وأربعة عشر رجلاً ومؤناً تكفيه لمدة ثلاثة أشهر ، وخلال تلك الرحلة دخل شهر رمضان . وبالرغم من جواز الفطر للمسافرين إلا أن الرجال قرروا صيام رمضان حتى المساء وعندئذ يقوم البدو بمضمضة أفواههم

ببول البعير [وقد لاحظ أيضاً أنه] عندما يتشقق خف الجمل بسبب الحجارة ، يقوم نفر من الرجال الأقوياء بطرحه أرضاً ثم تخيط الشقوق بخيوط مقطوعة من الأطار المطاطي لعجلة السيارة .

وكالعادة فإن فلبي كان دائم الشجار مع رفاقه في السفر ، فبينما كان رفاقه يفضلون السفر في الليل حسب عادة العرب لتجنب حر الشمس ، كان فلبي يصر بالطبع على السفر بالنهار لكي يبصر الأماكن لمسحها ووضعها على الخارطة ، وكثيراً ما أراد رفاقه الخروج عن الطريق من أجل صيد المارية بينما هو يصر على الخروج عن الطريق ، لكي يطلع على أشياء ليست مهمة في نظرهم ، وعندما يجد صعوبة في تحقيق رغباته فإنه يحرجهم بامتناعه عن الطعام أو الشراب ، فيصيحون عليه بغضب : «إننا نجهد أنفسنا من أجلك ، ونجهد الجمال حتى تضنى ، وإنك لرجل دائم الشكوى ولا يرضيك شيء أبداً» . فيرد عليهم : «لقد خلقني الله ووضع الجمرة في قلبي ولكن أعمالكم هذه تزيدها لهباً واحتراقاً» . ولقد كان في نية فلبي أن يستمر في سيره جنوباً حتى يصل إلى المحيط الهندي ، ولكن رفاقه أقسموا له أن ذلك مستحيل ، فهم لا يعرفون الطريق ، كما توجد قبائل معادية مما قد يعرض القافلة كلها للهلاك ، وقد علم فيما بعد أن رجال القافلة ناقشوا فكرة قتله حينما كان نائماً وذلك عقب مجادلة حادة معهم إلا أنهم خافوا عدم الثبات على قول واحد أثناء المساءله .

وأخيراً وافق فلبي على الرجوع – «... لقد تغلب الربع الخالي علينا ... لقد محا النوم ، على الأقل ، أحلام النهار المزعجة ... إنها ربما تكون أسوأ تجاربي كلها» ، وليس بمستغرب أن يكتب قائلاً : «إن الجهد في السفر في الصحراء ليس شيئاً بالمقارنة مع الإرهاق النفسي» ، [وفي طريق العودة] ، مالت القافلة في سيرها نحو الغرب لتقطع ٣٧٥ ميلاً خلال عشرة أيام ، عبر صحراء لا يوجد فيها قطرة من الماء ، وكانوا يسقون جمالهم قليلاً من الماء ، يسكب من غلاية الشاي في مناخيرها ، حتى إن فلبي نفسه ، قطع ٢٥٠ ميلاً دون أن يشرب جرعة ماء ، وفي خلال الرحلة كلها قطعت القافلة

مسافة ١٧٠٠ ميل ، في مدة تسعين يوماً ، وفي النهاية ، بعد ثلاثة أشهر من الشغل الشاق ، استلم كل واحد منهم ما معدله عشرة جنيهات إسترليني .

كانت تلك الرحلة ، هي الأخيرة تقريباً التي استعمل فلبي فيها الجمال ، حيث تمت معظم رحلاته فيما بعد ، باستعمال السيارات ، وفي إحدى هذه الرحلات ، اصطحب زوجته معه ، وكانت أول سيدة أوربية تقطع الجزيرة العربية من البحر إلى البحر ، ومن خلال وصف فلبي لرحلاته ، ومن خلال أولئك الناس الذين رافقوه في هذه الرحلات ؛ يمكن أن نشاهد الرحالة الحديث وهو في أثناء رحلته . كان فلبي يستخدم الخيام إذا كان الجو ممطراً ، ولا يغير ملابسه إلا إذا بليت ، وكانت الأشياء الأساسية التي يحملها معه ؛ هي أدوات رسم الخرائط ، أما بقيتها فتشتمل على بعض السكاكين ، وشبكة لصيد الفراشات ، ومصباح لجذبها ، وقوارير لحفظ الحشرات المقنوصة ، وصناديق لحفظ العينات ، وكان يأخذ معه بصفة دائمة جهاز راديو يستمع من خلاله إلى التعليق على مسابقات لعبة الكركت الجارية في أثناء التوقف للاستراحة ، وقد يستمع في المساء إن صادفه الحظ ، إلى موسيقى جلبرت وسلفان Gilbert & Sullivan ، وكان يحمل معه دائماً مجموعة من نسخ جريدة التايمز ولا يفتح أبداً أكثر من نسخة واحدة في اليوم ، ويقضي الاستراحة الأخيرة قبل النوم في حل ألغاز الكلمات المتقاطعة التي يدعي أنه لم يلجأ في حلها للغش أبداً .

لقد دون فلبي ملاحظات كثيرة عن كل رحلاته ، وكانت كتاباته كثيرة جداً وشاملة ودقيقة ، وقد صاغ مؤلفاته بإسلوب بسيط ، يكاد يخلو من الجمال الأدبي ، ولكنها تزخر بالمعلومات المطردة . وقد ذكر مرة لأحد أصدقاء مؤلف هذا الكتاب ؛ أن خطته في الكتابة هي أن يتحدث عن كل شيء ، وبما أنه كان على معرفة بعلم الطيور ، والحيوان ، والجيولوجيا ، والأعراق البشرية ، والتاريخ ، والآثار ، والوصف الجغرافي فإن «كل شيء» هذى ، تؤخذ بمعناها حرفياً ، كما تضمنت كتبه بعض التعابير اللاتينية التي جاءت بسبب تأثره بالتعليم الكلاسيكي ، غير أننا فقط نجد في بعض الأحيان ، أن

فلبي قد أرتكب أخطاءً بسيطة ، حدثت فيما يبدو بسبب تخوف مرافقيه من طبيعة أخلاقه الحادة ، مفضلين اختراع اسم ما ، على اعترافهم بجهل اسم المكان ، تجنباً للتقريع .

لقد كان استعمال فلبي لوسائل النقل الحديثة بالإضافة إلى الدعم المعنوي ، وأحياناً الدعم المادي ، من الملك [عبدالعزيز] ، عاملاً مكنه من زيارة مناطق كثيرة في الجزيرة العربية لم يستطع زيارتها أحد من الرحالة الذين سبقوه . وفي شهر مايو ١٩٣٦م ، طلب منه ابن سعود أن يقوم بتثبيت حدود المملكة مع اليمن ، لذلك فقد وجد فلبي طريقه إلى مدينة نجران القديمة حيث قام بأهم مكتشفاته الأثرية من ضمنها كتابة لم تكتشف من قبل في جنوب الجزيرة العربية ، وكعادته في عدم إقامة أي وزن للأعراف الدبلوماسية ، قرر فلبي الاستمرار في رحلته إلى أراض متنازع عليها ، متجهاً نحو موقع كثرت عنه الخرافات ، وكان هدفه زيارة شبوة(٤٥) ، أحد المدن التي يقال إنها عاصمة سبأ القديمة ، وحسب معرفة فلبي ، أنه لم يزرها أي أوربي من قبل . وكانت سفرة شاقة فوق الكثبان الرملية ، عجز خلالها في أحد الليالي عن الحركة ، إثر عاصفة رملية ونتيجة لما عاناه من تعب جسمي فقد ذكر فلبي ؛ أنه لم يمر بتجربة مثل تلك التجربة في حياته كلها . وقد وصل إلى هدفه بالرغم من أنه عَرف أخيراً ، أن هانز هلفرتز Helfritz قد سبقه إلى زيارتها ، وعند وصوله إلى مدينة شبوه وجد فلبي حرس الشرف في انتظاره ، وبعكس ما كان معتاداً عليه ، فإن أفراد الحرس ساروا أمامه لتحيته(٤٦) ، وقد مر مؤلف هذا الكتاب بهذه التجربة ، وقد تعجب من عدم إطلاق حرس الشرف للرصاص وهم ذاهبون ، وحسبما هو متبع في تلك المنطقة أنه كلما قربت الرصاصة من رأس الضيف ، كانت أهمية الضيف أكثر ، وبما أن عدداً من الجنود السعوديين كانوا مع فلبي ، فقد اعتقد أهل شبوه أن البعثة جاءت لضمهم إلى الدولة

(٤٥) شبوه : عاصمة مملكة حضرموت القديمة ذكرها سترابون في القرن الأول ق.م وتحدث عنها كتاب الطواف حول البحر الاريتيري في حوالي الربع الأول من القرن الثالث الميلادي (أنظر جبرا ، ص ٢٤٧ ، ونلسون ، ص ٢٧٥) – المترجم .

(٤٦) جرت العادة في أوربا أن يسير الضيف أمام حرس الشرف الذي يقف مستعداً (المترجم) .

السعودية وقد أثار ذلك أيضاً ، شكوك السلطات البريطانية في عدن ، وبما أن فلبي كان يردد القول أنه بحاجة لتبديل محور العجلة المكسور في سيارته ، فقد سافر بسرعة بطيئة إلى ساحل المكلا ، حيث وجد في انتظاره هناك ، برقية تطلب منه أن لا يتوانى في تنفيذ الأمر بشأن ذهابه ، وقد أعتبر نفسه أول من قطع الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ، كما اعتقد أنه بذلك قد مرغ أنف الإمبريالية «أنني لا أتمنى أكثر من أن يدب الوهن [في السلطات البريطانية] في عدن» ، ولكن كالعادة كانت النتائج على غير ما توقعه ، فقد انتبه البريطانيون إلى التهديد الآتي من الشمال ، فتبنوا سياسة أدت إلى إخضاع مناطق جديدة في حضرموت تحت حكمهم ، وفي طريق عودته ، دخل فلبي إلى اليمن وزار مدينة مأرب القديمة ، وقد أدهشت تلك الزيارة الإمام ، بقدر ما أدهشت السلطات البريطانية .

في أوائل عام ١٩٣٩م عاد فلبي إلى إنجلترا وانغمس في خضم الحياة السياسية على الصعيدين الداخلي والعالمي ، وحاول حل القضية الفلسطينية باقتراحاته [لا داعي لذكرها] ، ورشح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطاني كنائب مستقل ومعارض للحرب ، إلا أنه خسر المعركة الانتخابية ، وفي شهر ديسمبر عام ١٩٣٩م رجع فلبي إلى الجزيرة العربية ، وأعلن لكل من أراد الاستماع له ، أن بريطانيا ستخسر الحرب لوقوفها ضد هتلر الذي أعتبره شخصاً غامضاً له صفة دينية «Mystics» ، ومساوياً للمسيح [عليه السلام] ومحمد ﷺ . وفي الصيف التالي ، أخبر ابن سعود عن عزمه على الذهاب إلى الهند وأمريكا للقيام بحملة دعائية ضد بريطانيا ، فأخترق الجزيرة العربية مرة أخرى وأبحر إلى كراتشي وهناك ألقى القبض عليه وسيق إلى إنجلترا حيث وضع تحت الإقامة الجبرية وفقاً لقانون حماية المملكة المتحدة ، ومع أنه أطلق سراحه بعد أشهر قليلة ، إلا أنه لم يكن هناك من رغب في خدماته حتى في أحلك الظروف التي مرت أثناء الحرب .

وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى رجع فلبي إلى الجزيرة العربية ليستأنف أعماله التجارية وليعيش في منزله في كل من جدة ومكة والرياض مع مجموعة من القردة وجارية عمرها ست عشرة سنة ، وقد استمر في رحلاته الاستكشافية ، وأصبح كثير الاهتمام بعلم الآثار ، ويعود الفضل إلى فلبي في اكتشاف عدد من النقوش الثموية في شمال الجزيرة العربية فزاد عدد المكتشف منها من ألفين إلى ثلاثة عشر ألف ، وقد ذكر فلبي أن هناك اعتقاداً ، مفاده أن الثموديين تركوا كهفاً مليئاً بالكنوز العجيبة ، تحت حراسة عقارب حجمها مثل الثور ، كما نقرأ في كتبه ، أن هناك من البدو من يرى أن الجراد يأتي من خياشيم السمك ، وأن الرعد يحدث نتيجة ضرب الملائكة للأجراس ، مبشِّرة بسقوط المطر على الأماكن التي اختارها الله .

وبالرغم من أن فلبي قد أغتنى نتيجة التطور الاقتصادي الذي طرأ على البلاد إلا أنه بدأ يشعر بالوحدة وعدم الانسجام ، فبعد وفاة صديقه القديم الملك عبدالعزيز ، في نوفمبر ١٩٥٣م ، أحس فلبي أنه شخص غير مرغوب فيه فقرر أن يعيش في المنفى واختار لبنان مقراً له ، فتوجه إليها في أبريل ١٩٥٥م ، وتهمة : «صهيوني وعميل أمبريالي» تلاحقه . وبعد مضي أكثر من سنة بقليل ، رجع فلبي بواسطة سيارة مقدمة من الحكومة السعودية واستمر في أعماله التجارية ودراساته [الجغرافية والآثارية] وقام بعدة زيارات إلى أوربا وبينما هو في طريق عودته من مؤتمر للاستشراق ، عقد في موسكو ، توفي فلبي في بيروت في سبتمبر ١٩٦٠م .

كانت الجزيرة العربية التي رأها فلبي في أيامه الأولى هي تلك التي وصفها نيبور وداوتي ، أما في أيامه الأخيرة فقد تغيرت الأوضاع كلية نتيجة للتقدم [التقني] الذي طرأ على العالم مثل التلفزيون والخط الجوي والنمو السريع للاقتصاد العالمي ، وقد ولَّى عهد الاستكشاف ، فبواسطة الصور الجوية ، رسمت خرائط كاملة للجزيرة العربية واضحت المناطق التي زارها الرحالة الأوائل في طي النسيان .

لقد فاق هذا الرجل الإنجليزي دماً ولحماً ، غيره بمساهمته الفعالة في زيادة المعرفة عن الجزيرة العربية ، بالرغم من إسلامه ومعارضته الدائمة للحكومة البريطانية . لقد وضع فلبي قوانينه بنفسه وسار في طريق رسمه بنفسه وكان دائماً واثقاً من صحة تصرفاته ، غير مبال بما يعتقد الآخرون ، فهو شخص غريب الأطوار حقاً ، ولعله من الممكن القول إنه يمثل تماماً شخصية رجل العصر الفكتوري .

رحّـــالة في الحجـــاز

الحجاز هي الأرض المقدسة في الإسلام ، فهي مهبط الوحي الإسلامي على الرسول ﷺ ومعظم الرحالة الذين زاروها عن طريق ميناء جدة ، يتفقون مع لورنس في وصفه لها بقوله : «ترى المدينة البيضاء وكأنها معلقة بين السماء اللامعة وبين ضوئها المنعكس على السراب الذي انتشر فوق مياه البحر الضحلة ، وحينئذ ظهرت شمس الجزيرة العربية الحارة ، وكأنها سيف مسلول يضربنا ونحن صامتون» ، ومضى يقول : «لقد كان الجو قابضاً للصدر ، ساكناً يكاد يخلو من حياة ، ولم تكن حرارة الجو محرقة ، إنما تحس فيها برطوبة شديدة تشم فيها رائحة القدم الذي لا تجده في مكان آخر ، مما جعل المرء يقول : «إن جدة لم تشهد هبوب النسيم منذ سنين» ، وعلى أية حال ، لقد أعجب لورنس بفن العمارة وجمال البنايات في جدة والتي بدت وكأنها صممت لمسرحية رومانتيكية ، فواجهة البنايات نصفها خشبي ، على الطراز الإليزابثي مع شرفات غريبة يتمكن النسوة من خلالها من شم نسيم الهواء ويَريْن ولا يُرين ، غير أن لورنس لم يعطنا أي وصف لمعلم المدينة الفريد وهو ضريح حواء أم البشر ، والذي هو عبارة عن بناية بيضاء ذات قبة تدل على وسطها ويبدو أن حواء [عليها السلام] ذات قوام غير عادي فيبلغ طولها حسبما ذكر بيرتون ، ١٢٠ خطوة من رأسها إلى وسطها و ٨٠ خطوة من وسطها إلى قدمها ، ولكن عرضها لا يزيد عن ست خطوات .

وعلى مسافة أربعين ميلاً ، باتجاه الداخل ، إلى ما وراء نقطة التفتيش الممنوع تجاوزها لغير المسلمين ، تقع مدينة مكة وسط واد قاحل ، وتتركز الحياة في مكة حول المسجد الحرام ، الذي يغطي مساحة تقدر بأكثر من ثمانية هكتارات وله سبع منارات وسبع عشرة بوابة مفتوحة على الدوام وتخترق الأسوار التي تلتصق فيها البيوت ، وفي وسط المسجد وتحت عرش السماء مباشرة وفوق الارضين السبع ، تقع الكعبة ، وهي البيت الذي أمر الله ملائكته ببنائه قبل أن يخلق آدم ، والذي قام إبراهيم ، بإعادة بنائه

[بل رفع قواعده] ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية للكعبة ، يوجد الحجر الأسود ، حيث وضع في دائرة فضية ، وبدت عليه علامات التآكل بسبب تقبيل الحجاج له منذ أجيال مضت ، وقد أعطي هذا الحجر إلى إبراهيم من قبل جبريل [عليهما السلام] ، وبلغ ارتفاع الكعبة أربعين قدماً وهي مكعبة الشكل خالية من أية نافذة ، إلا من بابها الفضي الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام[٤٧] وتغطى الكعبة بكسوة من الحرير ، كتبت عليها آيات من القرآن بخيوط من الذهب ، وللكعبة مفتاح محفوظ عند عائلة توارثته منذ أن أسند إليها مهمة حفظه من قبل الرسول ﷺ ، وتفتح الباب في مناسبات خاصة ، وبالقرب من الكعبة توجد غرفتان فيهما بئر زمزم ، الذي يحكى أنه أنقذ هاجر بعد أن كادت تموت هي وابنها إسماعيل من العطش .

وبجوار مكة ، تقع قرية غير مسكونة وهي منى ، وفيها عزم إبراهيم على ذبح ابنه اتباعاً لأمر الله ، ولإحياء ذكرى هذه التضحية ، فإن المسلم يذبح شاه في يوم عيد المسلمين الأكبر ، وعلى بعد مسافة قصيرة توجد أعمدة صخرية تمثل الشيطان يرجمها الحجاج كعلامة لنبذه وطرد شروره ، أما جبل عرفات فلا يبعد كثيراً عنها وهو الجبل الذي يقال بأن آدم وحواء [عليهما السلام] ، قد تقابلا عليه مرة أخرى ، بعد طردهما من الجنة ، كما أن الرسول ﷺ ألقى من عليه «خطبة الوداع» .

وعلى بعد ٣٠٠ ميل تقريباً شمال مكة ، تقع المدينة ، وفيها مسجد مماثل لمسجد مكة ، وقد بني على نفس المكان الذي توقفت فيه ناقة الرسول ﷺ بعد ما هاجر عن المشركين ، حيث أصبح بداية تاريخ جديد عند المسلمين ، وفي أحد زوايا المسجد توجد حجرة تشتمل على قبر محمد ﷺ وقبري خليفتيه ، ومكان مخصص لقبر النبي عيسى بن مريم [عليه السلام] ، الذي كان قد بعث في وقت سابق ، والحجرة محاطة بشبكة من

(٤٧) باب الكعبة الحالي مصنوع من الذهب الخالص بأمر من الملك خالد بن عبدالعزيز رحمه الله ، الذي أزاح الستار عنه في ذى القعدة عام ١٣٩٩هـ/أكتوبر ١٩٧٩م وهذا الباب يزيد ارتفاعه عن ثلاثة أمتار ، وعرضه نحو مترين ، وسمكه نحو نصف المتر (لمزيد من المعلومات أنظر ، حافظ ، ص ٧ - ٢٠) - المترجم .

الحديد وستارة خضراء داكنة من الحرير ، لمنع الحجاج من رؤية القبر بعينه وهو مكان بسيط ومتواضع ، لا يحمل أي شكل من الأشكال الخيالية التي تناقلتها قصص العصور الوسطى ، فقد قيل إن كفن محمد ﷺ يرفرف فوق الأرض بطريقة مغناطيسية رائعة .

لقد شهدت المدينة أول غزوة يقوم بها النصارى للأراضي المقدسة ، ففي حوالي عام ١١٨٠م جهز أحد الفرسان الصليبيين - والحقيقة أنه مجرد سارق ، إسمه رينولد دي شاتيلون Renauld de Shatillon - حملة عسكرية ، لغزو المدينة وسرقة الكنوز التي حكت الأساطير أنها تجمعت حول القبر ، ونزلت تلك القوة الغازية على ساحل البحر الأحمر ثم توغلت إلى الداخل ، حتى إذا ما أصبحت على بعد يوم واحد من المدينة ، تعرضت للإبادة على يد قوة متفوقة ، ومن نجا من المعركة شد على جمل ووجهه إلى ذيل الجمل وأخذ إلى منى حيث ضربت عنقه .

وكما مر بنا في فصل سابق ، أن لودفيكو دي فارثيما ، كان أول أوربي يصف لنا مكة وذلك في عام ١٥٠٣م وكان أول نصراني يصل إليها ، مع أنه من الصعب التأكد عن الرحالة الأوائل الذين سبقوه ، ففي عام ١٤٩٧م ، أخبر سفير ميلان في لندن الدوق سفورزا Sforza ، أنه قابل شخصاً يدعى جون كابوت John Cabot وكان إنساناً لطيف المعشر خبيراً بالبحر ، ويتباهى هذا الملاح القديم بإبحاره من برستول [في إنجلترا] ، متجهاً غرباً ، واكتشافه لجزيرة جديدة قرب الساحل الآسيوي ، والتي سماها نيوفوندلاند Newfoundland وضمها إلى ممتلكات هنري السابع[٤٨] ، وهذا [الاكتشاف] أقنع تقريباً السفير ، أن الدنيا كروية ، وقبل هذا الاكتشاف ، ادعى كابوت ، ان اهتمامه بتجارة التوابل ، قاده إلى زيارة مكة مرات عديدة ، حيث تفد إليها القوافل من كل أرجاء آسيا .

---

(٤٨) نيوفوندلاند : تابعة حالياً لكندا (المترجم) .

وهناك احتمال قوي أن بعض البحارة البرتغاليين ، قد وصلوا إلى مكة والمدينة في أثناء عصرهم التوسعي الكبير ، ففي حوالي عام ١٥٠٠م تحطمت سفينة [برتغالية على ساحل اليمن] وألقي القبض على ربانها واسمه جريجوري كوادرا G. da Quadra وسجن في خزان في زبيد بأمر من ملك اليمن [الذي وصفه بأنه] «شخص سيء الطالع» . وقضى كوادرا ثماني سنوات في السجن تعلم خلالها اللغة العربية ، ومضى كأنه عربي ولكي يكسب قوته قام بعمل القلنسوات (ربما هي أساس العمائم التي ما زال الناس يستعملونها حتى اليوم) ، وقد قامت ثورة أطاحت بالملك الذي سجنه وأخذه الملك الجديد ضمن أفراد حاشيته الذين صحبوه إلى الأراضي المقدسة ، وفي المدينة طغت على كوادرا مشاعره الدينية فأخذ يصيح بشتم الرسول [صلوات الله وسلامه عليه] ويتحداه أن يبين للناس أنه نصراني ، وتمنى أن يتحول هذا البيت إلى كنسية ككنسية السيدة العذراء في لشبونة ، فأخذت الناس الذين سمعوه الدهشة ، واقتنعوا أنه ولي ، ونافس أحدهم الآخر على دعوته إلى الغداء ، وعلى أية حال فإن كوادرا هرب ماشياً على قدميه إلى البصرة ، وأصبح بذلك أول أوربي يعبر صحراء النفود المخيفة ، واعتمد في غذائه على أكل الجراد وقد أحرقت الشمس جسده حتى إنه لم يستطع أن يضطجع ، فكان يحفر حفرة عميقة في الأرض ويقف في وسطها منتصباً حتى ينام ، وبينما هو على هذا الحال ، مرت عليه قافلة فأنقذته [وانتهى به المطاف إلى البرتغال] حيث قضى أيامه الأخيرة في دير للرهبان .

ومن التقارير التي وصلت إلى الغرب عن مكة ، ما نجده في كتاب تحت عنوان «مسح عام للعالم The World Surveyed» أو «الرحلات البحرية الشهيرة التي قام بها فنسنت لي بلانك Vincent Le Blanc» أو «الأبيض» من مرسيليا والذي بدأ رحلاته إلى معظم أنحاء العالم منذ أن كان عمره أربعة عشر عاماً حتى أصبح في الستين ، والكتاب مدعم بالوثائق التاريخية ، وقد نشر باللغة الإنجليزية في عام ١٦٦٠م ، وبما أنه أحد الكتب التاريخية الجديرة بالتصديق ، فإنه يحتوي على قصة ذلك الأمير الذي انقلب إلى قرد بارع في الجمال وسهل الانقياد ، بتأثير السحر الذي عملته له إمرأة أبيه ، ولعله من قبيل المجازفة أن نظن أن شخصية لي بلانك ، هي ما نجد في مواطنه تارتارين دي

تاراسكون ويؤكد لي بلانك أن السبب في قيامه بالرحلات المستمرة ، هو الهروب من زوجته التي يصفها أنها واحدة من أبغض النساء في العالم ، ويذكر كذلك ، قصة الأعرابي الذي تظاهر بالجنون ورمى بكمية كبيرة من الحشرات فوق قميص صديقه ثم سرق القميص بعد ما خلعه صاحبه لغسله ، ولكن الغريب أيضاً أنه ذكر أنه شاهد قطيعاً من الثيران في المسجد الحرام ، كانت تُستعمل لسحب الماء من بئر زمزم ، مع أن مثل هذا الشيء ، لم يذكره أحد مطلقاً .

وفي عام ١٦٤٣م ، زار مكة مطران كاثوليكي ، كان أبوه براهمانيا اعتنق المسيحية ، وقد ولد في مدينة غوا [بالهند] ، وأُعْطِي اللقب الديني في روما ، وكان اسمه ماثيو دي كاسترو Matheo de Castro وحين رجع هذا المطران إلى روما ، تخاصم مع زملائه ، وقرر عرض الموضوع على البابا شخصياً ، فسئل عن السبب الذي دعاه للمرور بمكة وكيف نجح في الوصول إليها ، أما عن رأيه فيها ، فقد بقي شيئاً مجهولاً .

وخلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، بدأت السفن البريطانية تمر بانتظام عبر البحر الأحمر متجنبة طريق رأس الرجاء الصالح بواسطة اتصالها مع السفن الأخرى التي ترسو على الموانيء المصرية في البحر الأبيض المتوسط . إن وصول هذه السفن إلى موانيء الأراضي المقدسة ، والذي كثيراً ما تم عن طريق الخطأ ، قد سبب ازعاجاً . وقد وجد آيلس إروين Eyles Irwin نفسه معتقلاً عندما كان على أول ظهر سفينة تدخل ميناء ينبع ، وذلك بأمر من حاكمها الهلع «لقد حذرنا الحاكم ، أن لا يقدم على أية إهانة للعلم البريطاني الذي أعطيت بشأن احترامه دروس لمعظم البرابرة» ولكن الحاكم أصر على اعتقاله ومن معه حتى تأتيه التعليمات من شريف مكة .

لقد اشتكى معظم الكتاب [الذين زاروا الحجاز] من شدة الحر ، وقليل من اهتدى منهم لحل المشكلة ، وأكثر هذه الحلول ذكاءً ما قام به الصحفي الشهير جيمز باكنجهام James Silk Buckingham الذي أبحر في شبكة معلقة على جانب السفينة «Dhow» كي يستطيع أن يغمس نفسه في الماء كلما شعر بالحر .

لقد ذكرنا في فصل سابق كيف أن علي بك زار مكة في عام ١٨٠٧م ثم بوركهارت في عام ١٨١٤م ، ولكن بين هذين التاريخين زار مكة مواطن روسي اسمه أولريخ جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Ceetzen وقيل عنه إنه يتفوق بكفاءته العلمية على كل الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية على الاطلاق ، فهو لغوي بارع وعلامة في كل علم ، ففي عام ١٨٠٢م وبدعم من القيصر ، شد سيتزن الرحال إلى الشرق وعاش مدة سبع سنوات متجولاً من مكان إلى آخر كشحاذ ، قبل أن يشعر بالثقة التامة ليخاطر بالذهاب إلى الحج ، وكان هدفه فيما يعتقد ، أن يحصل على لقب حاج ، والذي سيفيده في القيام بمهمته في أفريقيا أو البلاد الإسلامية في وسط آسيا ، لصالح المخابرات الروسية ، وقد نجح سيتزن [في الحصول على لقب حاج] بعد أن مر ببعض الصعوبات منها امتحان عسير في المسائل الدينية ، وعندئذ انتحل اسم الدكتور الحاج موسى وسافر إلى اليمن ، وكانت خطته أن يقطع شبه الجزيرة العربية إلى مسقط ثم إلى البصرة ومن هناك يتجه إلى أواسط آسيا وكانت قافلته الكبيرة من الجمال ، قد أثارت الطمع فيه ، كما أن أبحاثه في المعادن والنبات ، قد أثارت الشبهات حول كونه ساحراً ، أو أنه يحتفظ بسر كنز مدفون ، وفي أواخر عام ١٨١٠م قتل سيتزن في اليمن ، وبما أن المشاهدات والملاحظات التي كتبها قد أختفت معه ، فإن التاريخ لم يعطه حقه كاملاً في الاعتراف بإنجازاته كما ينبغي .

لقد مر بنا أنه في عام ١٨١١م غزت قوات محمد علي ، باشا مصر الجزيرة العربية بهدف القضاء على البيت السعودي ، وقد صاحب هذه القوات عدد من الأوربيين بمختلف القدرات العقلية ولكن قليلاً منهم من استطاع أن يحرز المكانة التي أحرزها شاب أسكتلندي صغير يعمل طبالاً في الجيش ، اسمه توماس كيث الذي تغير إلى إبراهيم أغا وأصبح والي المدينة وكان هناك جندي آخر اسمه جيوفاني فيناتي Giovanni Finati من مدينة فرارا Ferrara [شمال إيطاليا] ، سبق أن درب ليعمل في الكنيسة وقد استدعي للخدمة في القوات النابليونية ، وقد هرب من الخدمة العسكرية ثلاث مرات كان آخرها عندما كان في البلقان ، حيث التجأ مع بعض رفاقه ومنهم زوجة ضابط الفرقة ، إلى

الأتراك ، وقد أسلم فيناتي وعين حاملاً للمزمار عند أحد قادة الأتراك العسكريين ، إلا أنه أغرى زوجة رئيسه ، فاضطر إلى الهرب مرة أخرى وسافر إلى مصر وانخرط في الجيش المصري ، وكان يؤدي واجب الخدمة أثناء مذبحة المماليك إلا أنه كان منشغلاً فيما يبدو بسرقة سرج جميل ، بل وأجمل منه ، سرقة جارية حسناء ، بعد ذلك أرسل إلى الجزيرة العربية ، ولكنه عزم على الهرب بعد أن اشترك في معركتين ضاريتين خسر فيهما جانبه ، وادعى أن هروبه كان بهدف إطلاع الباشا على عدم كفاءة قادته العسكريين ، وقد ساعده على الهرب جماعة مسالمة من البدو ، وهكذا وصل فيناتي إلى مكة التي وصفها بأنها لا هي مدينة كبيرة ولا هي بالمدينة الجميلة في حد ذاتها ، ولكنها تنم عن عظمة لا يمكن وصفها .

وقف فيناتي لمدة ستة أيام تقريباً خارج بيت كان يسكن فيه محمد علي ، وفي يده عريضة يطلب فيها مقابلة الباشا وأخيراً سمح له بالمقابلة واستقبله الباشا ، استقبالاً حسناً ، ثم بعد أن اشترك في معركتين ، انتصر فيهما جانبه ، أصيب فيناتي بالطاعون فرحّل إلى مصر وهناك استغل فرصة تمرد قام به الجند فسرق صندوقاً خشبياً كبيراً ولكن عند فتحه وجده يحتوي على مجموعة من الأواني الفخارية الرخيصة التي لا تفي قيمتها بدفع أجرة الحمالين الذين اشتغلوا وكلهم متفائلون معه ، وعلى كل حال ، فإن نهاية قصة فيناتي كانت سعيدة ، فقد التحق مع وليام بانكس William Bankes وهو إنجليزي ثري ، له ولع بالفنون ، وقد رافقه فيناتي كمترجم له في رحلته إلى بلاد النوبة وفلسطين وسوريا ، بعدها وصل فيناتي إلى بريطانيا حيث سعد فيها بنمط الحياة البسيطة عند القرويين في مقاطعة ويلز ، إن قصة تشرد فيناتي الشيقة ، تكونّ اتفاقاً متبايناً عند أولئك العلماء من ذوي الميول الدينية ، أو عند أولئك المتحمسين الذين زاروا مكة أيضاً .

وهناك شخصية لها شهرة كبيرة ، اشتغل صاحبها كطبيب في جيوش محمد علي ، وهو موريس تاميزير Maurice Tamisier ، الذي أبحر في نهاية عام ١٨٣٣م إلى جدة ، وكانت رحلة بحرية عاصفة ، اتسم تاميزير خلالها بالشهامة ، وذلك عندما تدخل في

المشكلة التي أقسم فيها أحد رفاقه في السفر ، بطلاق زوجته التي قاءت لتوها على طعامه وعلى لحيته ، بسبب إصابتها بدوار البحر ، وكان من بين رفاقه ، مجموعة من الأوربيين ، من ضمنهم ساحر ، أدهش البدو بألعابه السحرية ، ومغن لم تنل مواهبه سوى قدر بسيط من الاعجاب . ومن جدة اتجه تاميزير إلى جبال عسير في جنوب الحجاز حيث اشترك هناك في معركة ، كوفىء فيها الجنود المصريون بعشرة شلنات ، مقابل كل أذنين مقطوعتين من الأعداء ومن الواضح أن تاميزير قد استمتع بالتحدث مع الناس ، وقد سجل بعض قصصهم التي سمع منها مثلاً ، أن للبقرة العربية سنام لأن النبي كان متعباً ذات مرة ، فركب عليها ، وعندئذ ظهر لها هذا السنام لتجعل ركوبها مريحاً للمتعود على ركوب الجمل وكتب تاميزير ، عن العلاقة التي تربط البدوي بجمله ومن ضمنها أن البدوي يشدو لجمله ليلاً في الهواء الطلق ، بأحلى الأناشيد وأجمل الألحان وقد يشدو له حتى بألحان الحب والحنان الجياشة التي يتفاعل جمله معها بسرور ، أما إذا غضب البدوي ، فسرعان ما يبدأ بسب جمله وقد يذهب بعيداً في شتمه فيتهمه بأنه نصراني وهي شتيمة تحط من قدر هذا الحيوان المسكين .

ومن أغرب الشخصيات التي زارت مكة ، شخص فرنسي اسمه ليون روتشس Leon Roches ، فبعد انتهائه من دراسة القانون ، سافر إلى الجزائر المستعمرة الجديدة ، وكان من أوائل المستوطنين الفرنسيين فيها ، وهناك ، وهو في بداية العشرين من عمره ، وقع في حب فتاة عربية عمرها أربع عشرة سنة والتي لا يستطيع أهلها حتى مجرد التفكير بتزويجها من نصراني ، وقد رآها ولكن ست مرات وكانت فقط ، مرة واحدة التي رآها على انفراد ومع ذلك فقد سيطر هذا الحب على حياته . حاول روتشس خلق وفاق بين الغزاة الفرنسيين وبين الأمير البطل عبدالقادر قائد المقاومة ولهذا فقد تظاهر بالإسلام ، وعمل في خدمة الأمير عبدالقادر ، وأصبح واحداً من مستشاريه المقربين ، وقام بعدة مهام وسفرات محفوفة بالمخاطر ، وفي احدى السفرات علم بأن فتاته خديجة قد ماتت وقال إنها ماتت بسبب حبه ، ولا يتمنى الآن لنفسه سوى الموت ، وبينما هو على هذه الحال من الحزن والاكتئاب ، إذا بنار الحرب تشتعل مرة أخرى ، وشعر أنه لا يستطيع

حمل السلاح ضد مواطنيه الفرنسيين ، وأخبر الأمير عبدالقادر بكل وقاحة ، أنه ليس مسلماً . ومن المعروف أن عقاب المرتد عن الإسلام ، هو الموت ولكن عبدالقادر عندما رأى أنه ما من أحد غيره قد سمع حينذاك بهذا الأمر المشين ، لم يقل له سوى : «إذهب ، إنني أترك حسابك على الله وعليك أن تتوارى عن بصري» .

وقرر روتشس المخاطرة بحياته للقيام بمحاولة يستطيع من خلالها أن يقارب بين الفرنسيين والعرب في الجزائر ، فرأى أن أحسن وسيلة لتحقيق ذلك هو الحصول على فتوى من أعلى الهيئات الإسلامية تبيح للمسلمين العيش في ظل الاحتلال النصراني وبالتالي فإنه لا يجب عليهم أن يضحوا بأرواحهم في سبيل محاربة قوات الاحتلال ، ولتحقيق غرضه هذا ، سافر روتشس إلى تونس أولاً ثم إلى القاهرة وأخيراً إلى مكة التي وصلها في ديسمبر ١٨٤١م .

وبالرغم من تمكنه من اللغة العربية ، إلا أنه قرر أن يعلن عن نفسه أنه أوربي دخل في الدين الاسلامي ، ولحسن حظه أنه التقى برجل جزائري مرموق ، يحمل شهادة الدكتوراة في القانون ، واتفق الرجلان على أن يتشاركا في مصاريف الرحلة ، وقد أمضى روتشس ثلاثة أيام في المدينة ، حيث أعجب بمسجد الرسول ﷺ ، بفوانيسه المضيئة في الليل التي كشفت عن بهاء سجاده الجميل ، والكتابات المذهبة على الجدران ، وبعد قضاء أسبوعين في مكة سافر روتشس إلى الطائف لمقابلة الشريف ، وبدافع من شعوره كزعيم سياسي لا كزعيم ديني ، فقد اهتم الشريف به لكونه عميلاً سياسياً لفرنسا أكثر من مسألة كونه مسلماً حقيقياً أم لا ، وبعد أن أنهى مهمته على وجه مرضٍ ، رجع روتشس إلى مكة لأداء شعائر الحج ، وقد شعر بميل قوي نحو الإسلام ، غير أنه ما زال مقتنعاً أنه لا يمكن أن يكون أي شيء إلا نصرانياً .

وعندما كان روتشس في طريقه لأداء أهم مناسك الحج - الوقوف على جبل عرفات - إذا به فجأة يلتقي بشخصين جزائرين سبق له أن أمر بحبسهما عندما كان

مسئولاً حكومياً ، وقد سلما عليه بكل أدب لكنه أحس كما لو أنه وطىء على ثعبان سام وقد عمل جاهداً على إخفاء نفسه ليضيع في الزحمة الكبيرة بين ستين ألف حاج ، وفجأة سمع صوت رجل يصيح : «هناك نصراني .. أمسكوا الكافر بن الكافر» ، فأحس بأن نهايته قد حانت حيث هجم عليه جماعة من الناس ، فمسكوه وقيدوه ثم وضعوه على جمل ، ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن معتقليه ما هم إلا جنود بعثهم الشريف لإنقاذ مبعوث فرنسا وتخليصه من غضب الجماهير التي لابد أنها ستقضي عليه ويبدو أن حراسه قد حطموا رقماً قياسياً في الوصول به إلى جدة في أقل من ست ساعات وهناك صادروا مركباً بحرياً لينقله إلى خارج البلاد .

وبعد ثلاثة أشهر من الحج ، قضى روتشس عيد الفصح في روما ثم زار على وجه السرعة ضريح القديس بطرس ، عاقداً العزم على أن يصير قسيساً ، إلا أنه أقنع أخيراً بتغيير رأيه فرجع إلى الجزائر وانتهى به المطاف كسفير لدى اليابان .

بعد ذلك بعشرين عاماً تقريباً دخل مكة نصراني آخر وحصل له تقريباً من الرعب كما حصل لروتشس ، ففي عام ١٨٦٠م كان البارون مالتزن Baron H. Von Maltzan – وكان عمره أربعة وثلاثين عاماً – قد قضى عشر سنوات متنقلاً في البلاد العربية ، وكان من بين أصدقائه رجل جزائري مدمن جداً على تعاطي الحشيش ، ومقابل تزويده بالحشيش لمدة ستة أشهر ، سمح هذا الرجل لمالتزن ، أن يستخدم اسمه على جواز سفر يسافر به إلى مكة لأداء الحج .

وبصرف النظر عن ليلته الأولى في جدة ، فقد وجد مالتزن فندقاً ، بدا له أنه بسعر رخيص لا يصدق ، حتى اكتشف أنه مجاور لدير يولول فيه الدراويش [المتصوفون] ويصرخون طوال الليل . وقد وصل مالتزن إلى مكة بسلام ، ولم تترك مكة عنده أي انطباع ، فكان في الحقيقة منزعجاً واعتبر شعائر العبادة شيئاً مملاً ، بل هي نوع من الجنون ، كما قارن المسجد الحرام بقلعة الشياطين ، وبعد أن رجع مالتزن من

عرفات مباشرة ، سمع رجلين جزائرين يتناقشان في أمره وأنتهيا إلى أنه نصراني متنكر وعلى الفور هرب من مكة على وجه السرعة كما فعل روتشس من قبل ، وما أن وصل إلى صاحبه الجزائري المدمن على الحشيش ، حتى أعاد له جواز سفره وعليه تأشيرة الدخول إلى الأراضي المقدسة ، وقد كان هذا الحشاش خلال بقية أيامه ، متاكداً أنه قد أدى فريضة الحج بنفسه ولكنه طوال أيام حياته لا يتذكر أي شيء من تفاصيل هذا الحج .

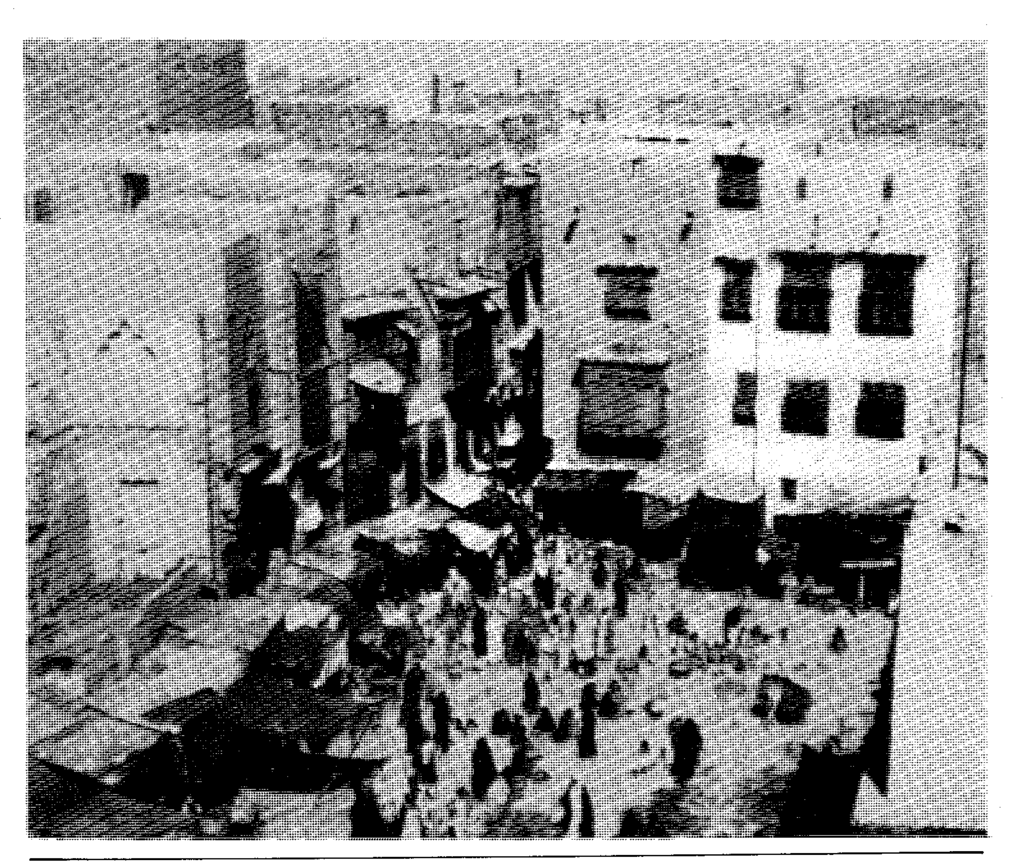
في الخامس والعشرين من أغسطس ١٨٦٢م ، ظهرت في جريدة التايمز رسالة بعنوان «الحج إلى مكة» وموقعة من قبل الحاج محمد عبدالواحد من «نورود Norwood» ، وفي الحقيقة أن هذا الشخص لم يكن غير الدكتور هيرمان بكنيل Herman Bicknell وكان جراحاً في مستشفى «سانت بارثولوميو» [في لندن] ، وقبل رحلته إلى الجزيرة العربية كان قد ترحل في جاوه والتبت وجبال الهملايا ، وكان على يقين ، أنه من صالح الامبراطورية البريطانية ، أن تكون لدى أكبر عدد من الإنجليز معرفة بالإسلام ، والتي سوف تأتي عن طريق الحج ، ولهذا فقد تظاهر بكنيل على أنه بريطاني اعتنق الإسلام ، وبقي مرتدياً ملابسه الأوربية طوال معظم الرحلة ، مع أنها لا تلائم جو البحر الأحمر ، وبالرغم من أن المسجد الحرام ، ذكره فقط بالقصر الملكي في باريس ، فقد قام بكنيل بأداء شعائر الحج ، إلا أنه أعفى نفسه من الذهاب إلى المدينة لشدة الحر وقد ختم رحلته بتزكية دليله في مكة فوصفه بأنه كريم وذو أخلاق طيبة وقال إنه قد وعده بمعاملة الإنجليز الآخرين بنفس المعاملة الكريمة التي لقيها منه وقد لمس بكنيل ، أن الزوار السابقين قد خلقوا صعوبات لأنفسهم بعمل أشياء غير ضرورية وذلك بذهابهم إلى هناك متنكرين مع أنه لابد أن يكون الشخص مسلماً ولو بالمظهر على الأقل ، وأن يحمل أسماً عربياً . وبعد رجوعه ، اكتشف بكنيل جبال الأنديز والقطب الشمالي ثم توفي في بداية الأربعين من عمره إثر حادث في «ماترهورن Matterhorn»[٤٩] .

---

(٤٩) ماترهورن : جبال على الحدود بين إيطاليا وسويسرا ضمن مرتفعات الألب (المترجم) .

المدينة : ساحة في المدينة(*)

(*) برحة باب الرحمة الواقع عند الركن في أقصى اليمين ويظهر في الركن الثاني في أقصى اليسار المدخل المؤدي إلى حوش الجمال وسوق الساحة وقد أزيلت هذه البرحة وما حولها في سبيل التوسعة السعودية الثانية للمسجد النبوي (المترجم) .



بعد خمس عشرة سنة من زيارة بكنيل لمكة دخلها رجل إنجليزي آخر اسمه جون كين John Fryer Keane وهو ابن لأحد القساوسة ، وقد هرب إلى البحر عندما كان في الثانية عشرة من عمره ، وقضى معظم التسع سنوات التالية ، بين المسلمين حيث كان يعمل بصفة رئيسه ضابطاً بحرياً في سفن كان بحارتها من الهنود . وقد وصل كين إلى جدة وانضم لحاشية أمير هندي وبقى في مكة لمدة ستة أسابيع ، شعر فيها كأنه في بلده تماماً كما لو أنه عاش هناك طوال حياته ، وقال إن بشرته الشقراء لم تثر تعليق الآخرين ، وذلك لأن الزوار ، كما قال ، من جنسيات مختلفة جداً ، كما لو كانوا شخصيات «مدام

توسو» [متحف الشمع في لندن] قد خرجوا يمشون وحتى منظر رئيس أساقفة «كانتربري» ، لو كان هناك بقبعته المميزة ، فإنه لن يثير حقيقة ، أي تعليق ، وقد تجول كين في أنحاء مكة بحرية ، وشاهد من خلال نافذة تطل على مدرسة أن تلاميذها يجلدون على أقدامهم في مجموعات ؛ تضم كل مجموعة ، خمسة تلاميذ وتحدث مع سيدة مسلمة ، وكانت هي الآنسة ماكنتوش Mcintosh [إنجليزية] التي أخذت أسيرة خلال التمرّد الهندي ، وقد أعجب كين بإيمان الحجاج وتعلقهم الشديد بدينهم ، إلا أنه اشتكى من الأهالي وقال ، إنهم شحاذون ويطلبون البخشيش بسبب وبغير سبب ، وقد زاد بغضه لهم ، أنه في أحد الأيام وبينما كان خارجاً يتمشى في هيئة رجل شرقي أنيق مرتدياً ملابس بيضاء ناصعة وعلى رأسه عمامة كبيرة ، إذا بطفل يصيح عليه وبدون سبب واضح: «أنظروا إلى هذا النصراني» ، فما كان من أحد المتسولين إلاّ أن قام يطالبه ، بالإفصاح عن عقيدته ، مؤملاً ، الحصول منه على شيء فأمسك به كين من كتفيه ودار به ثم رفسه بقسوة ، وأدرك كين أنه لا يستطيع أن يتمادى بتصرف غير إسلامي وبدأت مجموعة من الناس برميه بالحجارة فخطف طفلاً ليحتمي به ثم أسرع إلى مركز للشرطة ، وهناك ادعى أنه مسلم وقد أقنعت فصاحته في شرح ما وقع له من بلاء ، المسئولين الذين حموه حتى رجع إلى محل إقامته .

ولم تنته مشاكل كين عند هذا الحد ، فقد واصل سفره إلى المدينة ، وفي الطريق وبينما كان يتهيأ لتناول طعامه اللذيذ جاءه بدوي كان قد انتهى لتوه من معاناة مع جمله الهائج ، وبعد أن مسح يديه على قطعة بساط من الشعر كريه الرائحة ، غمس يده التي تعافها النفس ، وسط طعام الإنجليزي ، وبغضب جنوني رمى كين الصحن على البدوي ، ودفعه بعنف فسقط البدوي على الأرض . وبعد لحظة قصيرة زحف هذا البدوي خلسة ، على كين وغرس بشدة رمحاً في رجله ، وكاد النزيف أن يقضي على حياته وهو في مكانه ، وقبل أن يفقد وعيه كلية شاهد ثلاثة من الطيور الجارحة تحوم حوله ، وعلى أية حال ، قام حكيم من السكان المحليين بوضع قطن على الجرح ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كين قادراً على السير إلى المدينة التي ذكرته عندما رآها لأول

وهلة بمدينة القسطنطينية في جمالها ، إلا أنه ، مثل بيرتون ، بعد ما اطلع أكثر وجد مسجد الرسول ﷺ مبهرجاً بطريقة لا تنم عن ذوق سليم .

وبعد رجوعه إلى بريطانيا ، كتب كين في سيرته الذاتية : «لقد قمت بهذه المخاطرة المخيفة ، بالحج إلى مكة لغرض واحد لا يتحقق إلا بالقيام بعمل يجعل اسمي معروفاً بأنني رحالة مقتدر وهذا يضعني جيداً في موضع الثقة للحصول على المساعدات التي سوف احتاج إليها لتنفيذ خطة – بقيت في ذهني من زمن – في بابوا»[٥٠] ، وليس من الواضح عما إذا تمكن كين من تحقيق طموحه هذا أم لا ، ولكنه في خلال السنوات القليلة التالية لذلك ، كان قد سجن في البرازيل ، وأصدر جريدة في شنغهاي ، واشتغل في السكك الحديدية في الهند ، وعمل منقباً عن المعادن في بورما ، ثم عاش متسكعاً في إنجلترا وآخر ما وصلنا من أخباره أنه كان يعمل في حصاد قصب السكر في كوينزلاند Queensland وتعتبر مؤلفات كين حيوية ومليئة بالصيغ اللغوية : إنه ليس من الصعب أن تتخيل جمال السيدة التي يشبه وجهها «ثلاث ركلات في جدار من الطين» .

ليس هناك أحد من النصارى الذين أقاموا بمكة من يعرفها ، كما يعرفها الرحالة الهولندي ، كرستيان سنوك هرغرونجه Hurgronje ، فقد قضى فيها أكثر من ستة أشهر في عام ١٨٨٥م وذلك بعد أن سكن لمدة خمسة أشهر في جدة ، وكان هرغرونجه من الباحثين في اللغات السامية وكان موضوع أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراة ؛ عن أصول الحج ثم أصبح محاضراً في معهد الدراسات الإسلامية ، في الكلية التي تقوم بتدريب المسئولين الهولنديين في جزر الهند الشرقية ، حيث يؤلف المسلمون الغالبية العظمى من السكان ، وكان يعتقد أنه من المهم دراسة العوامل المؤثرة على الجاويين في مكة ، ودراسة سلوكهم وعاداتهم المبنية على الدين ، وكانت الطريقة التي استعملها هرغرونجه في استقصاء المعلومات ، هي أنه تزوج بسيدة من أهل البلدة (يبدو أنه استعمل هذه الطريقة في بحثه ، في أماكن أخرى) ، وقد جلبت له زوجته معلومات

---

(٥٠) جزيرة في المحيط الهادي (المترجم) .

كثيرة كان من المستحيل عليه معرفتها ، لدرجة أنه تمكن من وصف عروس من مكة ، بل وحتى الحصول على صورة لها ، وهي مرتدية ثياب العزس ، وقد بدا غطاء رأسها شبيهاً تماماً بدكان للحلي والجواهر ، مليئاً بدبابيس الزينة ، أما ثوبها ، فكان ملبداً بالحرير ومرصعاً بكثير من الحلي والزخارف حتى تكاد المسكينة لا تقوى على الحركة . كما تعلم أيضاً كيف تعالج الأم طفلها المريض ، وذلك بوضع سبعة أرغفة من الخبز تحت وسادته ، بعد ذلك تعطي الأرغفة إلى الكلاب ، وهو علاج قلما أثبت نجاحه .

وقد قام هرغرونجه بدراسة مفصلة لظاهرة «الزار» التي وجدها هناك ، ضرورة من ضرورات الحياة لمعظم السيدات كالتبغ أو الذهب ، أو التطريز الذهبي لسراويلهن ، وكثير منهن استعملن «الزار» كوسيلة للحصول على ثياب أو مجوهرات جديدة ، فتلبية طلب المصابة بالزار ، شيء أساسي لصحوتها منه وقد لوحظ أن إقامة الحفلات هذه ذات العلاقة بالأرواح الشريرة ، ما هي إلا للمرح ، وكان لهروغرونجه ، صديق طبيب أخبرته زوجته ، أنها بحاجة إلى الزار مثل غيرها من النساء ، فادعى أنه قد راجع كتاباً جديداً واكتشف أن أحسن علاج ، هو الكي بحديدة حارة جداً ، وسرعان ما شعرت زوجته بتحسن كامل في صحتها .

لا نعرف الفترة التي أراد سنوك هرغرونجه أن يمكثها في مكة ، إلا أنه من خلال أمور لا ذنب له فيها ، أصبح متورطاً في المكائد الدولية ، حول موضوع حجر تيماء (أنظر ص ١٣٩) ، فأصبح هدف الفرنسيين إبعاده ، ولذلك فقد أفشى قنصلهم [في جدة] ، سر وجوده في مكة ، فاضطر هرغرونجه إلى تركها على عجل ، ومع هذا فقد بقي أحد الخبراء الكبار في العالم عن الإسلام .

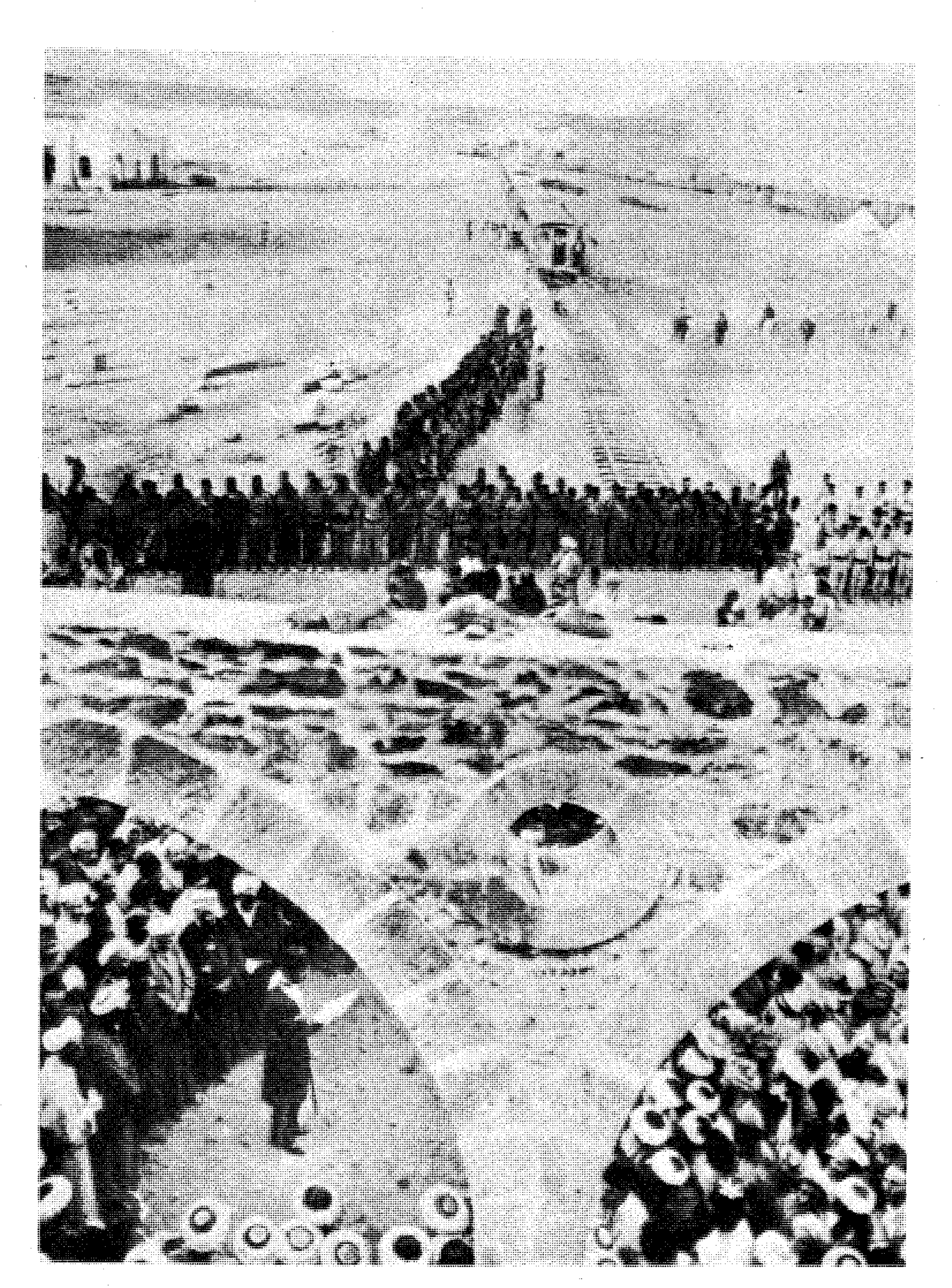
في عام ١٨٩٤م تلا روتشس في زيارة مكة ، فرنسي آخر من الجزائر ، اسمه جرفي كورتيلمونت Gervais Courtellmont وهو مصور محترف ، وقد شجعه أصدقاؤه المسلمون على الذهاب إلى مكة ، لكي يتعرف أكثر على سلوكهم وعاداتهم ، وذلك



جولس جرفي كورتلمونت (١٨٦٣ - ١٩٣١م) ، كان رائداً في التصوير الصحفي وبصرف النظر عن زيارته إلى مكة في عام ١٨٩٤م ، فقد ترحل كثيراً في الصين وكان مسافراً على أول قطار إلى المدينة وقد التقط صورة لتدشين سكة حديد الحجاز في عام ١٩٠٨م .
الصورة المقابلة

حسب تصورهم ، وقد كتب يقول : «إنني أحب الإسلام لبساطة عقيدته وتعجبني أهدافه التي لا تتزعزع ، دون أن أملك الجرأة للاعتقاد به». ولم يواجه كورتيلمونت صعوبات تذكر حتى في أخذه للصور الفوتوغرافية ، مدعياً بأن أداة التصوير التي يستعملها ما هي إلا منظار ، وقد قال له دليله : «إنني أعرف أنك تسميها كمِرَه ، وذلك أنني رأيت السائحين مراراً يستخدمونها في طنجه» وقد ورد في كتابه قصة أبعرة «الفانتوم» أو أشباح الجمال التي تصل إلى مكة في كل ليلة ، ومفاد القصة : إنه من المؤكد أن كل من دفن في المدينة المقدسة سيذهب إلى الجنة في يوم القيامة ، أما أولئك الظالمون الذين لا يستحقون فإنهم ينقلون بعيداً على هذه الجمال ليحل محلهم من يستحق من كل أطراف الأرض ، من المغرب أو تركستان ، ويقول أيضاً ، إنه وجد صعوبة في شراء المجوهرات ، فكل قطعة تباع في السوق لابد من عرضها على شيخ الصاغة ليقر سعرها ، وذلك بعد وزنها ، والوزن يتقرر نسبة إلى وزن عدد من نوى التمر ، وحب الفول ، كما وصف نوعاً خاصاً من المحابس الفضية التي لا يمكن شراؤها إلا من مكة ، ولو لبسه شخص لم يسبق له أداء فريضة الحج ، فإنه يكون كمن ظهر بلون مدرسة لا ينتمي إليها .

وفي خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، زار مكة ثلاثة رجال إنجليز ، إثنان منهم كانا مسلمين حقاً وقضيا معظم حياتهما يدينان بالإسلام ، والثالث



كان ضابطاً مغامراً ذهب متنكراً ومتظاهراً بالإسلام . كان أول هؤلاء الأشخاص ، حسب الترتيب التاريخي ، الحاج عبدالله وليامسون Williamson ، وقد حج حجته الأولى في حوالي عام ١٨٩٥م .

تبدأ قصة وليامسون بهروبه إلى البحر ، كما فعل كين من قبله ، وبعد ذلك قام بسلسلة من المغامرات ، فعمل في مناجم الذهب في كليفورنيا ، وفي صيد الحوت في المنطقة المتجمدة الشمالية وانضم إلى جماعة من المتمردين في الفلبين ، وبينما كان يعمل شرطياً في عدن ، في العشر الأواخر من القرن الماضي ، اعتنق الإسلام ، وقد شُجِّع على الاستقرار في محل آخر ، وفي خلال العشرين عاماً التي تلت مغادرته عدن ، استقر وليامسون قرب البصرة ، وقد اندهش الأهالي لركوبه الدراجة الهوائية القديمة ، كما روعهم باستعمال الحاكي [صندوق الغناء] ، حتى كادوا أن يفقدوا صوابهم ، معتقدين دون شك ، أن الحاكي هذا ، ما هو إلا صندوق للشياطين . وقد اشترك وليامسون عدة مرات في الغزو مع البدو واكتسب شهرة كبيرة لخبرته في معرفة لحم الجمل ، وكنوع من التغيير اشترى مركباً شراعياً ، استعمله بالتأكيد في صيد اللؤلؤ ، وربما في تهريب الأسلحة والذخيرة ومن المحتمل أنه استعمله في تجارة الرقيق . وبعد فترة ، عمل فيها مع البريطانيين بعد احتلالهم للعراق ، اختتم ، باحترام مقبول ، حياته العملية المتنوعة ، بالعمل مترجماً ومستكشفاً لصالح ما يعرف الآن بشركة النفط البريطانية .

أما الشخص الثاني ، فكان اسمه هيدلي تشيرشوورد Headly Churchward الذي كتب مذكراته تحت عنوان جميل «من دروري لين إلى مكة From Drury Lane to Mecca» ، وعمل هذا الشخص في العقد التاسع من القرن الماضي مصمماً للمسارح فجهز الستائر الخلفية لكل من ليلي لانجتري وهنري ايرفنج ، وقد كسب بسبب مهارته دعوات إلى ساندرنجام Sandringham ، ليقوم بتصميم أزياء لمسرحيات ملكية ، وكان رئيس الفرقة الفنية في حفل افتتاح قناة مانشستر للسفن Manchester Ship Canal ، وقد أدت به ، زيارته إلى المغرب إلى اعتناقه الإسلام ، ثم ذهب إلى القاهرة واستقر فيها مع

زوجته المصرية وبدأ دراسة العلوم الإسلامية في الأزهر ، تلك الجامعة التي بلغ عمرها ألف سنة والتي تعتبر أعظم مركز فكري إسلامي ، وقد أعلنت الجهات الشرعية هناك صحة إسلامه ، ثم قام بأداء الحج في عام ١٩١٠م وقال بأن تكاليف الحج حينذاك ، ومن ضمنها البقاء في مكة لمدة خمسة أشهر ، تبلغ ٤٠٠ جنيه إسترليني .

أما ضابط الجيش ، فقد زار مكة قبل تشيرشوورد بسنتين ، واسمه آرثر وافل Wavell ، وهو قريب الرجل الذي أصبح فيما بعد الفيلد مارشال وزميله في المدرسة ، وقد بدأ وافل خدمته العسكرية كملازم أول في حرب البوير [في جنوب أفريقيا] وبقي هناك في المسح العسكري ، وقد مضت عليه فترة ١٨ شهراً دون أن يرى شخصاً أوربياً ، وفي عام ١٩٠٦م بدأ في مشروع زراعة السيزال في كينيا[٥١] ، وهناك تعلم اللغة السواحيلية وتعرف على كثير من الأهالي المسلمين واصطحب أحدهم معه إلى مكة ، وقد كتب يقول بأن الغرض من زيارته مكة هو حب الاستطلاع وتعلم طبائع العرب والحصول على لقب «حاج» ليؤهل نفسه لاكتشاف المناطق المجهولة من الجزيرة العربية .

واشترى وافل تذكرة قطار للدرجة الثالثة من دمشق إلى المدينة بسعر ثلاثة جنيهات إسترليني ونصف وقد بقي في المدينة لمدة ثلاثة أسابيع وكانت خالية من الحوادث ما عدا إطلاق الرصاص في بعض الأحيان على الحامية التركية من قبل بعض الناقمين من البدو ، وفي مكة استأجر بيتاً بسعر سبعة جنيهات إسترليني في الشهر ، وذكر في كتابه أنه إذا أراد أي شخص أوربي زيارة مكة ، فما عليه إلاّ أن يدخل البلاد متنكراً وملماً ببعض المعلومات عن الإسلام ، وأن يتصرف تصرفاً حسناً ومقبولاً بين الأهالي ، فإن فعل ذلك فلا خطر عليه .

وبعد سنتين من زيارته مكة ، تعرض وافل لخطر جسيم ، حينما ذهب إلى اليمن ، وذلك أنه عندما كان في الحديدة منعته السلطات التركية من السفر إلى صنعاء لعدم

---

(٥١) السيزال : ليف أبيض متين تتخذ منه الحبال (المورد ، ص ٨٥٨) – المترجم .

استتباب الأمن ولكنه استطاع أن يتسلل سراً ، ولم تكن السلطات التركية على خطأ عندما شكت في زيارة هذا الرجل الإنجليزي ، فبعد أيام قلائل من وصوله ، طوقت العاصمة اليمنية بقوات عربية مسلحة بمدافع وأسلحة حديثة ، فوضعت القوات التركية وافل تحت الحراسة المشددة ، وهي على يقين بأنه جاسوس ، وبعد أربعة أشهر انفك الحصار عن المدينة ، وحالما تم ذلك ، قرر الأتراك إرساله إلى الساحل تحت الحراسة ، ولما كان عازماً على زيارة مناطق أخرى من اليمن ، فقد اتفق وافل على كل حال ، مع أحد قطاع الطرق المتمرسين ليأخذه إلى مأرب ، وقد ارتدى درعاً تحت ملابسه ، وهرب من صنعاء ولكنه لم يجد ذلك الشخص في المكان المتفق عليه ، وألقي القبض على وافل وسيق إلى قصر الحاكم متبوعاً بزمرة من العوام الذين توقعوا دعوتهم بعد وقت قصير ، لمشاهدة تنفيذ الإعدام بحقه علناً ، غير أنه بعد أن سجن لفترة قصيرة ، أفرج عنه وطرد من اليمن ، فرجع وافل إلى كينيا في خريف ١٩١٤م ، وقام بتنظيم قوة من السقائين العرب ، لعبت دوراً هاماً في صد الهجوم الألماني على ميناء مومبسّا، وفي يناير ١٩١٦م ، قتل وافل في معركة مسلحة في شرق أفريقيا .

ومع بداية القرن العشرين ازدادت معرفة الأوربيين عن الحجاز ، فقد أنهى المهندسون مسح عدة أجزاء لصالح مشروع سكة حديد الحجاز ، ووجد بعض الباحثين طريقهم إلى خرائب مدائن صالح ، وفي عام ١٩٠٩م تجول في الجزيرة العربية رجل [إنجليزي] اسمه دوجلاس كاروثرز Carruthers وهو متخصص في علم الطبيعة وكان قد زار كلاً من الكونغو وتركستان ثم زار فيما بعد منغوليا ، وكانت جولته هذه في سبيل البحث عن حيوان المارية العربي ، هذا الضبي الجميل ذو اللون الأبيض الذي يقارب في حجمه حجم البقرة والذي يوشك على الانقراض ، كما انقرض من قبله الحمار الوحشي والنعام بعد أن كانا يعيشان في هذه المناطق ، وبعد عدة أسابيع من الصيد استطاع كاروثرز أن يصيد إثنين منهما وجاء بجلديهما ، ولقد تمتع كاروثرز بصحبة البدو ، واعتقد بأنهم أعجبوا به أيضاً ، وقال إنه بالرغم من أننا نجد البدوي رجلاً صعب المراس ، إلاّ أنه سرعان ما يُبدي إعجابه بالـ «صاحب» .

وقد تعرض كاروثرز مرة للخطر ، عندما شن جماعة من الفرسان ، غارة عليه [وعلى رفاقه] ، وقد وصفهم بأنهم نصف عراة وكانوا راكبين صهوات جيادهم العارية ومسلحين بالرماح والبنادق وقد جاءوا كالعاصفة فأخذوه أسيراً وبعد فترة من التوتر التي ظن فيها بأنهم يسلبونه حتى سرواله ، وجلدا الماريتين وهما أثمن شيء لديه ، نجح أصحابه في ضمان إطلاق سراحه ، ومثل غيره من الرحالة فقد ظن كاروثرز ، أن صحراء النفود كانت أجمل ظاهرة طبيعية رآها في حياته فكتب يقول : «أما لون الرمل ، فيتغير من قرمزي تحت شمس الصباح الباكر إلى أبيض تحت شمس الظهر الساطعة ، وفي الأصيل تجده يتغير إلى لون أحمر خافت كالقماش المخملي ، ولكننا لو نظرنا إلى الرمل عن قرب لوجدناه ذا لونين أحمر وأصفر مكوناً مزيجاً لا يمكن وصفه .

أدى اندلاع الحرب العالمية [الأولى] إلى جلب العديد من الأوربيين إلى الحجاز ومن ضمنهم بالطبع ، لورنس المعروف ، وإنه لمن الصعب أن نكتب بعض الكلمات عن شخص مثل لورنس في هذا الكتاب وذلك لأنه ، كما يعتقد مؤلف هذا الكتاب ، كان ضابط استخبارات ، وخبيراً في جمع المعلومات من فترة سبقت الحرب العالمية الأولى ، وتعتبر كتاباته غير المنشورة نموذجاً للتقارير العسكرية ، ولا يسعنا هنا إلا أن ننقل ثلاث فقرات من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» في محاولة منا لجذب الأنظار لقراءة كل الكتاب : «استقبلني الرجال بحفاوة وكانوا متمددين كالعقارب المسترخية ، تحت كل صخرة كبيرة أو شجيرة طلباً للراحة وهرباً من الحر حيث مدوا أرجلهم تحت ظل الصخور لوقايتها من حرارة الشمس ، وبسبب لباسي الكاكي ، فقد اعتقدوا أني ضابط تركي مدرب ، هرب من الخدمة لينضم إليهم ، فأبدوا شعوراً لطيفاً نحوي ولكنهم احتاروا في الكيفية التي سيعاملونني بها وكان معظمهم من الشباب ، مع أنه من الصعب تحديد الرجل المحارب في الحجاز ، فكل من يستطيع الرمي ما بين الثانية عشرة والستين من عمره يعتبر رجلاً مقاتلاً ، وقد كانت وجوههم قاسية وسمراء داكنة ، بعضهم زنوج ، وأجسامهم نحيلة ، ولكنها جميلة التكوين ، يتحركون جميعاً بمرونة وحيوية ، تسر النظر ، ويبدو أنه من غير المحتمل أن يكون الرجال أكثر شجاعة أو أنهم أقدر على

تحمل المصاعب منهم ، فلديهم القدرة على الركوب لمسافات بعيدة في كل يوم ، ومتمرسين على الجري ، حفاة الأقدام في الرمضاء ، على الرمل وفوق الصخور ، دون شعور بالألم ، ويتسلقون جبالهم كالماعز ، وملابسهم لم تكن أكثر من ثوب فضفاض مع سروال قطني قصير ، أحياناً وشال كغطاء للرأس ، عادة ما يكون خرقة حمراء ، يستخدم حسب الحاجة ؛ كمنشفة أو منديل أو كيس ، ويلبسون حزاماً عريضاً متغضناً ويطلقون الرصاص في مناسبات الفرح» .

«الجزل[٥٢] .. منحدر عميق يكاد يبلغ عرضه مائتي ياردة تمتد على جانبه صخور رملية مُشبّعةُ بلون أحمر في مواضع مختلفة .. وياله من منظر بديع ، ارتفاع شامخ وأرضية لونها ما بين وردي خافت إلى أخضر هاديء ، إنه أجمل ما رأته عيناي بعد أن تعودتا رؤية أشعة الشمس الساطعة . وعند الأصيل ، حيث الشمس الغاربة تضرب بأشعتها الذهبية جانب الوادي ، ليظهر الجانب الآخر بلون البنفسج الغامق» .

وقال لورنس يصف سهل الحول El Houl[٥٣] شرقي تبوك : «ومضينا في سيرنا فيه دون أن نرى أثراً للحياة ، فلا أثر فيه للغزلان ولا للسحالي ، ولا جحور للفئران أو حتى الطيور ، لقد شعرنا فيه نحن أنفسنا بالصغر المتناهي ، فبالرغم من تقدمنا الحثيث عبر مساحته الشاسعة إلا أنه بدا وكأننا نراوح في مكاننا أو بدا وكأنه جهد ضائع ولم تكن ثمة أصوات نسمعها سوى الأصداء الجوفاء بوقع أقدام جمالنا فوق الصخور الهشة ، ذلك الصدى الذي يصدر من رصف الحجارة فوق الأقبية وذرات الرمال الحارقة وهي

---

(٥٢) الجزل : واد معروف منذ صدر الاسلام ، تغذيه بصفة رئيسية الأودية المنحدرة غرباً من حرة عويرض ، ويتجه الوادي نحو الجنوب موازياً لوادي العلا (وادي القرى سابقاً) الذي يجري موازياً لحرة عويرض من الشرق حيث يجتمع مع وادي الجزل عند قرية الخشيبه ويستمر وادي الجزل في اتجاهه نحو الجنوب حتى يلتقي مع وادي الحمض القادم من الجنوب ، عند قريتي الزبائر والضليعه حيث يتجه وادي الحمض غرباً ليصب في البحر الأحمر جنوب الوجه (المترجم) .

(٥٣) يبدو أن المقصود بسهل «الحول» هنا هو سهل «الحاوى» الذي يتلقى مياه وادي فجر وذلك كما يتضح من وصف لورنس في كتابه ص ٢٥٣ ، ٢٦٨ (المترجم) .

تزحف بطيئة غرباً ، تذروها الرياح الحارة فوق الحجارة الرملية البالية ، وما أن قارب وقت الظهيرة ، حتى بدأت الرياح تهب بشدة فبدأت شفاهنا تذبل وتتصدع من شدة الجفاف وتشققت وجوهنا بشدة بينما تقطبت حواجبنا وغارت في جباهنا تاركة عيوننا عارية .

وفي نهاية هذا الفصل يجدر بنا أن نذكر سيدتين إنجليزيتين ذهبتا إلى الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى ، الأولى ذهبت تحت اسم الكونتيس ماليجانتي Countess Malmiganti وأخذت معها عدداً من المفرقعات النارية ، كهدايا للأهالي البسطاء [لتثير دهشتهم] واشتمل كتابها على فصول مثل : «بين العرب المتعصبين» وهو شبيه بنص مكتوب لفلم غير مهم ، أما السيدة الثانية فكانت ليدي إيفلن كوبولد Lady Evelyn Cobbold ادّعت بأنها أول سيدة أوربية قامت بالحج ، والظاهر أنها قضت أوقاتاً ممتعة في الجزيرة العربية ، حيث التقت بعدد من السيدات العربيات ، وتجاذبت معهن أطراف الحديث والنقاش . إن تجربتها في مكة تختلف عن تلك التي مر بها غيرها من الرحالة الأوائل الذين ذكرناهم والذين عانوا من الخوف على حياتهم .

رحّالة في شرق الجزيرة العربية وشمالها

إن ما ذكره الجغرافيون العرب عن المناطق الشمالية والشرقية للجزيرة العربية ، يكاد يكون قليلاً بالنسبة إلى ما ذكروه عن المناطق الأخرى ، وحتى نيبور وبوركهارت لم يحصلا إلاّ على معلومات ضئيلة عن تلك المناطق ، وكان ذلك عن طريق سماعهما لما قاله الآخرون عنها . وبحلول عام ١٨٠٠م فإن معظم المناطق المهمة في جنوب الجزيرة العربية وغربها كانت قد تمت زيارتها من قِبَل الرحّالة الأوربيين ، غير أن أحداً منهم لم يتجاوز الساحل الشرقي سوى بضعة أميال إلى الداخل ، وأول من زار الجزيرة العربية من الشرق ، واستمر في سيره غرباً ، هو [ضابط في الجيش البريطاني اسمه] جورج فورستر سادلير George Forster Sadlier .

لقد ذكرنا في فصل سابق أن إبراهيم باشا احتل مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية في فبراير عام ١٨١٨م ، وكان قراصنة الخليج في ذلك الوقت ، مصدر متاعب كثيرة للتجارة والبحرية البريطانية ، وفي يناير ١٨١٩م فكرت السلطات البريطانية في الهند ، أن تكتب إلى إبراهيم باشا وتهنئه على انتصاراته ، ثم تدعوه للتعاون معها في تحطيم قوة القراصنة ، وما أن حل منتصف شهر أبريل ، حتى تلقى سادلير تعليمات بأن سعادته [الحاكم البريطاني في الهند] يضع ثقته التامة فيك [أي الباشا] وفي سياستك الحكيمة وأنه ليسره بأن يوكل إليك أمر تنفيذ هذه العملية المهمة .

وفي شهر يونيو وصل سادلير إلى مسقط ، وتوقف هناك فترة قصيرة ، حاول خلالها اقناع السلطان في الانضمام إلى هذا التحالف المقترح ، ثم وصل بعدها إلى القطيف . لم يكن مكان إبراهيم باشا معروفاً في ذلك الوقت ، ولكنه من المحتمل فيما يبدو أنه ربما يكون في الهفوف ، وهي على مسيرة عدة أيام إلى الداخل ، وقد استطاع سادلير أن يحصل على دليل من البدو ، وبدأ رحلته للبحث عنه ، ومنذ بداية الرحلة

بدأت مشاكله مع رفاقه فكتب في مذكراته يصفهم بالمماطلة والكذب والنفاق ، والمخادعة ، حتى إنه قال : ليس هناك لغة يستطيع أن يصف بها احتيال هؤلاء الناس لشخص أوربي حتى يفهم طبيعة هذه الجماعات من اللصوص على حقيقتها ، وأن أية محاولة للتفاهم معهم على أساس المبادىء والعدالة والانصاف ، أمر غير مجد حتى وإن حاولت تذكيرهم بوعد أو عهد أعطوه لك ، إلا إذا كنت تملك القدرة على اخضاعهم بالقوة . وقد اكتشف سادلير ، أن دليله كان يظهر الخضوع حتى إذا ما أصبحوا في وسط الصحراء فإنه يتحول إلى رجل بربري وفي حوزته فريسة ، فيبذل جهده ليستغل الفرصة حتى لا يسلبها منه شخص آخر ويقول سادلير : [في أثناء الرحلة] لا ماء معنا ، ولا حيلة لنا في تدبير أي شيء وكنت سعيداً لدفع ستين دولاراً لوضع حد لهذه المعاناة .

وفي الهفوف لم يجد سادلير [من الطعام] سوى قليل من المشمش الرديء ، وتين مجفف ويابس وبطيّخ رديء وبصل في شكل الجزر ، أما الباشا فلم يكن في الهفوف ولا أحد يعرف أنه كان يقوم بالانسحاب من نجد ، ولكن الحاكم العسكري هناك كان يعرف بالتأكيد أن إبراهيم كان يعسكر على بعد أيام قلائل إلى الغرب ، وبما أنه يزمع ارسال بعثة إليه ، فقد قرر سادلير مرافقتها ، وعندما وصلت البعثة إلى هدفها وجدت في استقبالها خبراً يفيد بأن إبراهيم قد غادر مؤخراً إلى الرس في وسط الجزيرة العربية .

وبما أن الرس لم تكن على بعد مسافة طويلة ، قرر سادلير اللحاق به ، ولكنه عندما وصلها وجد أن إبراهيم باشا قد غادرها منذ يومين ، متجهاً إلى المدينة . شعر سادلير أنه قد بذل ما في وسعه للقيام بالمهمة الموكولة إليه ، ولذلك فما عليه إلا الرجوع إلى البصرة ، حيث كان على علم بوجود سفينة بريطانية ، ولكن الحاكم العسكري المحلي أخبره أن ذلك مستحيل دون توفر مجموعة كبيرة من الحراس والتي لا يملك السلطة بتجهيزه بها ، وهكذا وجد سادلير نفسه شاء أم أبى ، مضطراً للاستمرار في سيره غرباً ، وبعد أحد عشر أسبوعاً من مغادرته القطيف ، وصل سادلير إلى المدينة حيث استقبله إبراهيم باشا بحفاوةٍ ، وأظهر إعجابه بالسيف الذي أهداه له سادلير ، ولكنه في

نفس الوقت اعتذر عن إبداء رأيه في الجانب السياسي للمهمة ، التي جاء بها سادلير ، لكونه جندياً بسيطاً . لم يستطع سادلير الدخول إلى المدينة ، وإنما دار حولها ، وهو في طريقه إلى ينبع ، وبهذا أصبح سادلير أول أوربي يقطع شبه الجزيرة العربية عرضاً من الساحل إلى الساحل .

ومن ينبع ركب سادلير البحر إلى جدة حيث رتب له مقابلة أخرى مع الباشا وحيث انتهت مهمته بمشاجرة عنيفة ، وذلك لأن إبراهيم قرر أن يبعث بحصانين إلى الحاكم العسكري البريطاني في الهند ، ولكن سادلير لاحظ أن السروج لم تكن جديدة بل هي مستعملة ، فأعادها إلى إبراهيم الذي ألغى الهدايا وأمره بمغادرة البلاد في الحال ورفض سادلير أن يغادر إلا على سفينة بريطانية مما أضطره للبقاء في جدة مدة ثلاثة شهور أخرى قبل أن تصل إحدى هذه السفن .

وبعد سادلير ، مر قرن كامل قبل أن يقطع الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها أي رحالة أوربي ، ولكن من بين كل الرحّالة الذين ذكُروا في هذا الكتاب ، فإن سادلير أقلهم امتلاكاً لصفات الرحالة ، فقد كره الجزيرة العربية ، وسكانها ، وكان متعجرفاً لم يُظهر أي تسامح مع الناس ، ولم يرغب في تفهم طباعهم وعاداتهم ، ومع هذا فإنه جلب معه على أية حال معلومات جغرافية مهمة عن المناطق التي زارها ، نظراً لأنه ضابط يحس بالمسئولية .

أما الشخصية التالية فإنه يختلف كل الاختلاف عن سادلير الكاره للعرب واسمه جورج أوغسطس والِن George August Wallin فنلندي وُلِدَ عام ١٨١١م ، ومنذ صِغَرِه كان تواقاً للقيام برحلة إلى البلاد العربية ، وقد كتب أطروحةً باللغة اللاتينية لنيل شهادة الدكتوراة عنوانها «الاختلافات الرئيسية بين اللغة العربية القديمة والحديثة» . بعد ذلك حصل على منحة دراسية لعمل دراسة مقارنة لدراسة اللهجات العربية المختلفة ، وقرر أن يسافر متنكراً كطبيب وملقح ، فقضى ستة أشهر لتعلم هذه المهن ، وفي يناير ١٨٤٤م

وصل إلى القاهرة وبقي فيها سنة واحدة تعلم خلالها الخط العربي ، والعلوم الإسلامية وتعلم العزف على الناي وترتيل القرآن ، وهكذا فلم يجد صعوبة في إقناع الناس بأنه مسلم ، وكان دقيق الملاحظة ، خبيراً في كتابة الملاحظات من دون أن يثير انتباه الآخرين ، لقد كان والن مهتماً بكل شيء : قضايا قبلية ، سياسية ، كتابات قديمة ، الطوبوغرافيا ، علم النباتات ... إلخ ، ومع الأسف فإن كل ما هو مكتوب عنه باللغة الإنجليزية عبارة عن مقالين يحتويان على بعض النقاط المهمة في أبحاثه دون أي شرح لها .

وفي أبريل ١٨٤٥م سافر والن إلى فلسطين ، حيث اعتقد أن دخول الجزيرة العربية من شمالها هو أقل الطرق إثارةً للشبهات ، وفي سبتمبر من ذلك العام أصبح أول أوربي يدخل مدينة حائل التي كانت تحت حكم ابن رشيد المشهور بكرمه ، والذي قصده الزائرون من كل حدب وصوب ، وكان باستطاعة أي شخص أن يبقى في ضيافته لأي فترة يريد دون سؤال ودون مقابل . لا شك أنه قد كلّفهم الكثير ، فيقال أن مياه حائل العذبة تجعل الإنسان قادراً على أكل خروف دون أن يصاب بسوء الهضم ، شريطة أن يشرب من مياه الآبار المحلية ، وقضى والن مدة شهرين في حائل كان فيهما سعيداً ، إلاّ أنه لم يستطع السفر إلى الرياض لخطورة الطريق ولقلة ما لديه من نقود . وبالرغم من أنه كان متردداً في زيارة مكة ، والتي زارها كثير من الرحالة من قبله ، إلاّ أنه انضم إلى جماعة من الإيرانيين في قافلة كانت في طريقها إلى الحج مؤملاً أن يذهب من المدينة إلى الساحل ، غير أنه عندما حان ذلك الوقت شعر بمرض شديد ، وكان فقيراً جداً لا يستطيع ترك رفاقه ، لذلك استمر في سفره معهم لأداء الحج ، وبعد انقضاء الحج بأيام قليلة وصل إلى جدة ومعه شلن واحد فقط .

عاد والن إلى القاهرة واستمر في دراساته ، وبعد ثلاث سنوات نزل على ساحل البحر الأحمر قريباً من الجزء الجنوبي لصحراء سيناء ، وتجول هناك لمدة شهرين ، في مناطق لم يصلها أي أوربي من قبل ، ثم وصل إلى حائل ودخلها مرة ثانية ، وكان والن حريصاً جداً على عدم استغلال كرم مضيفيه بالأكل كثيراً من طعامهم المحدود ، وأهدى

إليهم في المقابل بعضاً من القهوة والتبغ ، وقد أصيب بخيبة أمل عندما علم أنه للمرة الثانية ، لن يستطيع زيارة الرياض ، حيث حذره صديق له من بيت ابن رشيد أن بعض الناس يشكّون في أنه نصراني ، فترك حائل على عجل ، وانضم إلى قافلة كانت في طريقها إلى بغداد ، وما أن وصل إلى البصرة حتى وجد نفسه صفر اليدين من النقود ، فقال : «اضطرني الحال إلى أن أتجنب الأصدقاء ، وأن أحرم نفسي من أكل الفاكهة ومن ضوء الشموع ، ومن لبس الملابس النظيفة ، إلا إذا غسلتها بدون صابون ، وكانت سلوتي الوحيدة ، هي سماع رجل فارسي مستاء كان يروي شعره الحزين» . وأخيراً تم إنقاذ والن على يد البحرية البريطانية التي ساعدته على الرجوع إلى القاهرة ، وهناك غيّر رأيه في فكرة الذهاب إلى اليمن ، وفي عام ١٨٥٠م رجع إلى بلدته هلسنكي [عاصمة فنلندا] ، وأصبح أستاذاً للغات الشرقية في جامعتها ، وبعد سنتين من ذلك ، وبينما كان على أهبة الاستعداد لسفره إلى الجزيرة العربية توفي والن ، وكان عمره آنذاك واحداً وأربعين عاماً . وتكاد تتفق الآراء كلها على أن والن يعتبر من أشهر الرحّالة الأوربيين في الجزيرة العربية .

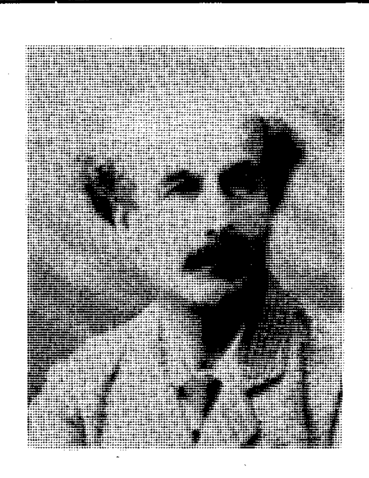
لقد رأينا في فصل سابق كيف أوفد نابليون الثالث سنة ١٨٦٢م ، الإنجليزي بلجريف Palgrave إلى نجد ، وبعد سنتين من ذلك بعث شخصاً إيطالياً إلى نفس المنطقة إسمه كارلو غورماني Carlo Guarmani ، وُلِدَ في عام ١٨٢٨م في «ليغورن Leghorn» ولكنه عاش في الشرق الأوسط منذ عام ١٨٥٠م واشتغل كمسؤول عن خدمات البريد الفرنسي في القدس ، وكلما سنحت له الفرصة تجول مع البدو الرُحّل في المناطق المحاذية لنهر الأردن ، وأصبح خبيراً بالخيول العربية . وقد استطاع الحصول على إمتياز يُخَوّله شراء الخيول للعوائل المالكة في كل من باريس وتورين ، ولهذه المهمة اصطحب معه خادماً قديماً .. «فالتاً نفسي من قيود العواطف العائلية وأحزانها ... فقد ظنت عائلتي أنني ذاهب في سبيل أداء مهمة ما بطوعي واختياري» ، وسافر تحت الاسم المستعار خليل أغا وزعم أنه المسؤول الرسمي عن خيول حاكم دمشق التركي .

لقد كان غورماني على علاقات حسنة مع عدد من شيوخ القبائل المحلية ، وقلّما صادف مشكلة في رحلاته ، وكان على علم بعادات البدو وتقاليدهم ، وقد اتضح ذلك عندما هبت ريح قوية وأطاحت بخيامهم ، فنهض خادمه الحضري لمساعدة النساء في نصب الخيام ، فنهره غورماني ، وقال له لا يمكن لرجل بدوي أن يذل نفسه بالقيام بعمل هو من اختصاص النساء . تمكن غورماني من الحصول على ثلاثة أحصنة قوية البنية بسعر مائة جمل ، ولكن لم يسمح له بالاقتراب من أي فرس أصيلة ، خشية أن يكون ذا عين حاسدة ، وقد هوجم عدة مرات مع رفاقه غير أن خيوله ، كما يقول مخبأة في مكان أمين مع الجرحى والنساء والأمتعة .

كانت المناطق الداخلية من الجزيرة العربية مسرحاً للغزوات القبلية ، وبينما كان غورماني قرب مدينة عنيزة ، صادفته جماعة غازية بقيادة الأمير عبدالله الذي جاء ذكره مع بلجريف في فصل سالف من هذا الكتاب ، وقد رفض الأمير مقابلته ، وبعثه تحت الحراسة إلى حائل وأول شيء شاهده هناك ، كانت جثة يهودي إيراني رفض الصلاة على النبي وقد صمم غورماني أن لا يكون أحد هؤلاء البسطاء في تفكيرهم ويدخل الجنة مع الأغبياء . وبالرغم من أن طلال بن رشيد يدرك أن خليل أغا ما هو إلا اسم مستعار في زي مسلم تركي إلا أنه عامله معاملة حسنة. ومثل بلجريف، فقد أخذ غورماني أجمل صورة عن حاكم جبل شمر، فقد رأى فيه حاكماً عادلاً، «... يجلس على الجانب الغربي للمسجد ، ويجلس إلى يساره كبار المسئولين ، كل حسب مركزه ، بينما جلس أمامه على الأرض عشرون من عبيده وخدمه في صفوف خلف بعضها على شكل نصف حلقة ، وكلهم يرتدون أحسن الملابس والعباءات السوداء الجميلة ، وعلى كل منهم سترة حمراء أو زرقاء ، مطرزة بخيوط ذهبية ، ويحملون في أيديهم كما يحمل الأمير وكل واحد من أتباعه سيفاً في غمد فضي» وأول قضية [عرضت على الأمير] ، هي قضية إمراة عجوز اشتكت من حاكم قريتها الذي استولى على حمارها . وقضى الأمير أن يذهب إثنان من جنوده ، وأن يستوليا على أحسن حمار عنده واعطائه لتلك المرأة ، كما أمر لها بكسوة جديدة .

لا شك أن غورماني قد تمتع بالفترة التي قضاها في الجزيرة العربية ، ومع أنه ينتمي إلى العصر الفكتوري ، فقد كان مجبراً على انتقاد عادات العرب وتقاليدهم ، فاتهم الرجال بالانغماس في اللهو والملذات واتهم النساء بأنهن للمتعة والترف ، ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأن جمال السيدات العربيات يضاهي جمال أحسن السيدات في كانوفا Kanova وأن شعرهن أسود وطويل ولامع ، ويُدهن بمرهم عطري مركب من مسحوق لحاء ساق شجرة النخل والدهن الصافي المستخلص من ذيل الظأن ، كما أنه يعتقد أيضاً بأن المناطق المجاورة ، والتي تقع تحت حكم طلال ، الحازم ، هي أكثر أماناً من إيطاليا . وقد قام غورماني بجولات واسعة بحثاً عن الخيول وقد تعرض في المرحلة الأخيرة من جولاته لهجوم من قبل جماعة كبيرة غازية ، كاد أن يفقد فيها خيوله كما قارب هو على الهلاك .

بعد حوالي خمسين عاماً من زيارة سادلير لنجد ، زارها رجل بريطاني آخر كان ضابطاً في الجيش وهو الكولونيل لويس بلي Colonel Lewis Pelly ، فمنذ مجيء الأمير فيصل بن سعود إلى الحكم بدأت العلاقات السعودية – البريطانية تأخذ اتجاهاً سلبياً ، خاصة فيما يتعلق بتجارة العبيد ، والتي حاولت البحرية البريطانية محاربتها بشدة ، مما أدى إلى عدة مجابهات بين الطرفين . حاول بلي ، وكان ممثل بريطانيا في الخليج ، أن يقوم



السير لويس بلي (١٨٢٥ - ١٨٩٢م) . كانت الفترة التي قضاها كمقيم سياسي في الخليج من عام ١٨٦٢ - ١٨٧٣م ذات أثر في تغيير السياسة البريطانية ، فقبل ذلك كانت السلطات تركز بصفة رئيسية على المحافظة على السلام في البحر ، أما بعده فقد بذلت بعض الجهود لتحسين حالة السكان .

بمحاولة شخصية للاتصال بأقوىٰ رجل في المنطقة ، ومما حفزه على السفر إلى نجد أيضاً ، رأي الجمعية الملكية الجغرافية ، أنه من الصعب على إي شخص أوربي الوصول إلى الرياض (حقاً ، لقد كان موقعها غير محدد بالتأكيد) ، كما أنه لا يعرف عن تلك المنطقة ، أي شيء منذ زمن بطليموس الجغرافي ، بالإضافة إلى ذلك ، فإنه أراد أن يضيف إنجازاً آخر إلى إنجازاته السابقة ، فقد قام برحلة بمفرده من طهران إلى الهند ماراً في طريقه بقاندهار .

ذهب بلي أولاً إلى الكويت وكان ذلك في أوائل عام ١٨٦٠م وبقى هناك ينتظر ويأمل الحصول على سماح له بالتوجه نحو الرياض ، وخلال فترة انتظاره ، شغل وقته بالتحدث والقيام بسفرات الصيد مع علية القوم الذين شبّههم بالنبلاء الإنجليز لطبيعة خلقهم وكرمهم . لم تذكر الكويت كثيراً في أخبار الرحالة الأوربيين ، لعدم وجود شيء يثير فضولهم فأهلها تجار متحضرون وأصحاب معرفة ، والعائلة الحاكمة فيها متنورة ، فهي بلد لا يجد فيه الرحالة أي مغامرة أو مخاطرة .

وبعد انتظار دام عدة أسابيع ، وصل جواب مقتضب من الإمام يعطيه السماح بالدخول إلى نجد ، ولكن لم يكن هناك دليل مع الرسالة . تكونت القافلة من ثلاثين جملاً ، وضابط بحري لأخذ بعض الملاحظات الفلكية ، وطبيب ، وطباخ برتغالي ، ومترجم ، وثلاثة جنود هنود ، وخادم إيراني ، وزاد من الحساء واللحوم المجففة ، وأرز وتمر . وقد أصر بلي أن يلبس أعضاء البعثة الملابس العربية ، وقال : «إننا نشبه تلك المجموعة التي لو رآها فولستاف Falstaff[٥٤] ، لاعترض على سيرها في شوارع كوفنتري» .

وكان الطريق الذي سلكته البعثة يمر بمناطق صحراوية ، تعتبر الآن من أغنى مناطق النفط في العالم ، وأهم ما وقعت عليه أعينهم في الأيام العشرة الأولى من سفرهم ،

(٥٤) فولستاف : نديم الملك هنري الخامس وكوفنتري مدينة في انجلترا (المترجم) .

كان شجرة ، وخلال الرحلة ، كان بلي دائم السؤال والاستطلاع من رفاقه ، وجمع المعلومات الكثيرة عن المنطقة وأهلها ، فأصبح بذلك أول الأوربيين الذين كتبوا عن جماعة الصلبه (...) الذين يشتهرون بمهارتهم في الصيد ، فكانوا يُغَطّون رؤوسهم بجلد الغزال ، وبهذا يمكنهم الاقتراب لمسافة أذرع من قطيع غزلان ترعىٰ .

وبعد مسيرة أسبوعين شاهد أفراد البعثة أول بناية وأول بستان منذ مغادرتهم الكويت ، وفي خلال يومين كانت البعثة في داخل الرياض ، وقد استُقبلوا استقبالاً مهذباً ولكنه بارد ، وقد بدا الإمام فيصل كما لو كان في السبعين من عمره وكان فاقد البصر ، وحاضر البديهة بشكل كبير ، وهو رجل كبير ومهذب ، رزين الصوت ، هاديء الكلام ، دقيق في اختيار كلماته[٥٥] . أبدىٰ الإمام بعض الدهشة من زيارة هذا الرجل الإنجليزي للرياض وأوضح أنه لم يسبق لأي أوربي زيارتها من قبل ، ولم يتطرق الإمام في حديثه إلى انتقاد الحكومة البريطانية ، ولكنه قال لبلي : «.. إننا نمقت دينكم ..» ودعا للغرب عامة ولبلي خاصة أن يستنيروا بطريق الرشاد ، وفي الزيارة الثانية ظهر الإمام من داره تمسك بيديه جاريتان ، وما أن ظهر حتى استلمه رجلان [وقاداه إلى مجلسه] (...) ، وقد أبدى الإمام إعجابه وتقديره للهدايا التي قدمها بلي ، وكانت بندقية وساعة ذهبية ، وبعض القماش الأحمر ومسدساً وسيفاً ، أما المحادثات التي دارت بين الجانبين فكانت ودية للغاية ، إلاّ أن عدداً من أعضاء حاشية الإمام بدأوا يشعرون بالقلق من تحسن العلاقات بين حكومتهم وبين سلطة كافرة ، ونتيجة لذلك فإن العلاقات بين الطرفين بدأت تسوء ، ووجد بلي أن الوقت قد حان للمغادرة ، فوصل إلى الساحل من غير حادثة تُذكر ، وقد انتهت حياته العملية بنجاح منقطع النظير ، فحصل على لقب سير ثم أصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني ، ودعاه ملك بلجيكا ليكون حاكماً إدارياً لمستعمرة الكونغو .

---

(٥٥) هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود ، تولى الحكم في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وتوفى – رحمه الله – في رجب عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م (ابن عيسى ، ص ١٦٢ ، ١٧٧) – المترجم .

إن كل الرحالة الذين ذكرناهم سابقاً وصلوا إلى حائل ، متنكرين في أزياء وشخصيات مختلفة ، أما ويلفرد وزجته الليدي آن بلنت Wilfred Blunt and Lady Ann Blunt ، فقد ذهبا غير متنكرين ، بل كنبلاء بريطانيين ، في زيارة عائلات عربية نبيلة ، كان ويلفرد بلنت رجلاً كبير الجسم ، وذا شخصية قوية ، يتكلم اللغة العربية ولكن بدون قواعد النحو أما زوجته الليدي آن (حفيدة بايرون Byron) فكانت إمرأة خجولة صغيرة الحجم تتكلم اللغة العربية الفصحىٰ ، مما صعب على كثير من الناس فهمها ، كان الاثنان يعشقان الخيول العربية ، وأظهرا تحمساً لدراسة الأدب العربي ، حتى أن ويلفرد ، وهو شاعر ، ترجم كثيراً من الشعر العربي إلى اللغة الإنجليزية ، وما فتئت قراءة هذه الترجمة ممتعة وكان ويلفرد معجباً بالعرب ، وفي الجزائر رأى البون الشاسع بين حياة النبلاء من رعاة الجمال ، وبين حياة أولئك النبلاء المنتفخة بطونهم بالخمرة ، من رعاة الخنازير الفرنسيين ، وكان طوال حياته ، يتمنى دائما «.. أن يغسل الشخص الغربي روحه المريضة ، بطهر وجمال الشرق الشافي» .

وفي خلال زيارة سابقة قام بها ويلفرد وآن إلى سوريا ، التقيا بشخص يقال له محمد بن عروق والذي ادّعى بأنه واحد من ثلاثة اخوة من عائلة نجدية عريقة ، لكنهم اضطروا إلى ترك نجد على ظهر بعير واحد ، وكل واحد من الأخوة الثلاثة استقر في مكان ما ، والآن يود أن يرجع من نفس الطريق التي سلكوها عندما تركوا نجداً عسىٰ أن يجد ابنة عم له يتزوجها ، لهذا فقد كان متحمساً لفكرة السفر إلى حائل .

وقد غادر ثلاثتهم سوريا في شهر ديسمبر من عام ١٨٧٨م ، وقبل أن يقطعوا مسافة طويلة ، وبينما كان بلنت وزوجته يتجولان بعيداً عن رفاقهما ، إذا بجماعة من الغزاة تأسرهما ، وتلقت الليدي آن ضربة رمح أوقعتها على الأرض ، أما ويلفرد فقد كُسرت على رأسه خشبة بندقية ، وقد تبين أن الجماعة الغازية كانت من أصدقاء محمد فتصالحوا وانتهت المغامرة وجلسوا معاً لتناول طعامهم . وذكرت الليدي آن في مذكراتها تقول : إنه بالرغم من شراسة تلك الجماعة إلاّ أنه اتضح لنا ، أنهم كانوا مهذبين .

وفي الجوف ، وجد محمد عروساً له وقام ويلفرد بمهام الخطبة ، ودفع مهر العروس وقدره خمسون جنيهاً إسترلينياً ، واستمر محمد معهما في رحلتهما ، وفي اليوم التالي ، كتب بلنت يقول : «.. رأينا خطاً أحمر في الأفق ، إمتد أمامنا شرقاً وغرباً في خط متصل .. وقد يظن المرء أنه من تأثير السراب ، ولكن عندما اقتربنا منه وجدناه قد تكسر على شكل أمواج ولولا لونه الأحمر لظنه المرء بحراً هائجاً حيث إنه ارتفع كما يرتفع البحر عن مستوى الأرض عندما ترتفع أمواجه . تلك هي صحراء النفود ، والشيء الذي أدهشنا ، هو لونها الشبيه بلون المغنيسيا وعشب الراوند ، ولا شيء البته ، شبيهاً بذلك الرمل الذي كنا نتوقعه .

دخل بلنت وزوجته ، مدينة حائل بعد تسعة أشهر من دخول داوتي لها ، ولكن الاستقبال الذي لقياه كان يختلف عن الاستقبال الذي لقيه داوتي ، وقد قام باستقبالهما الأمير محمد بن رشيد الذي تقلد دفة الحكم في إمارة جبل شمر ، بعد أن قتل ابن أخيه بيده وقطع أرجل أبناء عمه وتركهم ينزفون دماً حتي الموت . وكتب بلنت يقول : وجه الأمير محمد ذَكّره بصورة ريتشارد الثالث [ملك إنجلترا] ، ووصفه بأنه : «.. نحيل الجسم ، شاحب الخدين .. ضامر الوجنتين ، رقيق الشفتين ، أسارير وجهه منقبضة ومنفرجة حين الابتسامة ، لحيته سوداء صغيرة ، وله حاجبان مقبطان وهما أسودان وبارزان بشكل واضح ، وله عينان غائرتان وهما ملفتتان للنظر وحادتان كعيني الصقر ، تستديران بصفة مستمرة .. تبحلقان في وجوهنا تارة وفي وجوه الآخرين تارة ، ثم في وجوه أولئك الجالسين بجانبه تارة ثالثة ، إن وجهه يعطي انطباعاً ، وكأنه على حذر من شخص يتربص به لقتله ، كما أن أصابع يديه طويلة ، تشبه مخالب الصقر ويحركها بصفة دائمة ، وبدون توقف ، أما ملابسه فعلى أجمل ما تكون ويحمل عدداً من الخناجر الذهبية ، وسيفاً ذهبياً مطعماً بالياقوت والفيروز» .

أما سيدات القصر اللآتي استقبلن الليدي آن فلم يكنّ بأقل عظمة منه ، فقد لبست إحداهن حول عنقها عدداً من السلاسل الذهبية مطعمة باللؤلؤ والفيروز ،

ووضعت على رأسها صحناً ذهبياً تدلّت منه اللآلىء ، كما تدلىٰ من أنف كل سيدة طوق ذهبي قطره بوصتين تقريباً ، وكانت الواحدة منهن تضطر إلى نزعه قبل تناول الطعام .

لقد كانت مظاهر الثروة والعظمة واضحة في بلاط هذا الأمير ، ما عدا الطريقة المبتذلة نوعاً ما حيث كان الأمير فرحاً بعرض ثروته ، فقد أخذهما إلى مطبخه ، وشاهدا سبعة مراجل يسع كل واحد بداخله ثلاثة جمال ، وأخبرهما بأن ما يطبخونه من اللحم في كل يوم يبلغ أربعين خروفاً أو سبعة جمال لإطعام ما يقارب مئتي ضيف ، ثم قادهما إلى الأسطبل فوجدا ما يقارب من مائة حصان عربي أصيل ، وقد دُهشا عندما أخبرهما بأنها تستعمل من قبل عبيده ، وكان في حوزة الأمير محمد إحدى تلك اللعب المسماة تلفون والتي انتشرت في أوربا في العام المنصرم ، ولم يكن بلنت قد رأىٰ هذا الجهاز من قبل ، فتقدم رجلان من عبيد الأمير ليرياه كيفية استعماله ، حيث وقفا متباعدين لمسافة بضع ياردات وأخذ كل منهما يخاطب الآخر من خلاله .

بقي بلنت وزوجته أسبوعين في حائل ثم غادراها مع قافلة من الحجاج الإيرانيين ، العائدين إلى بلادهم وبالنظر إلى الخلف فقد دوّنت آن في مذكراتها تقول : «... إن مارأيته في حائل كان بلا شك أبدع شيء رأيته في حياتي» ، ولا يتسع المجال هنا لأن نتتبع مسيرة ويلفرد بلنت وزوجته ، فقد أنشأ الأثنان مزرعة لتربية الخيول العربية ، وأصبح ويلفرد معارضاً شديداً للسياسة البريطانية مما أدى إلى دخوله السجن ، وأيد المقاومة المصرية ضد الاحتلال البريطاني . إن سفرته إلى حائل لم تكن إلاّ حقبة من حياة صاخبة .

تشـــارلز هـــوبر :

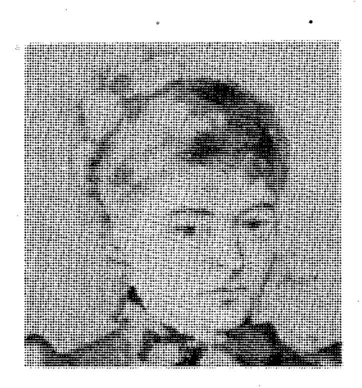
وبعد فترة من مغادرة بلنت لحائل ، جاءها رجل يُدعىٰ تشارلز هوبر Charles Huber من الالزاس[٥٦] ، واستقبله محمد بن رشيد استقبالاً حسناً أيضاً ، وتمكن هوبر

(٥٦) الالزاس : مقاطعة تقع حالياً في فرنسا قريباً من الحدود الألمانية (المترجم) .

وهو في طريقه من نسخ عدد من الكتابات القديمة ، من ضمنها نقش «حجر تيماء» الذي وُجِدَ عليه كتابات لم تُشاهد في الجزيرة العربية من قبل . وفي عام ١٨٨٣م عاد هوبر إلى الجزيرة العربية ، مصطحباً عالم آثار ألماني اسمه جوليوس أويتنج Euting ، وفي مرة من المرات في حائل حدث مشهد غريب ، فقد أراد أوينتج أن يُظهر قوته ، وذلك بأن علق نفسه من رِجْلٍ واحدة ، وضعها على رأس شجرة ومسكها بعض من العبيد فتدلى مقلوباً رأساً على عقب ، وبالرغم من هذه الرحلات التي يقوم بها هذا الفريق ، فقد تبين فيما بعد بأن أويتنج وهوبر يكرهان بعضهما بشدة ، ومع هذا فقد استطاعا شراء «حجر تيماء» الذي يعتبر الآن من أنفس ممتلكات متحف اللوفر [في باريس] ، فقرر الرجلان الانفصال بعد أن أنهيا مهمتهما ، وتمكن أويتنج من أن ينجو من هجوم شنه عليه جماعة من البدو ، بعد أن قتل إثنين منهم ، أما هوبر فلم يكن الحظ حليفه ، فبعد أن ترك أوراقه وحجر تيماء في حائل ، ذهب إلى مكة وفي طريق رجوعه قتله دليله وقام ابن رشيد بإرسال كل ممتلكاته إلى فرنسا . ولابد أن أهالي جبل شمر قد كونوا انطباعاً غريباً عن الألمان وذلك لأن الشخص الذي زارهم بعد ذلك ، اعتقد أن الأوربيين قد دنسوا سمعتهم بسبب ارتدائهم الملابس العربية ، ولذلك فقد جاء هو بملابسه القومية المتمثلة في الزي الروسي مع سيف وخوذة .

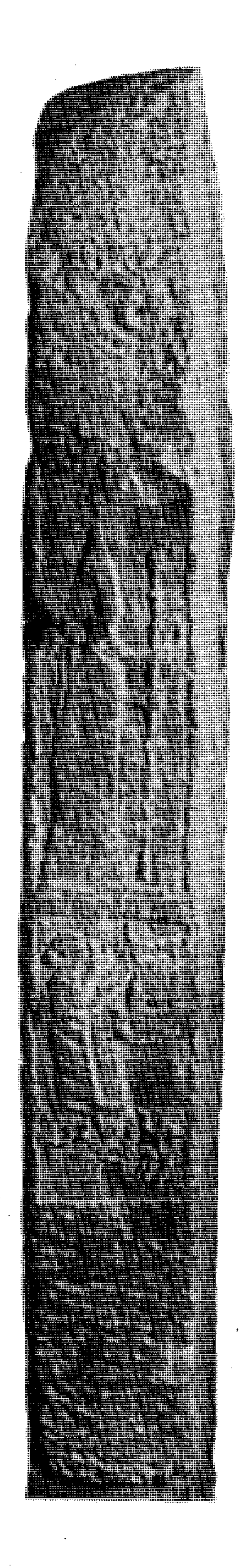
جـــرترود بـــل :

في بداية عام ١٩١٤م زارت حائل سيدة إنجليزية في الرابعة والأربعين من عمرها إسمها جرترود بِل Gertrude Bell ، وكانت ثاني سيدة تزور حائل ، وقبل مجيئها كانت قد زارت معظم مناطق آسيا الغربية ، بالإضافة إلى أنها كانت من أوائل مَنْ تسلق جبال الألب . اشترت هذه السيدة عشرين جملاً من دمشق ، واستأجرت ثلاثة جمالين وخادمين وشدت الرحِال دون أن تخبر السلطات البريطانية أو التركية ، لعلمها أنه لا يسمح لها بالقيام بهذه السفرة ، وقد أوقفها مسؤول تركي مرةً ، ولكنها استطاعت إقناعه بعد محاولة طويلة ، بالسماح لها بعد أن كتبت تعهداً يعفي السلطات التركية من مسؤولية ما يحدث لها وبعد أيام من بدئها الرحلة ، أوقفها شيخ من البدو ، فأعطته بعض



جـــرترود بـــل
(١٨٦٨ - ١٩٢٦م)

بدأت الرحلة في الشرق الأوسط حالاً بعد تخرجها من أكسفورد حيث كانت أول فتاة تحصل على مرتبة الشرف الأولى في التاريخ ، وفي عام ١٩١٦م أعلن مسئول رسمي «أنه قد اعترف بصفة عامة بأنها تفوق أي شخص من ذكر أو أنثى ؛ معرفة بالنسبة لكل القضايا العربية» وقد لعبت دوراً رئيسياً في تعيين الشريف فيصل كأول ملك على العراق «المتحف الوطني للصور بلندن» .



حجر تيماء يرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق.م وربما يكون أهم نقش آرامي (لغة المسيح الحقيقية) وجد في الجزيرة العربية ، ويسجل كيفية دخول معبود جديد وهو «صلم» إلى تيماء عن طريق كاهنه الذي قدم وقفاً للمعبد وأسس كهانة وراثية . ويظهر في هذا الجانب من الحجر ؛ المعبود [الوثني] في الجزء الأعلى والكاهن عند المذبح في الجزء الأسفل . «متحف اللوفر ، باريس» .

الهدايا ، بعدها سمح لها بالسير ، ولكنه اقترح على رجال قافلتها سراً ، بأن يقتلوها ويتقاسموا ما تتركه من الحاجات بينهم . كانت رحلتها شاقة ، وفي بعض الأحيان كانوا يقطعون ميلاً واحداً في الساعة خلال عبورهم صحراء النفود ، وعندما وصلت إلى حائل مُنعَت من الدخول ، وسُمح لها بالبقاء في دار الضيافة خارج أسوار المدينة . كانت جرترود قلقةً على وضعها المالي ، فبالرغم من أنها كانت تحمل صكاً مقداره مائتا جنيه ، إلاّ أنه مدفوع لحساب صاحب خزينة الدولة الذي كان خارجاً في غزوة نهب جمال ، مع الأمير ، وأخيراً استطاع بعض أصدقائها ، إقناع جدة الأمير ، والتي كانت فيما يبدو ، المدبرة الحقيقة لأمور الدولة المالية ، أن تعطيها بعض المال ، وقامت جرترود بِل ، بعدد من الزيارات ، وتعتقد أن الجو العام المحيط للحريم ، لم يختلف عما كن عليه في القرون الوسطى .وفي اليوم الأخير من بقائها ، والذي دام إثنى عشر يوماً ، سُمح لها بالتجول في أرجاء المدينة ، بعد ذلك ذهبت جرترود بِل إلى العراق ، الذي قضت فيه معظم ما تبقى من حياتها واشتغلت أولاً كخبيرة في أمور العشائر لدى سلطات الاحتلال البريطاني ثم مديرة للآثار .

موســـل ورســـوان :

زار الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية [الأولى] ، رجلان من أواسط أوربا ، وأسسا علاقة مع قبيلة «الرولة» المشهورة في شمال الجزيرة العربية وتجولا مع أفراد القبيلة وربما أنهما كانا عميلين للمخابرات بالإضافة إلى كونّهما عالمين ، وكان اسم الأول إلويس موسل Alois Musil والثاني اسمه كارل رسوان Carl Raswan ، وقد ادّعيا أنهما اخوة في الدم مع الشيخ نوري الشعلان ، الذي يُعتقد أنه قتل بيده سبعين شخصاً من ضمنهم معظم إخوانه ، هذا عدا من قتل من الأتراك الذين لم يعتبرهم من الجنس البشري ، وكان الشعلان دائماً مستعداً للقيام بتكرار عملية القتل ، فهو يحمل معه مسدساً مع ثماني وأربعين طلقة ، وبندقية قلما تترك يده ومعها مئة وعشرون رصاصة منظومة حول جسمه وقد وصف رسوان وموسل ، شعار القبيلة ، هو عبارة عن هودج محاط بريش النعام كدليل على السلطة ، وكان يُحْمل مع أفراد القبيلة في ساحات المعارك .

ومن خلال ما كتبه كل منهما ربما نجد وصفاً لحياة القبائل الرحّل ، فقد لاحظ موسل ، أن أي شخص يعضه كلب مسعور يُترك في البادية مع زاد يكفيه لمدة أربعين يوماً ، وإذا شوهد هذا الشخص قبل الفترة المحددة فإنه يُقتل فوراً ، ووصف لنا أيضاً الطريقة التي تستخدمها القبائل البدوية عند قطعها صحراء قاحلة : يُنتقى عدد من الجمال وتروى بكمية من الماء تصل إلى سبعة عشر جالوناً ونصف ، بعد ذلك إما أن تقطع ألسنتها أو تحاك مشافيرها حتى لا يختلط الطعام مع الماء ، وعند الحاجة ، تذبح الجمال ويُستخرج الماء من بطونها حيث يكون صالحاً للشرب إذا ترك لبضع ساعات . ويذكر لنا رسوان أنه في الصباح حيث البرد القارس ليس هناك من ماء ساخن للغسيل سوى بول البعير ! وبعد الحرب رجع رسوان إلى الجزيرة العربية ، وادّعى أنه اشترك في غزوة استُعْمِلت فيها السيارات .

لقد لاحظنا في فصل سابق أن الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩١٤م قد شهدت انتقال مركز القوة في نجد من ابن رشيد في حائل وعودتها إلى ابن سعود في الرياض ، ونتيجة لذلك أصبحت الرياض هدف الرحالة الأوربيين بدلاً من حائل ، ومن أوائل الذين زاروا الرياض في تلك الفترة ، رجلٌ دانماركي اسمه باركلي راونكير Barclay Raunkaier ، جاءها ليدرس امكانية ارسال بعثة ملكية استكشافية أخرى ، تضاهي تلك التي قام بها نيبور ، وبدأ رحلته من الكويت ، في شهر فبراير ١٩١٢م وكان عمره ٢٣ عاماً ، مع قافلة تألفت من خمسين رجلاً ومائة جمل ، وقد اتّسمت تلك الفترة بتعصب القبائل ضد الرحّالة الأوربيين ، وكان من العسير على أي شخص نصراني ، أن يقوم برحلة دون مصاعب ، وقد وجد راونكير كما وجد داوتي من قبله ، أن أهالي بريدة غير مستعدين لاستقبال غريب مثله ، وقارب على الهلاك فيها ، أما حاكمها فلم يقدم له سوى مساعدة بسيطة ، ووصفه راونكير بأنه : رجل يكاد يكون في منتصف العمر ، ومظهره غير جذاب ، فشعره مجعد وغير مضفور يتدلى على كتفيه ، فاقد النظر لأحدى عينيه والتي ملئت بالقذى ، بينما تبدو عينه الأخرى عبوسة ، غليظ الشفتين ، منتفخ الوجه والأصابع وبالرغم أن راونكير يحمل رسائل لحاكمه ابن سعود إلا أن حاكم بريدة

هذا قد صادر مسدسه ومنظاره(٥٧) .

لم يكن ابن سعود موجوداً [في الرياض] ، فاستقبله أبوه عبدالرحمن وكان «رجلاً كريماً ، دلت ملامحه على الخبرة والتجربة المثيرة والفخامة» ، استقبل زائره بلباقة ولم يكن مندهشاً من وجود هذا الرجل الدانمركي ، فتحدث معه عن الأمور السياسية العالمية حديث العارف ثم هيأ له دليلاً لمرافقة قافلته إلى الساحل وقد وصف راونكير الدليل بأنه متعصب وقليل الفهم والادراك . وكان راونكير مريضاً في أثناء الرحلة حتى إنه لا يستطيع الوقوف على رجليه إلا نادراً ولربما كان ذلك بسبب إصابته بالسل الذي أدى إلى موته بعد ثلاث سنوات ، وكانت الرحلة عسيرة ، فقد سرق الدليل كل المؤونة التي زوده بها الإمام ومرت أربعة أيام لم يأكل راونكير خلالها شيئاً وشرب ماء قذراً حتى إنه كان يسد أنفه من رائحته وقد مرت القافلة بطريق خطر ، ولكن أصحابه غير مبالين بذلك فكانوا يشعلون النار ويرقصون حولها ويلوون أجسامهم بالتواءات غريبة وفي نفس الوقت تسمعهم يولولون أكثر من كونهم يغنون أو أنهم يترنمون بأناشيد بصوت عال ، وقد وصل راونكير إلى مدينة الهفوف بسلام ووفر له الضباط الأتراك ما يريحه كأوربي .

جيـــرالد ليتشمـــان :

بعد بضعة أشهر من مغادرة راونكير الرياض ، دخلها [ضابط إنجليزي] اسمه جيرالد ليتشمان Leachman ، وذلك في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية ، وكان قبل ذلك قد اشترك في حرب البوير وترحل في التبت قبل أن يتجول مع قبيلة «عنزة» في عام ١٩٠٩م ، وعندما كان في مخيم هذه القبيلة البالغ حوالي ٣٥٠٠ خيمة ، هوجم المخيم من قبل ابن رشيد ، فهرب المقاتلون وهرعت النساء إليه يعطينه حليهن وجواهرهن لحفظها بينما بقي هو ، يعالج رجلاً أصيب بطعنة سيف في كتفه وذلك بخياطها ، وقد أسر ليتشمان ولكنه اعتبر ضيف شرف فاستمتع بضيافة فخمة يشرف عليها رجل ذو منصب

(٥٧) إنه فيما يغلب على الظن فهد بن معمر (المترجم ، وأنظر الهويمل ص ٣٧) .

وراثي وهو حامل الراية وكان شخصية بارزة ، يرتدي سترة ذات خيوط من الذهب وفي جسده جروح من إصابته بعشر رصاصات ، وقد بقي ليتشمان عند ابن رشيد بضعة أشهر ، توجه بعدها إلى البصرة ومنها قرر الرجوع إلى الهند ولكن عن طريق غير مباشر حيث قام بجولة على ظهر الحصان في كردستان والأناضول ، وقد انتهت جولته هذه برحلته التي أصبحت فيما بعد أسطورة ، وذلك لأنه قطع ٥٠٠ ميل من دمشق إلى بغداد ، على ظهر الجمل ، في تسعة أيام فقط . وفي رحلته الثانية لم يسافر بنفس السرعة ، ومع هذا فإنه كان يقطع ثلاثين ميلاً في اليوم من دمشق إلى الرياض ومن ثم إلى الساحل . لا توجد لدينا معلومات عن الجوانب السياسية لزيارة ليتشمان لابن سعود ، إلا أننا نعلم أنه خلال الحرب [العالمية الأولى] استطاع لوحده - بوسائل مختلفة ، منها استعمال القسوة ومنها الخداع ومنها الظهور بزي متنكر - أن يقنع القبائل بعدم شن الهجمات على الجناح الغربي للقوات البريطانية المتقدمة في العراق ، وأخيراً قتل ليتشمان في أغسطس من عام ١٩٢٠م في أول حادثة تقع أثناء المقاومة العراقية .

أما الشخص التالي وهو الكابتن شكسبير Shakspear ، فإن لقاءه مع ابن سعود ، كان بلا شك سياسياً ، وقد كان شكسبير [ضابطاً في الجيش و]ممثلاً لبريطانيا في الكويت ، وقد زار الرياض كجزء من رحلته التي قطع فيها الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل ، وقرب انتهاء رحلته استوقفه المقاتل البدوي المشهور ، عودة أبو تايه الذي سار فيما بعد مع لورنس لاحتلال العقبة وعندما أطلق سراحه كان معه سبعة جنيهات إسترليني فقط ، ومما قاله لورانس عن أبي تايه : «بوفاة عودة ستنتهي القرون الوسطى في الجزيرة العربية» (...) ، وعلى أية حال يبدو أن عوده أبو تايه لم يكن رجلاً عادياً كأحد رجال القرن العشرين .

بعد الحرب [العالمية الأولى] وبعد استخدام السيارات والطائرات ، أصبح السفر إلى نجد والأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية أكثر سهولةً ، وبعد الاكتشافات التي قام بها فلبي ، لم يبق هناك ما يستحق الاكتشاف إلا القليل ، ومع هذا فإن الرحلات في



عوده أبو تايه ، محارب قبلي عظيم فهو حسب ما ذكر لورنس ، تزوج ٢٨ مرة وجرح ١٣ مرة ، قبل انضمامه إلى قوات الأمير فيصل العربية ، وحينئذ احتفل بتهشيم أسنانه الإصطناعية التركية وكاد يموت من الجوع حتى زود بطقم أسنان من صناعة الحلفاء .

الجزيرة العربية بقيت مليئة بالمغامرات الشيقة ، ففي شتاء عام ١٩٣٥م حضر [الرحالة الإنجليزي] جيرالد ديجوري Gerald De Gaury عرضاً للفروسية اشترك فيه اثنان من أبناء ابن سعود ، سعود وفيصل اللذين توليا العرش فيما بعد ، حيث قاد كل واحد منهما فريقاً من رجال القبائل وابتعد كل فريق عن الآخر ثم أخذ كل منهما موقعاً مواجهاً للآخر في حركة بطيئة ، بينما خرج في المقدمة الفرسان ليلعبوا لعبة الرماح المعروفة بالجريد ، حيث يطارد كل فارس الآخر وعندما يقترب منه يرميه برمح خشبي غير مدبب ورويداً رويداً بدأت المجموعات في الدوران بسرعة أكبر ... واستبدلت الحركات البطيئة بحركات سريعة وأصبحت لحظة بلحظة تبدو وكأنها مناوشة حقيقية ، وفجأة اندفع فرسان أحد الفريقين نحو الآخر وفتح العدو صفوفه متجنباً تصادم الحيوانات ببعضها وتفادياً لحوادث كانت تبدو وشيكة الوقوع ، وكانت هذه إشارة لشن هجوم مضاد والوصول بالعرض نحو القمة ، وبدأ اطلاق النار في كل لحظة وأخرى وكان الأميران يقودان رجالهما في حركات إيقاعية سريعة وبمهارة فائقة وقد زاد من روعتها أنها لم تكن خاضعة لنظام محكم التخطيط ، وثار الغبار كما تصاعد الدخان من الرصاص المصنوع محلياً ، فغطي الميدان ، وفجأة مر من أمامنا فارس بأقصى سرعة وهو يحمل سيفاً طويلاً

أمامه ، بينما كان شعره وضفائره تتطاير وعيناه تبرقان ، وقد امتلأتا بنشوة الاعتداد بالنفس ، ذلك الاعتداد الذي لا يعرفه إلا الشباب من الجنود ، وكان ذلك الفارس هو الأمير فيصل نائب الملك في مكة وتسابق رجاله من خلفه ، وقد تطايرت ضفائرهم من ورائهم ، وكان بعضهم شبه عار حيث إن من عادات العرب أن يخلعوا ملابسهم حين المعركة ، وقد كانوا جميعاً في روح عالية . أما فريق ولي العهد والذي كان لدى رجاله نفس القدر من الروح العسكرية ، إلا أنهم أكثر انضباطاً ، فقد جاءوا مسرعين للهجوم واستداروا بأقصى سرعة أمامنا وهجموا على العدو ثم في اللحظة الأخيرة وبدقة متناهية مثير للإعجاب أوقفوا الخيول على أرجلها الخلفية ، فلا عجب إذا فيما أشار إليه ديجوري من أن عصر ابن سعود ، كان عصراً فريداً جمع فيه بين محاسن الحياة في العصور الوسطى ومدنية وحضارة القرن العشرين .

لقد رأينا سابقاً أن الإمام قد أشار عند اسقباله للرحالة بلى في عام ١٨٦٥م ، إلى أن الرياض مكان غريب بالنسبة لأوربي ليزوره ، ولذلك فإنه لا يمكن أن يخطر ببالنا أن نتخيل مدى دهشته فيما لو رأى بعد سبعين سنة ، حفيده يجلس على مائدة طعام واحدة مع حفيدة الملكة فكتوريا . ففي فبراير عام ١٩٣٨م ، قامت الأميرة أَلِس Alice بمصاحبة زوجها إيرل أثلون أخي الملكة ماري في رحلة عبر الجزيرة العربية وقد جاء ابن سعود للترحيب بهما في جدة وأقام لهما وليمة ذبح فيها عشرة خرفان لأربعة وثلاثين ضيفاً ولأول مرة على الإطلاق ، يجلس إمام ليأكل مع سيدة ، وقد علقت جريدة التايمز بقولها : «وبعد مأدبته الأسطورية ، أمتع المضيف ضيوفه بذكريات شبابه المثيرة للشجن» . وقد ارتدت الأميرة ألس ملابس عربية كا كانت متحجبة ، وكانت سيارتها متبوعة بجهاز إذاعي متحرك وبذلك عبرت الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل كما فعل سادلير ذلك بمشقة ، قبل قرن مضى . وتعتبر زيارة بعض أفراد العائلة المالكة البريطانية إلى الرياض مسك الختام لقصص الرحالة الأوربيين إلى نجد .

رحــالة في جنوب غرب الجزيرة العربيـــة

لقد ورد ذكر عدن في بعض كتابات الرحالة في القرون الوسطى ، فقد زارها الحاخام الأسباني «بنيامين» حوالي عام ١١٧٠م ، حينما كان في طريقه بحراً من البصرة إلى مصر ، فيما يعتقد ، وسماها «عدن» أو «الهند الوسطى» ، وظن بأن في مرتفعاتها قبائل يهودية مستقلة تعيش على نهب جيرانها المسلمين ، وبعد خمسين عاماً من ذلك التاريخ ، زارها ماركو بولو وقال عن سلطانها إنه يعتبر من أغنى أمراء العالم ، وقد قامت ثروته على تصدير الخيول إلى الهند وأضاف أنه بالقرب من عدن توجد جزيرتان ؛ الأولى اسمها «الذكر» والثانية «الأنثى» ويتكون كل سكان الجزيرة الأولى من الرجال ، أما سكان الجزيرة الثانية ، فكلهم من النساء ، وفي وقت الربيع من كل عام يبحر الرجال يومياً ولمدة ثلاثة أشهر ، عبر المضيق إلى [جزيرة النساء] ، وعلى مسافة قريبة من هناك تقع جزيرة «سوقطره» وأهلها نصارى يتجولون وهم عرايا ويمتلكون قدرات فائقة في السحر فإذا مرت سفينة دون أن تدفع الضريبة المفروضة عليها بإمكانهم تغيير اتجاه الريح ثم جلبها إلى الميناء .

في حوالي عام ١٤٩٦م ، زعم رجل ألماني اسمه راينلاندر فون هارف Rhinelander Von Harff أنه زار الجزيرة العربية بواسطة سفينة خلت من المسامير ، حيث استعملت كما يقول حجارة مغناطيسية جذبت كل قطع الحديد ، وأضاف مدعياً أنه شاهد معركة كبيرة بين حيوان بحري ضخم «لوياثان Leuiathan» وحوت كبير فقال : «اللوياثان حيوان له أربعة أقدام ، وكل قدم تنتهي بمخالب مثل الحيوان الخرافي الغرفين ولـه زعانف كالطير ، كبيرة الحجم تساعده في القفز عالياً على سطح البحر ، وله ذيل طويل وغليظ يضرب به بشراسة ، وفم كبير وأنياب ضخمة ، لذلك فإنه بمخالبه الطويلة ، وبأسنانه الحادة وبذيله وقفزاته الطائرة ، هجم على الحوت بقوة

ووضعه في مأزق خطر ، وعندما أصبح الموقف بالنسبة للحوت أسود ، فقد دافع عن نفسه بامتصاص ثلاثة أطنان من الماء ثم نفثها من فمه ، فهزم اللوياثان بالضربة القاضية» . ومما تضمنته مغامرات هارف في الجزيرة العربية هي زيارته لقبر الرسول ﷺ الذي قال بأنه يقع على ضفة نهر كبير في مدينة مكة ، وكذلك زيارته لقبيلة من النساء الأمزونيات ذوات النهد الواحد . إن هذه المشاهدات الخرافية التي ذكرها هارف تجعلنا نغض النظر عما ذكره في كتاباته .

وفي السياق التالي نأتي على ذكر معلومات أكثر جدية ، ففي عام ١٥٠٤م دخلت البحر الأحمر أول سفينة برتغالية ، وبعد سنتين من ذلك أسس البرتغاليون قلعة في سوقطرة ، وفي مارس ١٥١٣م رست في ميناء عدن سفينة عليها [القائد البحري البرتغالي] أفونسو البوكيرك Afonso D'Alboquerque وقد وصف عدن بأنها تحتوي على بيوت جميلة تحت وقاية سلسلة من الجبال الشاهقة التي توجت كل قمة منها بقلعة ، وقد حاول البوكيرك اقتحام أسوار المدينة فجاء عند الفجر بعدد من السلالم الخاصة التي تحمل ستة رجال جنباً إلى جنب لتسلق السور إلا أنها انكسرت وقد تم أسر العدد القليل الذي تمكن من الدخول فقبل البوكيرك بهذا الواقع ولكنه لم يكن واقعياً عندما غادر على أمل القيام بمشروعين : أولاهما ، إنزال قوة على الساحل العربي بهدف غزو المدينة لأخذ جسد الرسول ﷺ واستبدالها بمدينة القدس ، وثانيهما هو تغيير مجرى النيل ليصب في البحر الأحمر لتصبح مدينة القاهرة بالتالي جافة ومرتفعة .

وفي عام ١٥٣٨م وصل إلى عدن أسطول تركي ، ووجه قائده دعوة إلى السلطان لحضور وليمة على ظهر إحدى السفن ، وما أن وصل السلطان حتى شنقه الأتراك وعلقوا جسده على عارضة السفينة ، وهكذا تمت السيطرة على عدن وأصبحت تحت إشراف الوالي العثماني في صنعاء ، وفي أوائل عام ١٥٩٠م وقرب سواحل جزر كوزيا موريا أسر راهبان برتغاليان من جماعة الآباء اليسوعيين ، وكان اسم الأول بيدرو بيز Paez والثاني أنطونيو مونتسيرات Montserrat وسيقا إلى الوالي التركي في صنعاء ،

وكان هذان البرتغاليان قد أمرا بالذهاب من غوا [بالهند] إلى الحبشة ولكي يتجنبا مسارح الصراع بين البحرية البرتغالية والبحرية التركية للسيطرة على البحار ، قررا السفر إلى البصرة ، ومنها إلى حلب ثم القاهرة ومن هناك يسافران عبر النيل إلى الحبشة ، وقد تنكّرا في زي أرمني ، وعندما وصلا إلى هرمز وجدا قارباً عربياً صغيراً ، وعد ربانه أن يأخذهما إلى أفريقيا مباشرة ، ولكن الربان غدر بهما [فأخذهما إلى السلطان] ، وبهذا أصبحا من أوائل الأوربيين الذين زاروا حضرموت . وقام باستقبال الراهبين نيابة عن السلطان أخوه الذي أعطاهما شراباً يسمى «قشر» ، يُحضرّ بغلي قشر نوع من الفاكهة ، ومن الجائز أن يكونا من أوائل الغربيين الذين شربوا هذا النوع من الشراب المحضر من نبات القهوة(٥٨) ، وقد عاشا بضعة أشهر بين رجال يدهنون شعورهم بالزبدة ثم يجعدونه بحديد حار ، وكان عليهما أن يتحملا مرتين في اليوم مجموعة من النساء ينحن ويضربن في الصباح صدورهن حزناً على وفاة أميرة، وأخيراً بدءا رحلتهما إلى صنعاء على ظهور الجمال والتي إستغرقت أربعة أيام دون توقف ودون أن يذوقا طعم النوم خوفاً من سقوطهما من ظهر جمليهما ولم يسلك أي رحّالة أوربي ذلك الطريق للدخول إلى اليمن حتى الثلاثينات من هذا القرن ، وبقي الراهبان في اليمن لمدة خمس سنوات عملا خلالها في خدمة البساتين ، حتى أُفرج عنهما . واستطاع بيز أن يصل إلى هدفه وهو إقناع الإمبراطور باعتناق المذهب الكاثوليكي ، بالإضافة إلى أنه أصبح مسؤولاً عن بعض البنايات الجميلة في الحبشة ، كقلعة «غوندار Gondar» وقد قام بصنع كل الأدوات التي استُعملت في بنائها ، كما قام بتدريب كل البنّائين والنجّارين والعمال .

في شهر أبريل من عام ١٦٠٩م ، وبعد قرن كامل من وصول البرتغاليين إلى عدن ، وصلتها أول سفينة إنجليزية ، وكان عليها تاجر اسمه جون جوردن John Jourdain ووصف لنا ما حدث فقال : «... استقبلنا الأهالي على أنغام المزامير والدفوف وغيرها من الآلات الموسيقية ، ثم أسكنا في بيت أصبح فوراً سجناً لنا ، وقد قرر حاكم

(٥٨) القشر : نوع من القهوة التي يتناولها اليمنيون وبعض السكان في جنوب غرب المملكة العربية السعودية ، وتعمل من القشر الذي يغلف حبوب البن وقد تحلى بالسكر (المترجم) .

المدينة ، وهو أغريقي نبذ دينه ، أن تنزل كل بضائعهم إلى المرفأ ، وبعد أن تم إنزال بعضها استولى عليها لمصلحة الجمارك ، وكان الحاكم مستاءً جداً لعدم الحصول على كل بضاعتهم ، وأخيراً وافق على إطلاق سراح السفينة ، على شرط أن يذهب جوردن وشخص آخر إلى صنعاء كسجينين إلى أن تسوي كل الأمور ، وقد وصلا إلى هناك دون حادث يذكر واستقبلهما الباشا بلطف حيث سمح لهما بتقبيل صدرته ، وقدم له جوردن طلباً بفتح مركز تجاري في صنعاء ، ولكن الوالي التركي أجابه أنه ليس من صلاحيته البت في مثل هذه الأمور دون أن يتلقى الأوامر من السلطة العليا وعندما يتسلم الأمر فإنه سيرحب بجوردن ورفيقه من كل قلبه ويضع الأمر فوق رأسه . هذا واستطاع جوردن أن يلحق بسفينته في مخا التي وصفها أحد أفراد بحارة السفينة بأنها «مركز تجاري كبير لبضاعتنا مثل القصدير والحديد ، والرصاص ، والقماش ، وأنصال السيوف .. وللمدينة سوق كبير ، يفتح في كل أيام الأسبوع .. سعر الثور : ثلاثة دولارات ، وسعر العنز : نصف دولار ، وكمية من السمك تكفي لإطعام عشرة أشخاص بسعر ثلاثة بنسات» ، وبهذه الأوضاع السارة ، استطاع هؤلاء الإنجليز إنهاء أعمالهم التجارية بنجاح ، وقد قام جوردن بمغامرات كثيرة أخرى قبل أن يقتل في صدام مسلح مع الهولنديين في جزر الهند الشرقية .

وبعد عام واحد من مغادرة جوردن ، وصل إلى ميناء مخا ، إسطول تجاري ثان تحت قيادة السير هنري مدلتون Middleton واستقبلهم نفس الحاكم الأغريقي ، الذي كان قد غدر برفاقهم في عدن ، واتضح في الحال أنه لم يترك طبعه القديم ، فبعد أن رحب بالقادة على الشاطيء ، قام رجاله بهجوم مباغت ، قتل فيه ثمانية من الإنجليز ووضع الباقون في السلاسل أما السير هنري فقد أمِرَ بإعطاء التعليمات للإسطول بالتسليم ولما رفض ذلك ، زج به في مكان قذر تحت الدرج وهو بيت الكلاب .. كانت الأرض القاسية فراشه ، ومخدته قطعة من الحجر وكان كسير القلب وحيداً ولا يشاركه في وحدته سوى الفئران التي تتسلق عليه وتوقظه حالما ينعم بالنوم .

وبعد مرور شهر ، وصلت الأوامر من الباشا [في صنعاء] وكان على هذه الجماعة التعيسة أن تسافر مشياً على الأقدام لمدة أسبوعين خلال المرتفعات الجبلية حيث كثيراً ما يصل الثلج إلى سمك الإصبع ، وما أن وصلوا إلى صنعاء حتى حيتهم فرقة موسيقية تألفت من مائتي شخص ولكن الباشا أخبرهم ، وعلامات التجهم والغضب بادية على ملامحه ؛ أنه لا يستطيع إطلاق سراحهم قبل أن يتسلم الأوامر من القسطنطينية ومع ذلك فإنه أعرب عن استنكاره لما عمله حاكم مخا بهم وقال بأنه سيسلخ جلده من أسفل جسده إلى ما فوق أذنيه ويعطيهم رأسه كهدية مهما كان رأيه فيما أقدم عليه من تصرف ولكن السير هنري رفض ذلك ، وبعد أن قضوا شهرين في سجن صنعاء ، بعث بهم مرة أخرى إلى مخا ولكنهم ما زالوا سجناء غير أن السير هنري تمكن من الهروب داخل برميل ووجه مدافع أسطوله نحو المدينة وهدد بقصفها على مسمع من الباشا ما لم تعد كل البضائع التي سرقت منهم في الحال وأن تدفع لهم تعويضات ، وبعد أن قام بعملية قرصنة محدودة ، لينفس عن مشاعره ، أبحر إلى الجنوب والجنوب الشرقي لآسيا .

لقد أحيط مدلتون علماً ، أنه لا يمكن للنصارى الحصول على تسهيلات في أي من مرافىء الأراضي المقدسة في الجزيرة العربية ولكن بعد سنتين من ذلك وصل إلى عدن أول أسطول هولندي ولقى ترحيباً، وهناك في عدن حدث ظلام رهيب كعاصفة المطر مصحوباً بحمرة كوهج الفرن وكان النظر إليه ممتعاً ومزعجاً في آن واحد ، لقد كانت عاصفة رملية ، تركت السفن مغطاة بغبار سميك بحجم الإبهام بعدها غادر الأسطول متوجهاً شرقاً إلى مدينة شهر[٥٩] ، حيث نزل فيها ثلاثة من البحارة مع قليل من النقود وبعض القماش الرخيص ووعد الملك بأنه سيحميهم كمقلة عينه وسمح لهم أن يقضوا وقتاً ممتعاً بين الأهالي الذين رحبوا بهم (...) ، وبعد ثمانية عشر شهراً تقريباً رجع [الأسطول إلى شهر بقيادة] الأدميرال بيتر فان دن بروك Van Den Broeck وأخذ معه

---

(٥٩) شهر : ميناء صغير تقع على بعد ٣٥ ميلاً شرق شمال شرق المكلا ، كانت مشهورة بتجارة السمك المجفف وتصدير الخيول والبخور ؛ أول من زارها من الأوربين «مانويل دا فاسكو نسلّو» وذلك في عام ١٥٣٢م . (Western Arabia, P. 149 - 150) — المترجم .

الشخصين اللذين بقيا على قيد الحياة وواصل طريقه إلى مخا ، وقد دعي بروك إلى صنعاء لمقابلة الوالي الذي دل مظهره على أنه رجل دولة ، فقد أحاطت به حاشية تكونت من مائتي رجل من الأعيان في ملابسهم الفاخرة ، ونمر أليف [جاثم على الأرض] ، وقد أعجب هذا الهولندي بما رآه في صنعاء من آثار ، خاصة البئر التي يقال إنها حفرت بيد يعقوب وماؤها الذي لا يشرب لشدة برودته كما شاهد رفات سفينة نوح التي وضعت في المسجد الكبير .

وقد أهدى الباشا إلى بروك سترة مطرزة بخيوط من الذهب ، إلا أنه لم يسمح له بفتح مركز تجاري ، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى فتح الطريق إلى الأراضي المقدسة . ومع هذا فإنه في عام ١٦٢٠م كان لكل من هولندا وإنجلترا مراكزهما التجارية ، حتى إن بعض التجار الأوربيين استطاعوا البقاء في صنعاء ، بعد طرد الأتراك منها في عام ١٦٣٠م[٦٠] . وعندما تسلم الإمام دفة الحكم في البلاد ، عمل على تشجيع التجارة في بلده خاصة تجارة البن وكثيراً ما رست السفن الأوربية في الميناء ، وكان الشخص الذي قدم المساعدة لبعثة نيبور ، اسكتلندياً ، ثم فيما بعد كان هناك رجل اسمه كامبل وصف نفسه بأنه القائد العام للتجهيزات العسكرية في مملكة صنعاء وكان قبل ذلك مسئولاً عن مدفع إحدى السفن وقتل أحد زملائه البحارة على أثر مشاجرة ، غير أن لديه روحاً طيبة دائماً ما دفعته إلى تقديم المساعدة للمسافرين البريطانيين .

قليل من الأوربيين من استطاع التوغل بعيداً في داخل جنوب شبه الجزيرة ، ما عدا بعثة فرنسية زارت عدن في بداية القرن الثامن عشر ، وبصرف النظر عن حمامات المدينة الرخامية والأحجار الثمينة ذات اللون الأخضر ، فإن عدن قد ذكرتهم بمعرض مدينة سانت جرين St. Germain ، وفي زيارتهم الثانية إلى مخا ، طلب منهم أن

(٦٠) لقد تم إخراج العثمانيين من اليمن في عام ١٦٣٥م وذلك في عهد السلطان مراد الرابع ، وكان واليه على اليمن آنذاك أحمد قنصوه باشا وقد تم ذلك في عهد الإمام المؤيد محمد القاسم (١٦٢٠ - ١٦٤٥م) (أنظر عمر ، ص ٢٠٩ - ٢١١) - المترجم .

يبعثوا بطبيب إلى مدينة مواهب قرب ذمار لمعالجة الإمام الذي كان يعاني من خراج في أذنه ، وقد وجدوه مثيراً للشفقة ، فقد كان في السابعة والثمانين من عمره ، بسيط الملبس فلا يملك إلا قليلاً من الأبهة . وقد أسكنهم في بيته وأطعمهم من مطبخه . وقد كانت تلك تجربة فشل الفرنسيون بالطبع في الاستفادة منها . وبعد ثلاثة أسابيع أعلن الإمام شفاءه ، واحتفل بهذه المناسبة بزواجه من فتاة عمرها ثماني عشرة سنة ليضيفها إلى حريمه البالغ عددهن ٦٠٠ سيدة[٦١] .

وبانتهاء القرن الثامن عشر ، ازداد عدد الرحالة الإنجليز لأسباب منها : أولاً كثرة استعمال الطريق البري إلى الهند وأيضاً للحد من أي نشاط فرنسي محتمل [في المنطقة] ، نتيجة للحرب النابليونية ، وقد استعمل اثنان من الرحالة كلمتين أصبحتا شائعتين في الغرب ، فقد ذكر الميجر روك Rook الذي زار مخا قائلاً : «لقد عاينت مشهداً غريباً يسمى في الشرق «شامبو Champooing»[٦٢] ، فعند دخولي صدفة إلى شقة صديقي ، وجدته مطروحاً على وجهه على الأرض وهو عاري تماماً ؛ بينما يقوم الأشخاص الذين في خدمته ، بتدليكه ، وظننت في بادىء الأمر ، أن صديقي كان في حالة إغماء ، وأن هؤلاء يحاولون إيقاظه ، إذ كانوا يقرصونه ويهمزونه بشدة» ، غير أن روك اندهش عندما علم أن ما شاهده من عملية التعذيب هذه ، ما هي إلا لإدخال السرور على صديقه ولكن روك يعتقد جازماً أن عملية «الشامبو» هذه لن تنتشر في إنجلترا .

وفي عام ١٧٩٥م ، أي بعد سنوات قليلة ، زار المنطقة البروفيسور كلوجهورن Cloghorn من جامعة سانت اندروس [في إسكتلندا] ، ولاحظ مجموعة من صيادي السمك من السكان المحلين يقتلون سمك القرش وهم جالسون على ظهر مركب يسمى «القطمران»[٦٣] ، الأمر الذي لا يمكن تخيله إلا من قلة من كتاب الرواية ، وكان

(٦١) إمام اليمن آنذاك هو المهدي محمد بن أحمد بن الحسن ولد عام ١٤٠٧هـ ومات عام ١١٣٠هـ (الواسعي ، ص ٢٢٢) – المترجم .

(٦٢) كلمة هندية معناها تدليك (المترجم) .

(٦٣) القطمران : مركب بسيط مؤلف من ألواح خشبية والكلمة سيلانية الأصل (أنظر المورد ، ص ١٥٨) المترجم .

كلوجهورن في طريقه إلى سيلان للقيام بمهمة سرية تهدف إلى شراء ولاء الحامية العسكرية فيها ، والمؤلف معظم أفرادها من السويسريين المرتزقة ، وكانت سيلان تابعة حينذاك للامبراطورية الهولندية التي انضمت أخيراً للحرب ضد بريطانيا . وفي النهاية حقق كلوجهورن نجاحاً باهراً في إقناع سيلان بقبول الحماية البريطانية .

كان نيبور محظوظاً عندما شهد ، خلال إقامته القصيرة في صنعاء ، الإمام يتقدم الناس في صلاة الجمعة في العاصمة وقد حضر راكباً يتبعه الأمراء ومئات من الجنود ، وقد احتمى بظل مظلة كبيرة من حر الشمس ، وهي شعار الملكية ، وعلى جانبيه حملت رايتان وضعت على كل واحدة منها علبة فضية في داخل كل منها تعويذة ، يتخيل الناس بتأثيرها أنه إنسان لا يقهر .. كان الراكبون يحثون السير مبتهجين ، والكل ذهب في ارتباك . وعلى مقربة من أحد البوابات ، إصطفت بعض الجمال تحمل هوادج خصصت في مثل هذه المناسبات لزوجات الإمام غير أنها كانت حينئذ خالية وكان تواجدها آنذاك ، فقط لتكملة عناصر الموكب ، وخلف هذه الجمال كان هناك إثنا عشر جملاً آخر فقط تحمل أعلاماً ورايات صغيرة رفعت على سروجها . وبعد سبعين عاماً من زيارة نيبور إلى صنعاء ، جاءها في عام ١٨٣٦م شخص اسمه كروتندن Mr. Cruttenden من القوات البحرية البريطانية في الهند ، وشهد كذلك [مسيرة الإمام إلى] صلاة الجمعة فلاحظ أن الإمام كان يحمل رمحاً ذهبياً رأسه من الفضة ، وقد ركب ووضع يده اليسرى على كتف أحد خدمه ، وحين وصل الركب إلى ساحة القصر ، اصطف الخدم والأتباع حول الساحة ثم دخل الإمام يتبعه أقاربه وخاصته ، وقد تظاهر بأنه سيهجم على أحد الفرسان الذي كان يقف قريباً منه ، ثم ترجَّل ، وكان باستطاعة أي شخص يرغب في تقبيل ركبته أن يفعل ويقدم له عريضته .

وفي نفس العام زار صنعاء شخص غريب الأطوار اسمه جوزيف ولف Joseph Wolff ، وُلد في عام ١٧٩٥م من أب ألماني كان حاخاماً يهودياً ، إلاّ أن ابنه نبذ الديانة اليهودية وأصبح نصرانياً على المذهب الإنجليكاني ، وعهد على نفسه أن يقود حملة

تبشيرية بين يهود الشرق ، لتنصيرهم ، وفي عام ١٨٢١م بدأ رحلته من فلسطين ، وأخذ معه عشرين جملاً محملةً بالأناجيل ، وتوجه إلى بغداد ثم إلى شيراز ماراً بعدد من القبائل الكردية الذين ضربوه وسلبوه ، وبعد زيارة إلى القوقاز وجد ولف نفسه في الاسكندرية ، فاستأجر له خادماً ، اتضح فيما بعد أنه كان من أكلة لحوم البشر ، ولم يشف من هذه العادة إلا قليلاً ، ثم ارتحل ولف إلى بخارى ، منهياً بذلك آخر مرحلة من رحلته وقد كان مربوطاً وهو عارٍ إلى ذيل حصان ، وبعد مغادرته لتلك المدينة ، وقبل أن يذهب بعيداً ، قابلته جماعة من الناس هددت في البداية بقتله ثم فرمه ولكنها اكتفت بأن أرغمته على نزع ملابسه – وكان ذلك في فصل الشتاء – والسير على قدميه لمسافة ستمائة ميل حتى وصل إلى مدينة كابول وفيها أصيب بخيبة أمل ، إذ لم يعثر على قبائل بني إسرائيل المفقودة وأخيراً وصل إلى إنجلترا سالماً ، وهناك تألم كثيراً عندما وجد نفسه يشار إليه على أنه قد تقمص شخصية البارون ماتشهاوزن ، لذلك فقد غادرها على وجه السرعة في رحلة تبشيرية أخرى ، فسافر في عام ١٨٣٦م إلى الحبشة ، وهناك تسبب في بعض الارتباك عند الناس ، الذين أعتقدوا أنه متنكر في زي بطريق قبطي ومن ثم غادرها إلى اليمن باحثاً عن قبيلة يهودية ، أفرادها من البدو الرحّل ذُكرت في التوراة ، ولكنه وجد اليهود اليمانيين من الحضر ، ومن أصحاب الحرف ، وقد أهداهم نسخاً من قصة روبنسون كروزو مترجمة إلى اللغة العربية[٦٤] ، غير أنه لم يجد منهم إزاء دعوته سوى تجاوب بسيط ، والسبب في ذلك هو أنه بالرغم من ادعائه معرفة أكثر اللغات الشرقية ، إلاّ أن أحداً لم يفهم ما كان يقوله . وفي طريق رجوعه إلى الساحل مر بقبيلة متعصبة مثل قبائل أخرى كثيرة في الشرق الأوسط وقد شعرت هذه القبيلة بأن هذا الرجل يستحق الضرب بالسياط المبرحة . [وبعد أن غادر اليمن سافر إلى أمريكا] وقضى حينئذ فترة هادئة نوعاً ما بالنسبة له ، شغل خلالها منصب راعي الابرشية في [ولاية] ماساشوستس ولكن بعد وقت قصير رجع إلى إنجلترا وبعد فترة قصيرة من رجوعه أنيطت به مهمة الذهاب إلى بخارى ، لتقصي أمر ضابطين بريطانيين هناك ، وضعا في السجن بأمر الأمير ، وفي هذه الرحلة ادعى بأنه الدرويش الأعظم ، لكل من بريطانيا وكل أوربا

(٦٤) روبنسون كروزو : رواية مشهورة في الأدب الانجليزي كتبها في القرن الثامن عشر ، دانييل ديفو (المترجم).

وأمريكا ، وقد تزيا بزي أساتذة الجامعات وأرتدى قبعة مضلعة ومعطفاً أسود مع قلنسوة قرمزية ولسوء الحظ أنه وصل متأخراً ولم يستطع بالتالي مساعدة الضابطين السجينين والغريب أنه استطاع الرجوع إلى إنجلترا في الحال ، نافذاً بجلده من غير أذى ، وقضى أيامه الأخيرة يعمل قسيساً في قرية صغيرة في مقاطعة سمرست بإنجلترا .

بعد عشرين عاماً من زيارة ولف صنعاء ، زارها رجل آخر مشابه لولف في سيرته غير أنه أقل حماساً منه واسمه هنري آرون ستيرن Aaron Stern ، وكان أيضاً يهودياً ألمانياً دخل في الديانة المسيحية ، وحاول تنصير اليهود ، وبعد أن خدم فترة طويلة في كل من بغداد وإيران ، تبع الجيش البريطاني إلى شبه جزيرة القرم ، في محاولة يجرب فيها حظه من التبشير بين اليهود الروس ، وبعد أن فشل في محاولته هذه ، ذهب إلى اليمن متنكراً في زي درويش وسمى نفسه عبدالله وحلق رأسه ولحيته وشاربه واتجه إلى صنعاء وأقام بها بضعة أشهر ، وبالرغم من الاستقبال الودي الذي لقيه إلا أنه فشل في تنصير أي من أصحاب الديانات الأخرى وعندئذ عبر البحر الأحمر إلى الحبشة للتبشير بين جماعة «الفلاشة» اليهود السود في الحبشة ، وقد تشاجر مع الامبراطور المعتوه ثيودور الذي طالب بمبارزته بالسيف أو الرمح أو المسدس أو حتى المدفع – وذلك حسبما ذكره كاتب سيرة حياة ستيرن – وقال له الامبراطور : إن لم تكن إمرأة ، أيها الوغد الشرير ، فاختر أيها شئت ، ودون أن يبدي ستيرن أي شعور بالخوف منه أو الاستهزاء به ، فقد رفض المبارزة ، وعندئذ انتابت الرجلين اللذين كانا يحرسانه نوبة هستيرية فسجن ستيرن في قلعة «المجدلة» المشهورة ، وبقى فيها أربع سنوات حتى جاء الجنرال نابير Napier على رأس بعثة إلى الحبشة وتم إخلاء سبيله على يديه ، وقضى ستيرن بقية حياته وقد ذبل نشاطه المنطوي على المخاطرة ولكنه عمل بجهد أكثر وبطريقة أخرى في محاولة للتبشير بين اليهود القاطنين في حي هوايتشابل [في لندن] .

في منتصف القرن [التاسع عشر] قام مغامران فرنسيان باكتشافات في اليمن وكان أرنو Arnaud قد اشتغل صيدلياً مع الجيش المصري قبل التحاقه بخدمة الإمام في نفس

المهنة ، وفي عام ١٨٤٢م رجع إلى صنعاء ولكن هدفه الحقيقي في هذه المرة هو زيارة مأرب ، التي كانت عاصمة لأحد الممالك القديمة ومركزاً حضارياً مزدهراً لوجود السد الذي بنته ، كما يقال ، ملكة سبأ والذي جلب الرخاء لمنطقة واسعة هناك . ويعتبر خراب السد ، الذي حدث ، فيما يعتقد ، في القرن السادس [الميلادي] ، كارثة أدت إلى حدوث تغيّرات تاريخية وجغرافية في شبه الجزيرة العربية ، وما برحت آثاره ماثلة للعيان . ارتدى أرنو فوق سرواله الطويل إلى منتصف الساق قميصاً ينسدل إلى ركبتيه ، وعمامة ملفوفة فوق رأسه ، ونعالاً ، ورافق قافلة من الجمال التي تحمل الذرة إلى الشرق وتعود محملة بالملح ، وقد تم إيقافهم عدة مرات من قبل قطاع الطرق من رجال القبائل ولكنهم أخيراً وصلوا إلى سهل غني فوق العادة بالآثار القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام من مقابر وكتابات ، وقد أخبر أرنو عن رجل أبيض قال بأنه من أقصى الغرب ، جاء إلى هنا قبل عشرة أعوام لقراءة النصوص الحجرية ، وقد تسلم خطاباً ، لم يعرف أحد كيف تم ذلك ، ثم أختفى هذا الرجل بطريقة غامضة تاركاً بقشيشاً من قطع ذهبية آثارية ، وشك الناس في أمر أرنو معتقدين أنه ساحر أيضاً جاء للبحث عن كنز ، وقد تعرضت حياته للخطر أكثر من مرة . وبعد بضعة أيام قضاها بين الآثار ، لحق بالقافلة وهي في طريق عودتها . وبدون شك أدرك أرنو أنه حظيظ برجوعه إلى صنعاء سالماً .

جـــوزيف هـــالفي :

وفي عام ١٨٦٩م وصل إلى اليمن رجل فرنسي آخر ، اسمه جوزيف هالفي Joseph Halevy مبعوثاً من الأكاديمية الفرنسية لدراسة الكتابات القديمة ، وأخذ يتنقل بين الأهالي في زي اليهود اليمانيين ، مرتدياً أشمالاً قطنية بالية مع البرنس [غطاء الرأس] ، حافي القدمين وبدون سروال ، كما عمل عقصات طويلة في شعره وادعى أنه حاخام من القدس وكان انتماؤه لهذه المدينة المقدسة ، ميزة مكنته من تهديد المشاغبين ضده ، بسوء العاقبة إذا هم تمادوا في مضايقته ، ولكن من ناحية أخرى فإن ادعاءه هذا ، قاد بعض اليهود الأقل تعليماً ، إلى الاعتقاد أنه المسيح ، بينما احتار بعض العامة من الناس في أمره ،

فمن قائل بأنه المهدي المنتظر ، الذي جاء لانقاذ البشرية ، ومن قائل بأنه المسيح الدجال الذي جاء لتدميرها ، وفي مرة من المرات سئل عن صخرة غير مرئية يقال إنها تنزل من السماء ببطء فوق القدس ، وعندما تلمس أعلى منارة في المدينة ، فإن العالم سيأتي إلى نهايته ، وكان جوابه لبقاً ، وهو أن هناك رجالاً أكثر منه قداسة وعلماً وهم وحدهم القادرون على رؤية تلك الصخرة .

ووجد هالفي صعوبة في التنقل ، وذلك لأن اليهود كانوا يمنعون من ركوب الحمير في حضرة المسلمين ، إلاّ إذا كان الشخص مريضاً ، ودائماً ما ادّعى هالفي بأنه مريض ، وكذلك فإنه كان عرضة للتفتيش من قبل المسلمين ، ليتأكدوا أنه ليس من الدجالين ، وقد حُذِّر عدة مرات من الذهاب خارج المدينة لمسافة بعيدة ، لاحتمال تعرضه لسوء من الشيطان أو من رجال القبائل ، ومع هذا فإنه لقى في بعض الأحيان استقبالاً حسناً بين القبائل ، وقد أصابته الدهشة مرة حينما رأى مضيفته خلعت سروالها الفضفاض ثم غسلته في صحن كانوا قد تناولوا فيه طعامهم ، وأصبح هالفي أول أوربي يدخل نجران ، منذ أن تركها الرومان[٦٥] ، وفي طريق عودته مر بمدينة مأرب ، وأخذ معه ٦٨٥ نصاً من الكتابات القديمة التي ساهمت كثيراً في زيادة المعلومات عن تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وفي عام ١٨٤٩م استطاع الأتراك العثمانيون الرجوع إلى اليمن وتأسيس موطىء قدم لهم على الساحل هناك ، وبافتتاح قناة السويس ، أصبح من السهل عليهم إرسال امدادات عسكرية ، مما مكنهم من احتلال صنعاء مرة أخرى في أبريل من عام ١٨٧١م ، وقد رُحب بهم هذه المرة إلى حد ما ، حيث وضعوا حداً للفوضى السائدة

(٦٥) يشير المؤلف فيما يبدو إلى الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة العربية التي قادها إيليوس غالّوس ، الوالي الروماني على مصر ، في عام ٢٤ ق.م والتي باءت بالفشل (أنظر ، جبرا ، ص ٢٦٣ – ٢٦٦) – المترجم .

على غير العادة ، وبقى الأتراك هناك حتى عام ١٩١٩م باستثناء فترات قصيرة ، ولهذا فإن الرحالة الثلاثة التالين قد جاءوا إلى اليمن أثناء الوجود التركي ، إلا أن الحكم التركي لليمن على أية حال ، قد تعرض لكثير من المتاعب بسبب الثورات التي حدت بالأتراك إلى عدم تشجيع قدوم الأجانب إلى اليمن ، وفي تلك الفترة ، شهدت اليمن شيئاً من التقدم المادي ، فالدراجات العادية والمقاهي ، والدكاكين المحتوية على مواد من البضائع الأوربية ، أصبح شيئاً مألوفاً في العاصمة .

في عام ١٨٩٢م وصل إلى اليمن رجل [إنجليزي] اسمه وولتر هاريس Walter Harris كان قد عاش من قبل في المغرب وأصبح خبيراً في فن التنكر ، ووصل إلى مناطق لم يجرؤ أي أوربي على الوصول إليها ، وحينما وصل إلى عدن انتحل شخصية تاجر إغريقي – والتنكر بالنسبة له كلعبة الأطفال – [وتنقل بين الأهالي حتى دخل اليمن] ، وأعجبته الطبيعة فيها كثيراً ، وقال «لقد دخلنا اليمن السعيد ، وشاهدنا جداول المياه الصغيرة تجري فوق الحصى في كل مكان حولنا وقد انتشرت أعشاب الخنشار على ضفاف الجداول ، إن الإنسان لا يدرك الموسيقى الصادرة من خرير المياه الجارية ، إلا إذا تجول في المناطق الصحراوية ولا يشاهد سوى برك موحلة ، تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة يومين أو ثلاثة»، ومع ذلك فإن الإنسان كالعادة ، فهو في مثل هذا الفردوس ما زال جشعاً ودنيئاً ، فبينما كان هاريس في رحلته ، تربصت له عصابة قوامها أربعون رجلاً من قطاع الطرق لنهب قافلته الصغيرة ، ولكن رجلاً غريباً حذره من مغبّة الأمر ، وقاده إلى طريق اخر ليتجنب هؤلاء السرّاق .

وما أن وصل هاريس إلى صنعاء ، حتى لوح مبتهجاً ، بجواز سفره البريطاني ، مما أدى إلى سجنه باعتباره جاسوساً وبقي في السجن مدة خمسة أيام ، ثم أطلق سراحه ، وسُمِحَ له بالتجول في المدينة ، وقد زار هاريس بقايا قصر غمدان الكبير الذي يشتمل على ١٦٠٠ درجة تقود إلى برج ذي سبع طوابق وكل طابق أصغر من الذي تحته ، وهكذا حتى الطابق العلوي الذي تتكون أرضيته من قطعة رخامية واحدة ، وعلى كل

زاوية من السقف ، وضع تمثال أسد من الحجر [مجوف من داخله] وكلما هبت الريح ، أصدرت من خلال فتحة فمه صوتاً كزئير ملك الوحوش .

وبعد ذلك اتجه هاريس إلى البحر وفي الطريق اندهش كما اندهش كل من سلك هذا الطريق ، بجمال الطبيعة حول مدينة مناخه[٦٦] فكتب يقول : «تحيط بنا قمم الجبال الجرداء الجميلة من كل الجهات ، ومنحدرات رأسية ، على طرف أحدها وقفنا نشاهد الطريق المتعرج الذي سلكناه ، وتحتنا لمسافة بعيدة جداً رأينا رفاقنا مع البغال وهم يصعدون بمشقة ، كالنمل الصغير . ومن بين جميع الأماكن التي حظيت برؤيتها ، فإن مدينة مناخه ، أبدع موقع رأيته ، فهي تقع على شريط ضيق من الجبل ، ويصل هذا الشريط بين سلسلتين متباينتين من الجبال التي تكون مستجمعات لمياه الأمطار التي تجري في الواديين الكبيرين ، أما جدران البيوت فتبدو وكأنها معلقة فوق جوانب هذه المنحدرات الصخرية ، ويا له من منظر بديع وجذاب عندما يمد الإنسان بصره نحو الواديين الكبيرين ويشاهد قمم جبال جرداء ، ترتفع شاهقة فوق المكان ومنحدرات صخرية عمودية ، تبدو وكأنها قمعية الشكل ، حقا إنه لمنظر أخاذ ، بديع وغريب في نفس الوقت» . وقد رجع هاريس إلى المغرب وهناك وقع له حادث تاريخي ، إذ اختطفه أحد قطاع الطرق المشهورين وأصبحت هذه الحادثة مسألة دولية ونشرت في جريدة التايمز . لقد كان هاريس رجلاً لطيف المعشر ، أثار إعجاب كل من التقى به من مختلف طبقات الناس سواءً ملوكاً أو رعاة جمال ، كما وإن كتبه مليئة بالأحداث الشيقة التي تعكس نفسيته الطيبة .

في عام ١٩٠٥م التقى رجلان إنجليزيان في مجلس العموم البريطاني ، في بداية العشرين من عمرهما وقررا السفر إلى صنعاء ، وكان اسم الأول ليلاند بكستون Leland Buxton ، الذي كان عضواً في فرقة انتحلت شخصية سلطان زنجبار ، وحصل في

(٦٦) مناخه : تقع بين صنعاء والحديدة وهى مركز لقضاء حراز التابع للواء صنعاء ، ويقول مؤلف كتاب "Westem Arabia, P. 575" إنها مدينة محصنة وكانت فيها حامية تركية ولكن أهميتها تضاءلت بعد أن أصبح طريق السيارات من الحديدة إلى صنعاء لا يمر بها (المترجم) .



صورة ساحرة لطفل عربي بملابس العيد ، رسمها هنري سولت أثناء زيارته لمخا في عام ١٨٠٩م .

كمبردج على دعوة رسمية من نائب رئيس الجامعة وأخرى من عمدة المدينة ، وقد مارس فيما بعد نشاطات في بلغاريا ، وانضم إلى قوات العصابات في حربها ضد الأتراك ، أما الشخص الثاني فاسمه أوبري هربرت Aubrey Herbert ، وهو الآخر كان على معرفة ببلاد البلقان ، وقيل عنه إن الشاعر جون بوكان Buckan ، جعل منه نموذجاً لأحدى شخصيات ساندي آربوثنوت Arbuthnot ، وأول ما شاهداه حين وصولهما إلى الحديدة ، هو منظر رجل سجين مُسنّ ومكبّل إلى الأرض ، وهذا الرجل كان على تلك الحال منذ أربعين عاماً خلت ، حتى إن الناس بمن فيهم السجين نفسه نسوا السبب الذي أدى إلى تكبيله ، وقد بقي كذلك مع أن هناك احتمالاً كبيراً أنه رجل صالح غريب الأطوار ، وقد حدث فيما بعد أن تحطمت السفينة ، التي كانت تقل هذين الرجلين قرب سواحل البحرين [ولكنهما استطاعا النجاة] وحاول هربرت قطع الجزيرة العربية ولكن مرضه منعه من ذلك إضافة إلى العوائق الرسمية .

وقد أصبح هربرت فيما بعد، عضواً في مجلس العموم البريطاني وكان يلقي خطبه في المجلس، من ملاحظات كتبها باللغة التركية، وما أن اندلعت نيران الحرب العالمية [الأولى] حتى كان الاثنان في «المكتب العربي Arab Bereau» بالقاهرة، ثم سافر هربرت مع لورنس لرشوة القائد التركي، الذي ضرب الحصار على [الجيش البريطاني في] الكوت. أما بكستون، فلم تكن مهمته خالية من المخاطر إذ إنه أصبح فيما بعد، ممثل بريطانيا في الحبشة، وكان ذلك أثناء الحرب الأهلية، هذا وربما شعر هربرت بالندم لأنه رفض دعوة لأن يصبح أول ملك لألبانيا.

ومن أواخر الأوربيين الذين زاروا اليمن قبل الحرب [الثانية] هو هيوسكوت Hugh Scott، متخصص في علم الحشرات في المتحف البريطاني، وقد وصل إلى اليمن في عام ١٩٣٨م وشاهد الإمام، الذي كان في الحكم منذ ثلاثين سنة خلت، يذهب إلى صلاة الجمعة كما فعل من سبقه من الأئمة، وقد ركب عربة ضخمة قديمة ذات أربع عجلات، يسير حولها الخدم والعبيد تحميه [من الشمس] مظلة كبيرة، وكان رجال الحرس الخاص يرقصون ويلوحون بخناجرهم وهم يغنون الأغاني الوطنية، ومن خلف الركب سيارة فارغة من الركاب جُلبت للاستعمال عند الحاجة، وعندما ذهب سكوت إلى مجلس الإمام، وجده جالساً القرفصاء يعد بعض النقود الفضية والتي هي كل ما تحويه خزينة الدولة، ولاحظ بأن العرائض والالتماسات كانت تقدم له بصورة مستمرة، ومن ضمنها التماس من جندي يطلب إعفاءه من الخدمة العسكرية، وكان هذا الجندي قد لقى حتفه في معركة مسلحة، ومع هذا فقد وافق الإمام على الالتماس، بجر أصبعه على طول المعروض، بعد أن غمس أصبعه تلك في طاسة فيها مغرة حمراء.

عدن والمناطق الداخلية فيها

كانت عدن تعيش في الماضي في وضع مزدهر ولكن بحلول القرن التاسع عشر بدأت الأوضاع تنحدر فيها بشدة وقد وصفها أحد الزائرين لها في عام ١٨٠٩م، بأنها: «ركام من الخرائب والأكواخ الحقيرة التي لا يسكنها من الناس إلا الأدنى، أما الأهالي

فيدل مظهرهم على البؤس والاعتلال ، كما انحدر العامة منهم في سلوكهم وعاداتهم ، وأصبح مثلهم مثل الكثير من أولئك القاطنين في المدن العربية وتوجد بين الخرائب بعض الأطلال القديمة التي تدل على الماضي العريق ، وهذا التباين الواضح ، بين الآثار العريقة والخراب العام ، يبعث الحزن والأسى» . وفي تقرير ظهر بعد سنوات من هذا الوصف ، ذكر بأن تعداد النفوس في عدن يُقدّر بحوالي ثمانمائة شخص يعيشون بين بعض المنارات المتداعية .

في شهر يناير من عام ١٨٣٩م احتلت القوات البحرية البريطانية الهندية ، بقيادة الكابتن هينز Haines ، عدن دون إراقة دماء وبقي هينز حاكماً لها لمدة خمس عشرة سنة ، ويتبين مما دوّن في مذكراته ، أنه لم يهتم كثيراً بأحوال الأهالي وتركهم لحالهم ، وقال عنهم : «يقضون شبابهم في تعلم الحيل والمشاكسات وفي شيخوختهم يقومون بممارستها» ، وقد عمل هينز على تحويل الميناء إلى مركز تجاري ، كما هو مقرر أن يكون ، ولكن اهتمامه في المنطقة الواقعة خلف الساحل ، كان مقتصراً على الهدف القريب وهو صد هجمات رجال القبائل المعادية . في عام ١٨٧٠م قام الكولونيل مايلز Miles برحلة إلى الداخل ولكن الاستقبال الذي لقيه لم يشجع أيّاً من الرحالة الآخرين على زيارة المناطق الداخلية ، وقد هدد البدو بشنق أي نصراني يأتي بعده إلى منطقتهم ، وقد وجد مايلز الفقر يعم البلاد حتى إن السلطان نفسه لا يملك غير عبد واحد فقط ، ويعيش في بيت قديم لا أثاث فيه ولم يكن عنده من السلاح سوى بندقية واحدة ، كما وصف مايلز النساء بأنهن غير جميلات .

إن أول محاولة جدية لاكتشاف المناطق الداخلية لجنوب الجزيرة العربية ، جاءت في مطلع هذا القرن ، وكان صاحب تلك المحاولة ، ضابط بريطاني اسمه وايمان بري Wyman Bury ، كان قد حارب سابقاً مع القبائل الثائرة في المغرب ، في عام ١٨٩٥م . [وفي استعداده لرحلته] غير اسمه إلى عبدالله منصور ، وأخذ يضطجع على الصخر ،



جورج وايمان برى (١٨٧٤ - ١٩٢٠م) كان أول أوربي يشاهد أجزاء كثيرة مما أصبح يعرف فيما بعد «محمية عدن الغربية» ويذكر كتاب Who is who إن هوايته كانت «البحث النفسي واطلاق النار من المسدس» ويتسم بالفردية الشديدة وكانت له خصومات كثيرة مع الحكومة البريطانية .

تحت أشعة الشمس لعدة ساعات حتى أصبح لون بشرته كلون بشرة العرب ، ثم دهن جلده بصبغة النيلة الزرقاء ، تمشياً مع عادة المقاتلين من السكان المحليين ، فعندما يدهن رجال القبائل جلودهم بهذه الصبغة ، فإن جلودهم بعد دهنها مباشرة تشع زرقة ولمعاناً بشكل مدهش ، ويمكن مسحها بسهولة ، وقد حصل لكاتب هذه السطور أن صافح مرة جماعة وزالت الصبغة من يده بعد حكها ، كذلك إذا مسَّد الشيوخ لحاهم البيضاء بأيديهم كعادتهم [فإنها تترك نفس الأثر] ، وكل ما يرتديه رجال القبائل هو إزار يلفه الرجل حول وسطه يمسك بحزام الخرطوش المثبت به خنجر مطعم بأحجار تختلف قيمتها حسب حالة الشخص المادية ، وبعضها مرصعة بقطع نقود ذهبية ، ترجع فيما يبدو إلى زمن الامبراطورية البيزنطية ، كما أن الغمد مُحلّي بحجارة شبه كريمة ، وكل قبيلي يحمل سلاحاً نارياً ، حتى ولو كان السلاح قديماً من زمن الحرب الفرنساوية - النمساوية أو قبلها .

وبينما كان بري في محطة استراحته الأولى ، أحضرت له فتاة بعضاً من القهوة وسألته رأيه في مذاقها ، وقالت له : «لقد سقطت عمتي في بئر بالأمس ، وأبي ذهب لقطع بعض الأغصان» . وهذا ليس بالشيء الغريب في تلك المنطقة ، حيث إن مؤلف هذا الكتاب سئل مرة عن رأيه في كيفية معالجة إمرأة كبيرة ، سقطت في بئر منذ بضعة

أشهر ولكنها ظلت تجد صعوبة في مشيها ، عندما يطلب منها أن تذهب مسافة قد تصل إلى خمسة أميال لتحتطب ، أو لتقضي يوماً تحت أشعة الشمس المحرقة ، في رعي الغنم .

لقد زار بري مناطق لم يزرها أي أوربي من قبل ، وقد وصف رجال القبائل بقوله : «إنهم من أردأ الناس ، فقراء .. معوزون ، غليظوا الطبع ، غادرون وجشعون – أخلاقهم منحطة ، فهم يفترسون الضيف ويسرقون القوي ... ومع كل هذه المساوىء فإن البدوي يستطيع أن يموت وحيداً كالذئب عندما تحين منيته .. نغمته العاطفية مقطوعة شعرية بسيطة من ثمانية أبيات ، فالدين في جهة وجشعه في جهة أخرى ، فالجشع مستحوذ عليه ومسيطر على معظم تصرفاته» . وتعرض بري لعدة هجمات من البدو خلال رحلته . وبعد خمسين عاماً من ترك بري للجزيرة العربية قابل كاتب هذه السطور رجلاً مسناً ، ادّعى أنه أطلق الرصاص على بري ، وخلال تجواله ، مر بري على قبيلة تفشّى فيها وباء الجدري مما أدّى إلى نقص ظاهر في عدد سكانها ، وقال : «إنها عطلت قوانين الزواج مؤقتاً وسمحت بتزويج الغرباء القادرين على الحرب» . كما مر على قبيلة أخرى تصنع الخمر من التمر ، الأمر الذي يجعلهم سكارى لعدة أيام ، وزار يشبم[٦٧] ووجد عائلة الشيخ فيها تنحدر مباشرة من نسل نفس القبيلة التي قاومت الرومان في عام ٢٤ قبل الميلاد ، وبهذا فإنها تعتبر أقدم عائلة حاكمة في العالم ، ومن الجائز أن يكون بري أول رجل إنجليزي يقضي شهر العسل في صنعاء .

لقد مضت ثلاثون سنة على رحلة بري ، لم يحدث خلالها أية محاولات جادة للحصول على معلومات أكثر عن المناطق الشمالية والشرقية من عدن ، ثم جاء شخص اسمه هاميلتون Hamilton أصبح فيما بعد اللورد بيلهافن Lord Belhaven ، وهذا كثيراً ما تجول مع رفيق واحد فقط ، في المناطق الغربية من محمية عدن خلال الثلاثينات من هذا القرن ، ولعلنا نعتبره آخر من جاء من الرحالة المكتشفين . بدأ هاميلتون رحلته من الساحل باتجاه الشمال ماراً بمضيق العرقوب ، ووصف شعوره حينذاك فقال : «... لقد

(٦٧) يشبم : مدينة في منطقة العوالق العليا في حضرموت شمال خط العرض ١٤ وغرب خط الطول ٤٧ (المترجم).

شعرت وكأنني نَملةً تتسلق سخّان ماء ضخم ، لا ترىٰ إلاّ تلالاً جرداء ، هرمية الشكل ، وذات لون أحمر أو رمادي كلون خبث البراكين ...» وحضر مرة وليمة ولاحظ فيها ، أن صاحب الدعوة وقف بكل أدب في الخلف بينما ترك المدعوين يتناولون طعامهم . وبين فترة وأخرى كان يقطع قطعة من اللحم لنفسه في حجم نصف الرطل ، كوجبة خفيفة ، فيحشو ما أمكن الحشو منها بين فكيه الواسعين ويقطع ما تبقى منها بخنجره قريباً من شفتيه... ويمضغ اللحم وفمه مفتوح، فيما أخذت قطرات الدهن والمرق تسيل خلال لحيته وعلى حنجرته من الخارج ثم تنزل على ثوبه الفضفاض ، والجدير بالذكر ، أنه كثيراً ما يلاحظ ، أنه بسبب ندرة اللحوم في جنوب الجزيرة العربية فإن الناس هناك ، ينسون تقاليد المائدة وآدابها عندما يتوفر اللحم .

وقد تمتع هاملتون بصحبة البدو في عدن ، فكثيراً ما جعلت لطافتهم البسيطة الرجل الإنجليزي ، يشعر أنه ليس غريباً بينهم غير أن هذا لا يمكن أن يكون ، فهو أبيض وبشرتهم بلون بني ، هو نصراني وهم مسلمون ، هو أوربي وهم آسيويون ، بينه وبين العرب خليج ، لا يمكن بناء جسر عليه ، فلا يمكن أن يكون واحداً منهم في عيونهم ، وقد اتسمت ملاحظات هاملتون بالحزن ، في وصفه لأرض الجزيرة العربية نفسها ، حينما قال : «أرضها قاحلة جدباء ، يشعر كل من يعمل فيها بالحزن والمرض في جسده وبالقلق في رأسه» ، ولا أعتقد أنه بالغ في وصف آراء كثير ممن سكن وعمل في المنطقة حينما انتهى إلى قوله :« لا يمر عليك يوم في حياتك ، دون أن تتذكر بعض الجوانب من تلك الأرض الشاسعة .. ولا تمر عليك ليلة دون حلم أو هواجس» .

حضرمـــــوت

يقع وادي حضرموت في الشمال الشرقي من عدن ، ممتداً من حدود الربع الخالي ومنتهياً إلى البحر عند سيحوت ، وقد ذكر اسم «حضرموت» في مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين[٦٨] ، وذُكر أيضاً في سفر التكوين في التوارة ، وفُسِّر اسمها على أنه «وادي

---

(٦٨) لقد ذكرت حضرموت عند استرابون وبليني باسم كترموت (أنظر جبرا ، ص ٢٤٧ ، ومحمد ص ١٣٦ – ١٣٧) كما ورد اسم حضرموت في سفر أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الأول فقرة (٢٠) المترجم .

الموت» . وقال [المؤرخ الأغريقي] هيرودتس إن ثعابين طائرة تحرس كنوز هذا الوادي وتتمثل الكنوز في البخور والمرّ ، وشجرة البخور لها ساق رمادي اللون وتنتشر أغصانها قرب سطح الأرض ، ويخرج البخور منها على شكل مادة صمغية شفافة خضراء اللون ، بعد عمل قطع في ساق الشجرة ، ثم تترك لعدة أيام حتى تصبح صلبة ، بعد ذلك تجمع هذه المادة وتحمل على قوافل تأخذ طريقها إلى مدينة شبوة ومنها إلى مأرب ثم إلى مكة حتى تصل إلى ممفيس أو القدس حيث تحرق على القرابين ، وهذه السلعة ثمينة جداً ، لدرجة أن بليني يعتقد ؛ إن أي حمال يتيه عن الطريق كان يعاقب بالموت .

أما الحياة الدينية ، فإن كثيراً منها يتركز حول النبي هود الذي يعتقد بأنه عابر «Eber» الذي ورد في التوارة[٦٩] ، وهو حفيد حفيد نوح [عليهما السلام] وهو الذي أجبره أعداؤه على الاختفاء في غار في أحد الجبال بينما ظلت ناقته الوفيه في الخارج ، فتحولت إلى صخرة كبيرة يمكن رؤيتها إلى يومنا هذا ، وضريحه مقدس عند الأهالي حيث وفر واحة من الآمان ، فيحرم القتال حوله ، بل ولا يحرك شيء ساكن بقربه حتى العصا أو الحجر ، لو حرك أحدهما من مكانه فلن يهدأ من القفز والبكاء حتى يعاد إلى مكانه .

قبل حوالي ألف عام سكن وادي حضرموت رجل يدعى السيد أحمد أبو بكر بن عيسى من سلالة الرسول ﷺ وقد تغلب السيد أحمد بواسطة الوعظ والدعوة أحياناً وبواسطة القوة أحياناً أخرى ، على كل من الوثنيين وأصحاب البدع والخرافات ، وبمرور الزمن تضاعف أفراد ذريته وحكم المنطقة كزعيم ديني وأرستقراطي ، وعلى أية حال فإن ما تنتجه الواحات المتناثرة في الوادي لا يكفي لسد حاجاتهم وحاجة القبائل التابعة لهم فاضطر عدد كبير منهم للسفر إلى الخارج للبحث عن لقمة العيش ، فذهب البعض إلى زنجبار ، ولكن كثيراً منهم ذهب إلى جزر الهند الشرقية حتى يعتقد أن عددهم في عام ١٩٣١م ، بلغ ثمانين ألفاً ، وكان كثير منهم متزوجين قبل مغادرتهم غير أن

(٦٩) سفر التكوين ، الاصحاح (١٠) فقرة (٢٥ – ٢٦) وفيها أن عابر ولد له ابنان : فالج ويقطان (المترجم).

زوجاتهم لم يغادرن معهم ، ولذلك فقد كونوا عائلات أخرى في محل إقامتهم الجديد ولكن ربما رجع بعضهم بعد ثلاثين سنة ليسترد زوجته الأولى وكان منهم من جمع ثروة كبيرة من خلال أعمالهم التجارية في سنغافورة وبوتافيا ، وبالرغم من أنهم عادوا وهم من أصحاب الملايين إلا أنهم يعملون على استرداد اقطاعاتهم القبلية القديمة ، أو يدفعون أسعاراً باهظة لشراء الأراضي الزراعية الصغيرة .

إن حضارة حضرموت الفريدة هذه ، لم يكن الغرب يعرف عنها شيئاً ، قبل بداية هذا القرن ، إلا قليلاً ، ومن أوائل الرحالة الأوربيين الذين تركوا وصفاً لهذه المنطقة ، رجل ألماني كان يخدم في الجيش اليوناني اسمه البارون أدولف ريد Adolf Wrede ، الذي وصل إلى المكلا في عام ١٨٤٣م وغير اسمه إلى عبدالهود ، وقد اكتشف بعض الناس أنه أوربي فأمطروه بأسئلة مختلفة منها : ما هو عدد الخدم في بلاط الملكة فكتوريا ، وهل صحيح أن قيصر روسيا عنده سبعمائة حارس من آكلي لحوم البشر ، وأن طول القيصر يصل إلى سبعة أذرع ، وله عين واحدة في وسط جبينه ، وقد ذكر لنا ريد ؛ أن من بين هؤلاء الناس ، الذين لديهم معرفة محدودة عن أوربا ، شيخاً وجده يقرأ في كتاب «حياة نابليون بونابرت» لمؤلفه [الاسكتلندي] والتر سكوت ووصف لنا الرمال المتحركة فيما يعرف ببحر السافي [أو الصافي] ، سميت كذلك لهلاك جيش أحد الملوك في هذه الرمال ، فقال : «إنه لمنظر محزن يثير الدهشة .. سهل رملي هائل تنتشر فيه أعداد لا حصر لها من التلال الرملية التي تراها تتحرك وكأنها أمواج البحر ، لا أثر فيها لأي نبات يذكر ، يبعث ولو بشيء قليل من الأمل في الحياة على هذه الأرض الشاسعة ، ولا أثر فيه لطير يقطع بتغريده سكون الموت ، الذي يخيم على قبر الجيش السبئي» . ويذكر ريد ، أن مرشديه من البدو أخبروه ، أن في أعماق هذه الرمال كنوزاً كثيرة ، تحرسها الأشباح ، ولكنهم رفضوا مصاحبته عندما زحف إلى الأمام ليرمي فيها فادناً ليسبر غورها ، غير أن الفادن غاص في الرمال أكثر من ٣٦٠ قدم . وهذه نهاية القصة الغريبة ، وليس هناك من شاهد هذا البحر من الرمال بما في ذلك فلبي الذي قاد سيارة كبيرة في نفس المنطقة المذكورة ذاتها .

بعد ذلك بعدة أيام ، وصل ريد إلى بلدة صغيرة اسمها صيف[٧٠] في وقت كان الأهالي يستعدون فيه للاحتفال بأحد الأعياد الدينية ، ووجدهم في حالة قلقة ، فقد مرت أربع سنوات على الاحتلال البريطاني لبلادهم ، ومنذ أن جاءهم ضابطان من البحرية البريطانية ، ونسخا بعض النقوش الحميرية قرب الساحل ، بدأ المحصول يشحّ ويقل عما كان عليه في السابق ، واعتقد الناس بأن ريد كان جاسوساً إنجليزياً ، وطالبوا بالحكم عليه موتاً ، وأحضر إلى حضرة السلطان ، وكان جسده مغطى بالدم والتراب ، ولولا تدخل دليله البدوي في الأمر لفقد حياته ، واكتفى السلطان بنهب متاعه ومصادرة ما دوّنه من ملاحظات ومشاهدات . ولا نعلم ماذا حدث لريد بعد رجوعه إلى أوربا ، ويعتقد البعض انه دخل في خدمة الجيش التركي ، والبعض الآخر يعتقد أنه هاجر إلى تكســـــاس .

لقد مرَّ خمسون عاماً قبل أن يزور المنطقة شخص أوربي . وكان هو الآخر ألماني الجنسية ، اسمه ليو هيرش Leo Hirsh وكان خبيراً ومشهوراً في اللغات العربية والحميرية ، وبالرغم من أنه ارتدى ملابس عربية خلال رحلته ، إلاّ أنه لم ينكر أنه رجل أوربي جاء ليدرس الإسلام . ويعتبر هيرش أول أوربي يزور وادي حضرموت ، وقد استقبل هناك بحفاوة ، حتى إن السلطان كتب قصيدة في مدحه ، وذهب إلى مدينة تريم[٧١] حيث تعيش فيها مجموعة كبيرة من السادة ، وكان أحدهم يستعد لِيُضيِّفه في بيته ، إلاّ أن نفراً من الأهالي المتعصبين تجمعوا خارج البيت وهددوا بحرق البيت . وقد كان وصف هيرش لرحلته يتفق تماماً مع ما كنا نتوقعه من رجل ألماني متعلم مثله .

---

(٧٠) تقع هذه البلدة شمال خط العرض ١٥° وشرق خط الطول ٤٨° (أنظر ص ٦ وكذلك الخريطة للكاتبين : "Meulen and Wissmann") – المترجم .

(٧١) تريم : قاعدة حضرموت (سابقا) وهي في الجبال شمال لسعا ، المدينة الساحلية بينهما تسعون ميلاً ، وفي شمال تريم من مدنها المذكورة في الكتب شنوة المشهورة بكثرة التمر وفي الشرق الخزيمه (المغربي ، ص ١٠١) – المترجم .

وفي نفس العام ١٨٩٣م ، زارت حضرموت أول سيدة إنجليزية اسمها مابِل بنت Mabel Bent وكانت في صحبة زوجها ثيودور Theodor ، الذي صحبته أيضاً في رحلات سابقة ، من ضمنها زيارة البحرين التي اعتقد بأنها الموطن الأصلي للفينيقيين ، كما أنهما أول من زار آثار زمبابوي وأعتبراها ذات أصل عربي . وكانت معرفتهما باللغة العربية قليلة جداً وقد تجولا في المنطقة دون مصاعب تُذكر ، فقد كان برفقهما بعثة مكونة من مسّاح هندي ، وخبير [إنجليزي] بعلم النبات من كِيو [إحدى ضواحي لندن] ، وخادم أغريقي ، ورجل مصري متخصص في علم الطبيعة ، وقد ألفا أول كتاب متداول [باللغة الإنجليزية] عن حضرموت ، وأخذت السيدة بنت أول صورة فوتوغرافية [لتلك المنطقة] .

لقد لاحظ بنت وزوجته كيف أن عدداً من المدن الحضرمية ، تشبه قلاع منطقة الراين المبنية من الطين ، كما لاحظ أن الرجال المحليين المرافقين لهما ، كانوا ضعاف البنية ووجوههم بلون لحي وهي ناعمة ومليحة جداً لدرجة أنه ربما يظن الواحد أنهم نساء ، فقد كانوا حقيقة ظرفاء وجميلين ، أما الفتيات فلم يكن مظهرهن جميلاً إذ أنهن يصبغن وجوههن بصبغة صفراء لامعة ، تتخللها خطوط سوداء ، كما يصبغن أنوفهن بلون أحمر ويضعن نقطاً خضراء على خدودهن ، (...) كما ذكرا أن البدو يغنون في أثناء الليل ويصيحون ويزعقون ، ومما آثار اهتمام بنت وزجته الطب الشعبي ، فقد لاحظا أن معظم الآلام يتم علاجها بالكي بحديدة حارة ، ومن القصص الظريفة التي ذكراها أن رجلاً تراهن على أكل كل شحم العنز ، ولا عجب فقد بدأ يقاسي من آلام سوء الهضم ، وعندئذ فما كان من الحكيم إلا أن أشعل ناراً حوله لإذابة الدهون في جسمه .

وعندما زار بنت وزوجته مدينة شبام لم يحسن الأهالي استقبالهما ، وفي أثناء الصلاة دعا المصلون لتخليص البلاد من الكفار ، وقد انتهيا في وصفهما إلى : «أن الدين

والتعصب له في حضرموت أصبحا شيئاً واحداً ولهذا فإن إقامة علاقات صداقة مع الناس مثلاً ، في الوقت الحاضر شيء قريب من المستحيل .. فالدين هنا ، هو الروح المحركة ، ولولاه لأصبحت حضرموت مكاناً مهجوراً منذ وقت طويل ولكن الأهالي يعتبرونها أقدس مكان على وجه الأرض» .

بعد ذلك مضت أربعون سنة لم تشهد أرض الوادي خلالها ، رحلات استكشافية جادة ثم جاء في هذه المرة فريق يتكون من القنصل الهولندي في جدة واسمه فان دير مولن Van Der Meulen وجغرافي ألماني اسمه هيرمان فون فسمان Hermann Von Wissmann وقد بدء الاثنان رحلتهما بالسيارة لأن الجمّالين المرافقين لهما كانوا على عداء مع رجال القبائل القاطنين خارج مدينة المكلا وقد أعجب الرجلان بالتبغ المحلي المشهور ، الذي يمتاز بنكهة خاصة والسبب في ذلك ، أن المزارعين يعالجونه بثلاثة أنواع من السماد الطبيعي : روث الطيور ، والسمك النتن ، والسماد الحيواني مخلوطاً مع الفضلات الآدمية . ومثل غيرهما من الرحالة ، فقد أصابتهما الدهشة عندما وقع نظرهما على وادي دوعن فبعد عبور سهل منبسط مفروش بالحصاء وقد بدى وكأنه لا نهاية له ، ظهرت فجأة هوة فاغرة فاها على عمق ألف قدم ، في وسطها بقعة منسية من الجنة تنتظر يوم الحساب ، وقد ترك هذا الوادي نفس الانطباع فيما بعد عند [الرحالة الإنجليزي] إنجرامز Ingrams الذي وصفه بقوله : «في أول نظرة لنا على الوادي لم نر بيوتاً في أول الأمر ثم ظهرت بين الصخور الرملية ذات اللون البني الباهت ، قلاع عظيمة جاثمة عند سفح الجبل كما لو أنها تريد أن تتسلق جداره وقد بدى شكلها منسجماً مع طبيعة المنطقة حولها بحيث لا تظهر للنظر من أول الأمر» .

وقد استمر فسمان ومولن في رحلتهما إلى شبام التي ذكرتهما بطبق كيك مع الشوكولاته ومغطى بالسكر وأكملا رحلتهما بوساطة سيارات جلبت [أجزاؤها] من الساحل على ظهور الجمال وتم تركيبها في الوادي ، وقد لاحظا مثل غيرهما من السائحين الذين جاءوا إلى هناك ، الاختلاف الظاهر في المدن الثلاث الرئيسية في حضرموت ،

ففي مدينة شبام بيوت شاهقة الارتفاع وملاصقة لبعضها البعض ، لتؤلف موقعاً دفاعياً ، وفي سيئون Saiyan ، بيوت ومساجد جميلة ، أما تريم فقد احتوت على قصور حديثة ، بشع طرازها وساطع لونها ، وكانت قد شيدت بأموال اكتسبت من جاوه ، وإنه لمن الصعب التصديق بأنها بنيت من طين مخلوط بالقش وكسيت بالجص المصقول بحجارة الصوان حتى أصبحت الجدران لامعة فبدت وكأنها مبنية من الرخام كما أن المنارة الضخمة قد بنيت أيضاً من الطين .

حاولت البعثة الرجوع بطريق البر إلى عدن ولكنها تعرضت لهجوم أثناء الطريق ، ولم يقل فان دير مولن عما إذا كان هو من هواة أفلام رعاة البقر ، ولكنه ربما كان ذلك ، حيث وضع قبعته فوق صخرة ، فصوبت العصابة نيرانها نحوها وتمكنت البعثة بذلك من الافلات من الهجوم .

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى وصل إلى حضرموت ألماني آخر ، وهو هانس هلفرتز Hans Helfritz ، وكان مصوراً بارعاً إلا أنه فيما يبدو لا يملك صفات الرحالة المكتشف فهو ، كما أشارت فريا ستارك Ferya Stark ، يبدو أنه قد عرض نفسه للتهديد بإطلاق النار عليه وقتله عدة مرات كثيرة تفوق ما يحدث عادة لسائح تعوزه اللباقة فحقيقة ، تكاد لا تخلو صفحة من صفحات كتابه إلا ويتحدث فيها عن أخطار تعرض لها وقد وصلت هذه الأخطار ذروتها ، عقب مشاجرة بسبب حمير وصفها بقوله : «لم تكن لحظة سارة عندما ترى خنجراً مدهوناً بالزيت قريباً من حنجرة إنسان أو عندما ترى فم بندقية قد وضع على صدر إنسان ... ولحسن الحظ ، حدث أن جاء نفر من النساء البدويات اللآتي ضحكن من قلوبهن على هذا الوضع المضحك في نظرهن» ، وقد قيل الكثير عن تسامح العرب ، ومما يؤكد ذلك أن هذا الشخص السخيف قد استطاع أن يكون أول أوربي يصل إلى شبوه والتي تركها بعد لحظات قليلة تحت وابل من الحجارة ، كما أنه كان أول أوربي يدخل إلى اليمن من جهة الشرق منذ أن فعل ذلك الراهبان اليسوعيان في القرن السادس عشر ، وبعد أن قضى هلفرتز فترتين في

السجن طلب منه ترك البلاد بأسرع وقت ممكن .

خلال زيارة مولن لحضرموت ، طلب منه كثير من الأهالي حث السلطات في عدن ، لفرض السيطرة البريطانية علي الوادي لوصول الحالة الأمنية هناك درجة جعلت العيش فيه تقريباً أمراً مستحيلاً ، فقد انهمك رجال القبائل في خصومات عائلية فلا يستطيع بعضهم الخروج من بيوتهم لأن أقرباءهم قد جلسوا خارجها وبنادقهم مصوبة إلى الأبواب ، بينما كان على المقاتلين في كل منطقة زراعية أن يقوموا بحراسة المحاصيل الزراعية ليلاً ونهاراً . وفي نهاية عام ١٩٣٤م وتحت ضغط المليونير السيد أبو بكر الكف ، الذي تبرع من ماله الخاص بإنشاء طريق يمتد من الساحل حتى الوادي أرسلت حكومة عدن مسؤولاً اسمه هارولد إنجرامز Harold Ingrams لكتابة تقرير عن الأحوال في الوادي ، واصطحب إنجرامز زوجته معه وكان لها دور مهم في تلك الرحلة مثل دوره تقريباً ، وبدأ الزوجان رحلتهما التي دامت تسعة أسابيع على ظهور الحمير التي أخذتهما إلى دوعن والوادي ، وبعد ذلك على ظهور الجمال إلى سيحوت على الساحل ، وهناك شاهدا ضريح رجل صالح فيه شجرة تكاد بنموها تخترق القبة وحسب الأسطورة أن هذا الرجل قد وُلِدَ وفي رأسه شُجيرة صغيرة ، كان يشذبها طوال حياته ، [إلاّ أنها بدأت تنمو وتطول بعد وفاته] .

رجع إنجرامز إلى الوادي عام ١٩٣٦م وبمساعدة السيد أبو بكر تم إقرار السلام المشهور ، مما جعل الوادي ينعم بفترة من الهدوء ووصف إنجرامز سعادة الناس بالأمن والاستقرار ، حتى إنهم بدأوا يتجولون دون حاجة لحمل السلاح ، وكيف أن السادة في مدينة شهر اتفقوا على أن لا يسمحوا لزوجاتهم بأن يصرفن أكثر من عشرة دولارات لشراء بدلة جديدة أو دولارين فقط على حفلة شاي ، وذلك احتفالاً باستتباب الأمن ، وأخيراً فتح طريق المكلا وبدأت الخطوط الجوية تنقل الناس بسهولة مما جعل زيارة حضرموت لا تعدو عن كونها رحلة سياحية .



السيدة فريا ستارك التي دائماً ما يجد القارىء متعة في كتبها العديدة عن رحلاتها في الشرق الأوسط .

وهناك امرأة رحالة لابد من ذكرها هنا واسمها ، فريا ستارك Freya Stark ، والتي أقامت علاقات ودّية مع رجال وسيدات حضرموت ، وذكرت كيف أن فتاة لم

شيبام : مدينة متميزة بسورها الخارجي وتتكون من بيوت قديمة منذ عدة قرون وهي ذات طوابق سفلية بدون نوافذ ويلاحق بعضها بعضاً .

الخمر ، ويذبحون الضحايا ويقدمونها إلى القمر ، وإذا شحّت الأمطار ، فإنهم يختارون راهباً ليكون ضحية ، وبعد أن يعطوا القمر إنذاراً يقطعون أيدى الراهب إن لم تهطل الأمطار بغزارة .

كانت الجزيرة تحت سيطرة سلطان قشن[٧٢] وهو من المهرة ، وتُركت الجزيرة لحاكمها حتى الثلاثينات من القرن الماضي ، حين قررت السلطات البحرية البريطانية أن تستعملها كمحطة لتزويد البواخر بالفحم الحجري ، ففي عام ١٩٣٤م زارها ضابطان تعرف بأنها ستتزوج إلاّ في اللحظات التي وجدت قريباتها قد جئن لطلاء وجهها بصبغة صفراء ، ولصبغ يديها ورجليها [بالحناء] ، وطوال اليوم الثالث للاحتفال جلست تحت ستارة حمراء ، حتى جاء زوجها الذي لم تره من قبل . وعندما فقدت السيدة ستارك بعض محابسها ، عمل لها السيد تعويذة ، كان على المتهم أن يشربها .. ولكن سرعان ما رجعت كل المحابس إلى محلها السابق بطريق غامضة ، وأخيراً عندما كانت على وشك أن تصاب بالحصبة ، نجحت في التخلص من رغبة الأصدقاء في علاجها بالكي بحديدة حارة في رقبتها ، حيث إنها نُقِلت على طائرة من القوات الجوية البريطانية إلى عدن ، بعد ذلك ذهبت إلى مصر وأسست حزباً سياسياً هناك ، واستمرت في رحلاتها التي دائماً ما تصفها بعناية وأناقة .

سوقطـــــرة

لقد رأينا كيف أن البرتغاليين [احتلوا سوقطرة] وبنوا في الجزيرة قلعة دفاعية ، إلاّ أن وجودهم لم يدم إلا سنوات قليلة ، واستمر سكانها يعتبرون أنفسهم من النصارى ، بالرغم من أن قسيساً زار الجزيرة في القرن التالي ، ووجد أن شعائرهم الدينية ذات طابع غريب ، ففي كل يوم يدهنون مذابح كنائسهم بالزبدة ، ويكرهون لحم الخنزير وشرب

---

(٧٢) قشن : مدينة ساحلية في حضرموت تطل على خليج قشن غرب خط الطول ٥٢° وشمال خط العرض ١٥° (المترجم) .

بريطانيان هما ولستد Wellsted و كروتندن Cruttenden ، اللذان سبق أن تحدثنا عن رحلتهما إلى اليمن ، وقضيا فيها مدة شهرين أجريا خلالها مسحاً للجزيرة ، وقد ذكر ولستد أن الأهالي قد رأوا في الخيمة مختلف الأدوات التي أحضرت لغرض المسح الذي لا يعرفون عنه شيئاً تماماً مثل السكان البدائيين في براري نيوزيلاندة ، وقال بأنهم لا يعرفون حتى استعمال النقود ويستعملون السمن كأساس للمقايضة . وقد أعطى ولستد بدوية ، كانت مستغرقة في الضحك بنطلوناً لبسته في الحال ، مما أضفى عليها بدون شك ، شكلاً حسناً ، ويقول إنه بالرغم أن وجوه الفتيات هناك ، مليحة إلا أن سيقانهن غليظة ، بشكل لم ير مثله من قبل .

ويعيش كثير من الناس في كهوف محاطة بجدران حجرية قصيرة تمنع مواشيهم الكثيرة من الدخول إليها ، أما أثاثهم فلا يزيد عن حجر يستعمل لطحن الذرة ، وبعض الجلود التي ينامون عليها أو يستعملونها كقرب لحفظ الماء ، وبعض أواني الطبخ الفخارية ، وقماش خشن معلق في أربعة أوتاد يستخدم كسرير للطفل عند الحاجة ، ويلاحظ بأن الذباب قد انتشر في كل مكان .

وتعيش الجزيرة في وضع منعزل تماماً لدرجة أن الناس فيها لم يروا كلباً قط وعندما رأوا وجه خادم نوبي أسود ، اعتقدوا أنه الشيطان بعينه في صورة آدمي ، أما تشريعهم للقضاء فبسيط جداً : يربط الشخص المتهم ويُترك على قمة التل ، فإذا أمطرت السماء خلال ثلاثة أيام من وجوده هناك ، فيحكم عليه بالموت ، رمياً بالحجارة . وكانت مناظر الطبيعة فيها خلّابة ، فقد كتب ويلستد يقول : «... لقد كنت محظوظاً في رؤيتي لمناطق مختلفة من الشرق ، إلاّ أنها لا تقارن بعظمة الطبيعة وجمالها في سوقطرة ...» . ومما زاد في روعة الجزيرة ذلك النبات الفريد الذي ينمو على ارتفاع يتراوح مابين ثمانمائة إلى ألفي قدم وهو شجرة دم التنين الغريبة التي تفرز مادة صمغية لونها أحمر داكن ويصل ارتفاعها عالياً إلى عشرين قدماً ، وأغصانها كثيفة ، وقصيرة ، وسميكة ، ومنضفرة ، وتغطيها الأوراق وطول الورقة الواحدة ، قدم واحد وقد انفرجت إلى الخارج

كالمروحـــة .

وبعد أشهر قليلة من ترك البعثة للجزيرة ذهب إليها هينز Haines ، لمحاولة شرائها بسعر ألفي جنيه من السلطان الذي وجده رجلاً طاعناً في السن ، أعمى ، ومشوهاً وقد ارتدى ملابس رثّة . وبالرغم من فقره ، فإنه رفض رفضاً قاطعاً أن يبيع إنشاً واحداً من الجزيرة ، قائلاً : إنها هدية من الله إلى المهرة ، ورثناها من أجدادنا وسنورثها لأطفالنا ، ومع أن هينز شعر بخيبة الأمل لفشله في مهمته ، إلاّ أنه أبدى احترامه وتقديره لأمانة السلطان ، وعلى كل حال فإن قوة بحرية بريطانية ، أرسلت لاحتلال الجزيرة ولكنها انسحبت بعد بضعة أشهر بسبب تفشي الحمى بين أفرادها .



هارولد إنجرامز إلى اليسار ، وإلى جانبه سمو السلطان السير صالح بن غالب حاكم المكلا ، وتظهر السيدة إنجرامز بالملابس العربية وهي الثاني من اليمين

في عام ١٨٩٦م زار الجزيرة الرحالة بنْت وزوجته ، وذكرا قصة تتعلق بقوة السحر يتبادلها الأهالي ، مفادها أن رجلاً هرب مؤخراً مع فتاة من بلاد أخرى وذلك بتحويل الفتاة إلى فقمة وسبحت إلى سوقطرة ، وما أن وصلت إليها حتى عادت إلى صفتها الطبيعية . ومما لفت انتباه بنت وزوجته ، هو العلاج الذي أعطاه حكيم سوقطري إلى خادم البعثة ، وذلك بأن عمل عدداً من الشقوق في رأسه ، ووضع قرن حيوان على كل شق وبدأ يمتص من النهاية الأخرى للقرن ، وينفث مما يخرج منه في اتجاهات مختلفة ، وأخيراً جلس على المريض يقرأ بعض التعاويذ ، وبين الحين والآخر ، كان يبصق في وجهه ، ومن الغريب أن المريض شعر بشفاء عاجل جداً !

واعتقد السيد والسيدة بنت مثل بقية الرحالة الذين زاروا الجزيرة ، بأن سكانها الأصليين بلغتهم الأصلية ، قد استوطنوا الجزيرة قبل دخول العرب إليها ، وما زال هذا الأمر ، على أية حال غامضاً وذلك لأن جزيرة سوقطرة ما برحت إحدى الأماكن القليلة في الشرق الأوسط التي لا يعرف عنها إلا القليل .

رحّـــالة في عُمَـــــان

من المحتمل أن يكون الخليج أقدم طريق بحري في العالم ويعتقد الكثير من علماء الآثار ، أن على مياهه تعلم الإنسان الملاحة ، وفيه أبحرت أساطيل الإسكندر المقدوني ، وبواسطته تهيأت الطريق التي سلكها فيما بعد السندباد البحري ، باحثاً عن الثروة والكنوز ، ولكنه كثيراً ما وجد نفسه في خضم المغامرات ، ويسيطر على مَدخل الخليج ، ميناء مسقط ، الذي يعتبر من أحسن الموانيء الطبيعية في الجزيرة العربية بعد ميناء عدن ، ويقول عنه اللورد كرزون Curzon :«إنه ربما يكون أبدع منظر طبيعي في العالم وعن بُعد ، تبدو الكتل الهائلة من الصخور الصوانية ، ذات الشقوق والمنحدرات العميقة وقد برزت قممها المدببة وكأنها ترتفع بصورة مفاجئة من البحر ، وعلى مسافة بعيدة في الداخل ارتفعت قمم الجبال الشاهقة واحدة فوق الأخرى وقد ظهرت الشقوق والتصدعات المخيفة ، وكأنها تعطي انطباعاً عن بلد قد خرج من مرجل الطبيعة البدائي ولا يزال يحمل حروق وجروح ذلك الحريق ... وعلى رقعة صغيرة من الأرض ، تقع مسقط وقد سطعت بيوتها المكسوة بالجص ، براقة على الطبيعة الكئيبة مثل جناح طير البحر وهو يصارع العاصفة» .

لم يعرف الغرب كثيراً عن مسقط حتى عام ١٥٠٧م عندما وصل إليها أفونسو البوكيرك Afonso d'Alboquerque المعروف ليطالب بخضوعها لحكم الملك البرتغالي مانويل ، ولم يكن لدى الأهالي استعداد للموت في سبيل حاكمهم ملك هرمز ، فسلموا بطريقة معقولة ، ومع هذا فقد تجمعت قوات معارضة للاحتلال فيما يبدو ، فما كان من البوكيرك الذي لا يتردد أبداً عن القتال ، إلا أن اقتحم المدينة وأمطرها بوابل من النيران وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ثم قطع أنوف وآذان من لم يكن بحاجة إليهم وأطلق سراحهم ، هذا وقد تبلور التأييد الرباني لهذا النوع من الجهاد المقدس بمعجزة ، وهي سقوط المسجد ، على رءوس الرجال ، الذين كانوا يقطعون أعمدته غير أنهم نجوا بدون إصابات .

بالرغم من بعض الهزائم التي لحقت بالبرتغاليين ، فقد استمر حكمهم لمسقط مدة قرن ونصف ، بنوا خلالها قلعتي الجلالي و المراني اللتين ما برحتا تشرفان على الميناء ، ولم يحاول البرتغاليون أن يبسطوا سلطتهم على المناطق الداخلية ، ولم يحاولوا التبشير بالديانة النصرانية بين الأهالي ، وقلما تدخلوا في شئونهم الداخلية .

ومما ساعد على استمرار حكم البرتغاليين لمسقط ، الفرقة بين أهالي المنطقة الواقعة خلف الساحل ، فسكان المناطق الداخلية في عمان يتبعون المذهب الأباضي الذي يعتبره أكثر المسلمين مذهباً ابتداعياً ، ويعتقد الأباضيون أنه ليس من الواجب أن يكون الحاكم أو الإمام منحدراً من سلالة الرسول ﷺ وإنما يجب أن يختار الناس أفضل واحد في المجتمع لتولي منصب الإمام لفترة مؤقتة ؛ وهي فكرة تستحق الاعجاب بلا شك لولا أن ممارستها قد تسبب الخلافات ، والإمام يكون مطلق السلطة ، إلا إذا قام بعمل يخل بالشرع والأسوأ من ذلك إذا أدخل على الدين بدعاً جديدة ، فعندئذ تكون محاربته أمراً واجباً على كل الرجال الطيبين ، وهذه بالطبع ، وسيلة تقود لاختيار رجل آخر ، وعلى أية حال ففي عام ١٦٢٥م اعتلى منصب الإمامه رجل من قبيلة اليعاربة[٧٣] ، وبعد أن ثبّت مركزه في الحكم ، جعل المنصب وراثياً .

ويقال إنه في عام ١٦٤٩م طلب الإمام الذي تسلم الحكم بعده ، بكل أدب السماح له بالنزول إلى سوق مسقط لشراء بعض الحاجات ، فأرسل له الحاكم البرتغالي قطعاً من لحم الخنزير متعمداً إهانته ، وحدث فيما بعد أن الحاكم فيما يعتقد ، قد خطط للحصول على ابنة تاجر ثري هندي ، فعزم هذا التاجر على الغدر بالحاكم لانقاذ ابنته ، وبعث برسالة إلى الإمام يخبره فيها أن البرتغاليين باعتبارهم نصارى متمسكين بدينهم ، فإنهم يحتفلون بأيام الآحاد فيصبرون سكارى ، وعندئذ قام الهندي بفتح بوابات المدينة [لقوات الإمام] عندما كان البرتغاليون في وضع لا يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم .

(٧٣) لازالت هذه القبيلة معروفة في شمال عمان وكان منها الأئمة قبل أسرة البوسعيديين (المترجم) .

وقد أتاح طرد البرتغاليين الفرصة لمنافسيهم الإنجليز والهولنديين [لمحاولة السيطرة على الميناء] ، وبدأ ذكر مسقط يرد كثيراً في كتابات الرحالة ، واشتكى أكثرهم من شدة الحر فيها ، إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يزد على ما قاله كاتب فارسي في القرن الخامس عشر حينما ذكر أن سهولاً قد امتلأت بغزلان مشوية ، بينما كانت الطيور المشوية تتساقط من الجو كما أنه كان بالإمكان أن تغرف من البحر سمكاً مغلياً وقال كثيرون إن البيض أو السمك ، يقلى على الصخور ، وأن موازين الحرارة كانت تنفجر ، وكتب [بحار إنجليزي اسمه] جون فراير John Fryer بلغة إنجليزية راقية تمثل لغة عصر إعادة الملكية «Restoration» ، فقال : «وفي الليل شاهدنا مسقط حيث جبالها الشاهقة والمخيفة ، التي لا يمكن لظل سوى السماء أن يخفيها ، بالرغم من أنها تغطي المدينة بظلال مرعبة ، وعند الغروب تنعكس من تلك الجبال نار حامية نحونا ، كما تنعكس تلك النار على ظهر السفينة وفي كنف هذه الجبال الملتهبة يجد البحارة مأوى آمنا لسفنهم المتهالكة»، وبعد بضع سنوات كتب هولندي عن غليان المراجل وكيف أن أصحابه كانوا يقضون نهارهم غائصين في ماء البحر [هرباً من الحر] وفي القرن ١٩ لخص أحد البحارة الموضوع بقوله : «إن ما يفصل جهنم عن مسقط ؛ هو صحيفة من الورق البني ، ومع هذا ، هناك صورة جميلة عن مسقط ، نقلها القس أوفنجتون Ovington في تقريره المنشور عام ١٦٨٩م وقد كتب مقدمته شاعر البلاط ، ناحوم تات والذي يستحق تسجيله هنا حفظاً له من النسيان : «... الشكر واجب ... من أبناء بريطانيا صديقتكم الكادحة ... الشهرة الرفيعة لكتابكم القيم الذي سيحتل المكان اللائق به في مكتبة البودلي مقر عرائس الشعر» (٧٤) .

وكتب أوفنجتون عن عدل أهل مسقط واعتدالهم قائلاً : «يتميزون اليوم عن الأقوام الآخرين في العالم بشيئين ، فلا يوجد أحد كما يقول،أكثر منهم ابتعاداً عن شرب

---

(٧٤) مكتبة البودلي في مدينة أكسفورد وتعرف بالبودليان وقد أسسها السير توماس بودلي بعد استقالته من الحكومة وافتتحها بألفي كتاب وذلك في عام ١٦٠٢م . والكبتول مبنى البرلمان في روما ، وأما عرائس الشعر فتطلق على أسطورة إغريقية وهنّ عبارة عن تسع شقيقات كن يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم عند الأغريق وأصبحت كلمة عروس الشعر تعنى المصدر الإلهامي للشعراء (المترجم) .

الخمر ، حتى أن شرب القهوة أو الشاي تعتبر من المكروهات ، وكل من يصبح مدافعاً عن هذه المشروبات وينصح باستعمالها كأشياء مناسبة للمعدة وتشرح الصدر وتذهب الهم والكآبة ، فإنه سوف ينظر إليه على أنه فاجر مستهين بشرعهم ومحرض على التحرر والفساد» ، وعلاوة على ذلك، «فإن الضعفاء في حماية من العنف والقسوة المفرطة من قبل سادتهم ، فلا يمكن لسيد محب للانتقام ، أن ينفس عن غضبه ، كما يهوى، في خادمه ، ولا لمتبن أن يضرب ويعاقب متبناه ، كما يهوى ، كما أن الحكومة نفسها تبغض سفك الدماء وكان المجرمون على ندرتهم يحبسون ويقضون حياتهم بين الجدران» .

إنها بلا شك صورة بديعة رسمها لنا أوفنجتون ، ولكن من المؤسف حقاً أن نعلم ، استناداً إلى ما ذكره الكابتن الكساندر هاملتون Alexander Hamilton ، بأن أوفنجتون لم يذهب إلى مسقط ، وأن كل ما كتبه هو نقل عما سمعه من بعض الناس في الهند ، ومع هذا فإن هاملتون أعرب عن إعجابه بحضارة أهل مسقط وتواضعهم ، وقد أكد ذلك كل من زار تلك البلاد فيما بعد ، ما عدا شخص واحد طُلبَ منه أن يكتب تقريراً عن طبائع أهل مسقط وأخلاقهم فوصفهم بأنهم لا خلق عندهم وأن طبائعهم وحشية ، وقد علق الكتاب المتأخرون على أمانتهم ، حيث تترك كمية كبيرة من البضائع في الشارع دون حراسة ، وليس هناك من يجرؤ على سرقتها .

ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٤٠م عاشت مسقط حرباً أهلية طاحنة ، أدت إلى احتلال الفرس لها ، واستمروا في احتلالها حتى عام ١٧٤٤م عندما قام حاكم محلي اسمه أحمد بن سعيد ، بعمل وليمة ودعا أفراد الحامية الإيرانية لحضورها ، وما أن اجتمع الجنود لتناول طعامهم حتى انقض عليهم رجاله ، [وهكذا انتهى حكم الإيرانيين] ، ولأنه أثبت بذلك اخلاصه لوطنه ، فقد اعترف به كإمام ، وما زالت عائلته تحكم إلى يومنا هذا .

وتحت حكم أحمد القوي ، تحقق للبلاد الاستقرار ، وأقامت صلات مع أوربا خاصة بريطانيا ومستعمرتها الهند . إن صلات عمان مع الهند كانت على الدوام قوية ،

لأن عمان شبه جزيرة ، فالبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، بينما تحتل صحراء الربع الخالي معظم الجهة الرابعة ، ولهذا اتجهت أنظار العمانيين إلى الإيرانيين والبلوشيين على أنهم أقرب من كثيرين من العرب من ناحية الجوار ، وقد جعلت الظروف الطبيعية المحيطة بعمان ، من سكانها لأن يكونوا أفضل البحارين في المنطقة ، وقامت مسقط بدور المركز التجاري لتوزيع كل السلع التجارية تقريباً للخليج .

وأصبحت سفن البحرية البريطانية تزور مسقط مراراً ، ومن أوائل هذه السفن المسماة «سيهورس» أو «حصان البحر» وقد رحلت إلى هناك في عام ١٧٧٥م وكان من ضمن الضباط الذين على ظهرها ضابط شاب اسمه هوراشيو نلسون Horatio Nelson(٧٥) وقد جرت العادة على أن يكتب بحارة كل سفينة ؛ أسماءهم على صخور المرفأ المشرفة على المدينة ، فأصبحت بذلك سجلاً محفوظاً ، وقد وثقت هذه العلاقة بالمعاهدة المبرمة في عام ١٨٠٠م وكانت أول معاهدة من نوعها بين سلطة أوربية وحاكم عربي وقد نصت المعاهدة على : «.. استمرار الصداقة بين البلدين إلى أبد الآبدين وحتى يتوقف القمر وتتوقف الشمس عن الدوران» والأهم من ذلك أن يبقى في مسقط ممثل دائم للحكومة البريطانية ، وقد تحمل أول ممثل بريطاني الطقس لأقل من سنة ، بعدها أصبح الموت محققاً للإنجليز إذا هم حاولوا البقاء هناك في فصل الصيف .

تميز تاريخ [عمان في] النصف الأول من القرن التاسع عشر بشخصية السيد سعيد بن سلطان الذي تقلد الحكم في عام ١٨٠٧م بعد أن قتل ابن عمه غدراً ، وكان يطمح للسيطرة على الساحل الشرقي لأفريقيا وتجارته ، ولهذا كان في حاجة للصداقة البريطانية . وقد استقبل عدداً من الزوار الإنجليز وكان يلجأ عادة إلى ملاطفتهم ومحاولة استمالتهم بأخلاقه الحسنة وذلك برد الزيارة عليهم وهذا قد يسبب بعض الإحراج ، فحدث مرة في عام ١٨٣٣م أن أعلن عن رغبته في زيارة سفينة بريطانية كانت راسية في الميناء وكان

---

(٧٥) هوارشيو نلسون : قائد بحري بريطاني اشتهر بعد انتصاره في معركة الطرف الأغر ضد الأسطول الفرنسي – الأسباني وقتل في نفس المعركة عام ١٨٠٥م (المترجم) .

على ظهرها عدد من الخنازير كجزء من طعام البحارة فرأى الإنجليز أنه من الواجب إبعاد هذه الحيوانات الوسخة عن مرأى الحاكم المسلم ، فوضعت في قوارب صغيرة ، إلا أن الخنازير لم تفهم الغرض من ذلك فأحتجت بصياحها الذي رددت الجبال صداه مما جعل سماعه ممكناً في كل أنحاء مسقط .

وفي السنوات الأولى من حكم السيد سعيد كان هناك شخص غريب ومغامر ، عمل في خدمته وإسمه فنسنزو موريزي Vincenzo Maurizi ويعرف بين الأهالي بالشيخ منصور وقد تولى منصب القائد العام ومنصب الطبيب الخاص للسلطان ، ويذكر موريزي في مقدمة كتابه تاريخ السيد سعيد History of Seyd Said ، إنه ولد في روما ولكنه ترك إيطاليا حتى لا يتورط في النزاعات المحلية التي أعقبت الثورة الفرنسية ، وعندما كان في القسطنطينية عمل كطبيب لقائد البحرية التركية واشترك في معارك بحرية ضد الروس بعد ذلك تمرن في القاهرة واليمن قبل أن يصل إلى مسقط وقد رسم صورة مقبولة عن العمانيين وخصوصاً عن السيد سعيد الذي أقام وليمة وصفها موريزي بقوله : «... فرشت قطعة كبيرة من القماش على الأرض ، ووضع عليها عدد كبير من الصحون الصينية الفاخرة احتوت على خمسين دجاجة وطيراً مشوياً ، ولحم ملفوف بورق العنب أو بورق البنجر ، الذي يزرع مع الكرنب والسبانخ ، في معظم الحدائق ، واشتملت المائدة كذلك على صحون مليئة بضلوع الظأن وغيرها ووضع في الوسط صحنان كبيران من الخشب فيهما خروفان كاملان مشويان ومحشوان بالرز ، بالإضافة إلى كل هذه الأنواع اللذيذة من الطعام كانت هناك كمية كبيرة من البلاو[٧٦]» ، وبعد كل ذلك فإن الواحد يندهش عندما يقرأ «أن البدانة المفرطة ، ليست معروفة بين العرب» وقد انتهت الأمسية بتوزيع الفاكهة وبالألعاب الجماعية .

ويخبرنا موريزي ، أنه كان يوجد في مسقط عدد من السحرة بإمكان الواحد منهم أن يقلب إنساناً إلى عنزة ، لهذا فإنه يجب على من يريد شراء عنزة من السوق أن

(٧٦) البلاو : طعام هندي يتكون من الأرز واللحم والتوابل وبدون الصنف الأخير لا يسمى «بلاو» (المترجم) .

يتأكد أولاً من أنها ليست بشراً انقلب على يد أحد هؤلاء السحرة ، وتأكيداً لزعمه هذا فقد ادعى بأن خادمه قابل مرة عنزة تكلمت معه باللغة العربية !! ومن الجائز أن يكون موريزي من أوائل الأوربيين الذين تجولوا في المناطق الداخلية ، ولكن لسوء الحظ فإن الجزء الثاني من كتابه لم يُنشر . وانتقل موريزي بعد ذلك إلى بغداد ومارس فيها مهنة الطب ، ثم سافر إلى كردستان ، واشتغل قائداً لمدفعية أحد الأمراء الإيرانيين ، وأُسر من قبل الروس في أذربيجان ، إلاّ أنه أطلق سراحه بعد فترة قصيرة ، واستمر في رحلاته ، وقد ألمح في مذكراته إلى أنه قام بمهام سرية في طهران ، بعد ذلك اشتغل في كل من الهند والبرازيل ، ثم عاد أدراجه إلى أوربا ، وعاش فيها متسكعاً .

في عام ١٨٣٥م استقبل السيد سعيد أول بعثة أمريكية إلى الجزيرة العربية ، وقد جاءت هذه البعثة تحت قيادة إدموند روبرتس Edmond Roberts على ظهر مُدمّرة كانت قد مرت ببعض المصاعب في مصيرة[٧٧] ، مما أضطر ربانها إلى إلقاء كل المدافع التي كانت تحملها في البحر كي يخفف من وزنها ، وقد كسب السيد سعيد اعتراف ربان السفينة بفضله عليه عندما تمكن رجاله من إخراج كل المدافع من البحر دون أن تصاب بعطب ، وقد أظهر الأمريكيون جهلهم في مجال الرحلات ، فقد صدقوا بدون مناقشة ، كل ما قاله السيد سعيد عن البدو الذين يقاتلون من داخل حفر يحفرونها في الرمال ويدفنون أنفسهم فيها ، ثم يشهرون سيوفهم فوق رؤوسهم ، ويعتقد الأمريكيون مثل كثيرين غيرهم ممن سبقوهم بأن طريقة الأهالي في إعداد الطعام ، غير صحية وقد كرهوا بالأخص ، طريقة تحضير الحلوى «بواسطة أقدام الزنج الحافية والمبللة بالعرق» على حد قولهم[٧٨] .

لم يكن السيد سعيد وحده الذي استقبل الزوار الأوربيين ، فقد قامت زوجته ،

---

(٧٧) جزيرة في بحر العرب (المترجم) .

(٧٨) هذه اشارة فيما اعتقد إلى طريقة خزن التمر وتلك طريقة كانت شائعة ، فيما يبدو ، في أماكن أخرى من الجزيرة العربية حيث توضع الأصناف غير الجيدة من التمر فوق الحصير ثم يرش بالماء ويترك لبعض الوقت تحت الشمس ثم يدك بالأقدام ثم يحشى في أكياس مصنوعة غالباً من خوص النخل (المترجم) .

باستقبال السيدات في عدة مناسبات ، وكانت أولاهن فيما يبدو ، سيدة [إنجليزية] اسمها مجنان Mignan ، ففي عام ١٨٢٥م اجتازت هذه المرأة ثلاثة [أبواب ذات] أقفال ، طول كل منها قدم ، ثم إلى سكن الحريم الذي كان تحت حراسة خادمين وسيمين من الخصيان ، ووصفت ما ارتدته الأميرة من الملابس والحلى ، فقالت : «... قطعة من حجر الزمرد في حجم بيضة الحمامة ، بينما غطى اللؤلؤ والماس يديها وقدميها وكانت لابسة ساتاناً ارجوانياً مطرزاً كما لبست شيئاً مخيفاً [برقع] يشبه نظارات عريضة الحواف ولكنه مصنوع من قماش قوي مشغول بأناقة ومطرز بالذهب ، ولا تزال السيدة العمانية تلبس هذا القناع حال بلوغها سن الرشد حيث لا يراها أحد بدونه حتى والدتها» .

لم يشاهد الأوربيون حتى الآن ، سوى القليل فيما وراء مدينة مسقط ، ولكن السنوات الأولى من القرن التاسع عشر جعلتهم على صلة قريبة بالساحل الشمالي ، والسبب في ذلك هو ازدياد عمليات القرصنة وبالأخص بعد أن أخذت قبيلة القواسم في رأس الخيمة بتعاليم الوهابية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، وقد أصبحت القرصنة مقترنة بالجهاد ، فمهاجمة الكفار أصبحت أمراً واجباً ومن الاعتقادات السائدة بين قراصنة الساحل ، أن سرقة الأحياء تعتبر حراماً ، لهذا كانوا يقطعون حناجر معظم أسراهم ، وقد قال عنهم جيرانهم : «... صنعتهم القرصنة وسعادتهم تتم بالقتل ... إنهم وحوش مرعبة»[٧٩] .

وقد ازدادت هجماتهم (...) ولم يكن حظ بعض الأسرى حسناً ، فقد قطع جسد أسير بريطاني إرباً إرباً ورميت هذه القطع على ظهر السفينة ، بينما هناك شخص آخر قطعت ذراعه ولكنه نجح في وقف النزيف بأن غمس الجزء الباقي منها في زبدة حارة .

---

(٧٩) تهمة القرصنة التي ألصقها الغربيون بالقواسم ، نوقشت في دراسة موثقة قام بها الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (حاكم الشارقه) ونشرت بالانجليزية تحت عنوان «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» دحض فيها الباحث تلك المزاعم (المترجم) .

وقامت القوات البحرية البريطانية بحملتين ضد رأس الخيمة ، الأولى كانت في عام ١٨٠٩م والثانية في عام ١٨١٦م غير أنه لم يكن لهما تأثير ، وكانت الخسائر الوحيدة في الحملة الثانية هي موت بحار بريطاني بعد أن وقع على قفاه إثر صوت إطلاق أول قذيفة ، أما الحملة الثالثة في عام ١٨١٩م ، فقد استطاعت كسر قوة القراصنة وعلى أثرها أقامت حامية من الجنود الإنجليز في رأس الخيمة لبضعة أشهر واتخذت أحد المساجد مكاناً يصطف فيه الجند للاستعراض .

لقد كانت المعاهدة العامة للسلام في عام ١٨٢٠م فاتحة عهد جديد في الخليج الذي تغير اسمه ، من ساحل القراصنة إلى الساحل المتصالح وقد أصبحت زيارات الضباط البريطانيين إلى هناك أمراً مألوفاً وكان من أوائل هؤلاء الملازم وايتلوك Whitelock الذي وصف مباريات المصارعة بين البحارة وبين العرب ، وقال عن العرب : «إن غطاء رؤوسهم يتدلى كثيراً على جباههم مما يضفي رهبة على ملامحهم القاسية التي تتناسب جداً مع شخصياتهم» ، وعلى أي حال ، «فإنه قلما تسمع عن شجار بينهم فكبار السن موضع احترام عندهم ، أما كرمهم فيضرب به المثل ، وأما أخلاقهم فهي قاسية ، وأي شيء تافه أو يقال على سبيل المثال النكته أو الدعابة ، فإنهم لا يتقبلونه ، إما نتيجة لعدم الفهم أو لازدرائهم لمثل هذه الأمور» ، ولكني أقول كلمة لكل من استمتع بالذكاء الفطري عند سكان دول الساحل المتصالح وهذه الكلمة غريبة وهي : «ربما إن نكت وايتلوك ، هزيلة أو غير مستحبة» .

إن هذه الصلات مع هذا الساحل ، ما برحت كلها تقريباً مقتصرة على الزيارات عن طريق البحر ، وذلك لصعوبة الاتصال عن طريق البر بسبب وجود السبخة ، ويبدو أن أوربياً واحداً فقط ، تمكن من الذهاب إلى الداخل قبل نهاية القرن وهو الكابتن إتكنز هامرتون Atkins Hamerton الذي ذهب إلى البريمي في عام ١٨٤٠م حيث بدأ رحلته من الشارقة ، وبعد مسيرة دامت أربعة أيام ، وصل إلى البريمي ، وقد أعجب بقلعتها التي تسيطر على الواحة كلها ، وكان في القلعة عدد من المدافع ، لا يعرف أحد عن أصلها ،

وبسبب عدم توفر القنابل فقد كانت ذخيرتها من الحجارة وقطعاً من الحديد ، ومما أثار دهشته أيضاً ، توفر الخضرة والمنتوجات الزراعية في البريمي ، فوجد البرتقال والتين والزيتون والرمان ، بالإضافة إلى أشجار النخيل الجميلة وحقول الحنطة ، وقد اعتمدت الزراعة على نظام ري يتألف من قنوات تجري تحت سطح الأرض ، تتخللها بعض الفتحات للتهوية وللسماح لعمال الصيانة بالنزول من خلالها ، وكان البعض منها يمتد إلى مسافات طويلة جداً ، وواحدة منها قيل إنها تمتد إلى مسيرة أربع عشرة ساعة من البريمي ، ويعتقد بعض الناس أن نظام الري هذا قد بُني من قبل الملك سليمان ، إلاّ أن المؤرخين يرجحون كثيراً ، الفكرة القائلة بأن الفرس هم الذين قاموا بحفر تلك القنوات[٨٠] .

حاول البريطانيون التوغل في المناطق الجنوبية لمسقط ، ولكن نتائج تلك المغامرة كانت وخيمةً ، فلقد أُنيطت مهام قيادة القوات البريطانية ، التي حاربت القراصنة إلى الكابتن برونت تومسون Captian Thompson ، والذي بدوره اقتنع باقتراح السيد سعيد ، في أن يستعمل قواته لشن هجوم على قبيلة «بني بو علي» . وفي نوفمبر من عام ١٨٢٠م تم اعداد حملة تألفت من خمسمائة رجل ، منهم ثلاثون بريطانيا ، مع قافلة للعتاد والأمتعة ، تكونت من ستمائة جمل وثلاثمائة رأس من المواشي ، وبدأت الحملة مسيرتها من بلدة صور ، متجهة نحو الداخل ، وبالرغم من أن الحملة استعملت أحدث الأسلحة مع ما ساهم به السيد من القوات المجندة ، إلاّ أنها باءت بالفشل الذريع أمام سيوف رجال القبيلة وقد قتل في المعركة سبعة ضباط بريطانيين وثلاثمائة رجل . وفي يناير ١٨٢١م جهزت السلطات البريطانية قوة عسكرية أخرى تألفت من ١١٧ ضابطاً بريطانياً ، و ١٢٦٣ بريطانياً من ذوي الرتب الأخرى ، و ١٦٨٦ من السباهية[٨١] ، وقد حارب رجال قبيلة بني بو علي بشجاعة متناهية ، حتى أن أحد الضباط البريطانيين

---

(٨٠) لمزيد من المعلومات عن نظام الري هذا ، يمكن الرجوع إلى المقالة التي نشرها المترجم في مجلة «العصور» ص ١٩٩ - ٢١٢ (المترجم) .

٨١) السباهي : هندي مجند في الجيش البريطاني (المورد ، ص ٨٣٦) - المترجم .

قُطعت فرسه إلى نصفين من أثر ضربة سيف واحدة ، ولكن المعركة انتهت بخسارة قبيلة بني بو علي ، وأرسل رجالها مؤقتاً إلى المنفى ، وقد تعلم البريطانيون من تلك المعركة ، درساً لم ينسوه أبداً خلال وجودهم في الجزيرة العربية ، وهو أن لا يغامروا في إرسال حملات بريّة عسكرية ، داخل الجزيرة تبعد أكثر من مسافة المدى الذي تصل إليه قذائفهم البحرية ، وقد استمرت هذه السياسة لمدة قرن ونصف .

لم توفر هذه المغامرات المحدودة سوى قليل من المعلومات عن المناطق الداخلية لعمان ولكن تقدماً كبيراً في هذا المجال قد تم في عامي ١٨٣٥ و١٨٣٦م من خلال الرحلة الاستكشافية التي قام بها جيمز رايموند وِلِسْتِد ، وكان ولستد ضابطاً بحرياً [بريطانياً] اشترك في مسح المناطق الساحلية للجزيرة العربية ، ومن المحتمل أن يكون أول من نسخ الكتابات الحِمْيَرية التي اكتشفها في حصن الغرب ، وقد شجعه السيد سعيد على اهتماماته بالرحلات ، وأهداه حصاناً عربياً أصيلاً ومجموعة من كلاب الصيد ، وسيفاً مذهباً ، بالإضافة إلى أنه تبرع بدفع كل نفقات الرحلة ، وكان ولستد من أوائل الذين اكتشفوا جَمَال المناطق الجبلية في عُمان وقد كتب يصف مدينة منح Minna(٨٢) : «... أشجار اللوز الباسقة ، والحمضيات وأشجار البرتقال وقد انتشرت بأثمارها الذيذة على الجانبين ، فتساءلنا مع أنفسنا مندهشين ومعجبين : هل هذه الجزيرة العربية حقاً ؟ وهل هذه ياترى البلاد التي عرفناها كصحراء جدباء ؟ .. لقد امتدت أمامنا حقول الحنطة ومزارع قصب السكر إلى أميال ، والمياه تجري في كل اتجاه فتقاطعت مع طريقنا ، ومما أضفى على المنظر بهاءً ، الابتسامة التي ارتسمت على وجوه المزارعين الذين مررنا بهم ، حتى أنني اعتقدت بأن ما أراه أمام عيني هو العربية المباركة ، التي ألفت على أنها جالت فقط في خيال شعرائنا» ، إنه ليس جمال الطبيعة وحده ، الذي أثار إعجاب ولستد بل وأيضاً : «جمال السيدات وحبهن للضحك والمرح الذي لم أعهده من قبل» .

---

(٨٢) تقع في المنطقة الداخلية من عمان (المترجم) .

لقد قضى ولستد وقتاً ممتعاً مع العرب ؛ أهل البلاد هناك فأكل ما يأكلون من لحم الأبل أو لحم الغنم المشوي ، وعلّمه مضيفه لعبة القفزية ، وأعجب بصبر هؤلاء الناس وتحملهم للشدائد ، فذكر كيف أن رجلاً عجوزاً كان يقذف بنفسه ، ما بين آونة وأخرى ، من بعيره ويتلوى على الأرض من ألم في بطنه دون أن يصرخ أو ينبس بكلمة . ويقول ولستد : إنه أعطاهم حبوب العنبر وحبوب الأفيون المخدر ، وكانوا يعتقدون إنها عقاقير مثيرة للشهوة الجنسية ، ومقابل ذلك ، أخذ هو عينة من خمرهم المصنوع من العنب والرمان ولكنه لم يستحسنه .

وبدأ ولستد رحلته بزيارة قبيلة «بني بو علي» حيث لقى استقبالاً ودياً من رجالها ، الذين استمتعوا حقاً ، كما يقول ، بمنفاهم ، ثم سافر بطريق دائري حتى وصل إلى الساحل في منطقة سيب Sib شمال مسقط مباشرة[٨٣] ، وبعد أيام قلائل ، بدأ رحلة ثانية مع أربعة مرافقين وخمسة جمال ، ومما ذكره عن طريقة استئجار تلك الجمال يعطينا فكرة عن قوة ملاحظته وقدرته على سرد الحوادث ، فقال : «تبدأ المساومة عادة بأن يذكر أحد الطرفين ، وبصوت خافت سعراً يصل إلى عشرة أضعاف سعر السلعة الفعلي ، أو السعر الذي يتوقع حصوله عليه من الطرف الآخر ، وليس هناك من جواب سوى سخرية أو دهشة [تظهر على وجه الطرف الآخر] ، وبالتدريج تصبح المساومة أكثر جدية ويغير الطرفان مكان جلوسهما إلى مكان آخر ، ولربما تسمع «علي» يصيح بصوته عالياً على الطرف المعارض له وأحياناً أخرى يتشاوران بصوت منخفض، كما لو كانا خائفين أن ينقل الهواء بعضاً من تشاورهما ، وبصعوبة تمكنت من سماع نغمات صوته وهو يحاول استمالة قلب صاحبه ، بالتأنيب والتعنيف تارة ، وبالتوسل تارة أخرى ، وفي نهاية الأمر حاول الانصراف وهو مستشيط غضباً من جشع الطرف الآخر إلا أن بعض الحاضرين ، يعيده إلى مكانه ، حيث يتكرر نفس المشهد حتى تتم الصفقة .»

كان ولستد يأمل في الوصول إلى نجد إلا أنه فشل في تجاوز ما وراء مدينة

---

(٨٣) سيب : أحد المناطق التابعة لمحافظة العاصمة ويقع فيها مطار السيب الدولي (المترجم) .

عبرى[٨٤] ، فقد وجد الأهالي يكرهون النصارى وعارضوا بشدة وجوده هناك ، لدرجة أن المترجم الإيراني المرافق له ، كما يقول ، كان يرتعش من الخوف ، بالرغم من أن طوله يبلغ ستة أقدام ، وممتلىء الجسم بشكل متناسب مع طوله ، حتى أنه من شدة خوفه أصيب بنوبات من الإنفجار العاطفي ، وتعرض ولستد للرجم بالحجارة وأجبر على النكوص على عقبيه إلى الساحل ، وهكذا مر جيل كامل بعد ذلك قبل أن يستطيع أوربي آخر التوغل بعيداً في المناطق الداخلية مرة أخرى .

لقد تحلّى ولستد بميزة مهمة لأي رحالة ، وهي تفهمه لطبائع وأخلاق الأقوام التي مر بها وتعاطف معهم ، وملاحظاته كانت على الدوام دقيقة ، فنراه يصف أهل الواحات فيقول : «... عزيزي النفس ، ذوي روح عالية ، فهم أقل فساداً أو انحلالاً من بقية مناطق الجزيرة العربية ، التي انتقل سكانها من مرحلة الرعي إلى مرحلة الزراعة ... كرماء ، شجعان ، يكرمون الضيف ، ومع هذا فإنهم في نفس الوقت سريعوا الغضب ، ويحبون الانتقام» ومما أثار إعجاب ولستد ، شخصية البدوي ، فقال عنه : «... لو قارنا أخلاقه وطباعه ، بصفة عامة مع تلك التي يملكها جيرانه ، لوجدناها تقف شامخة أمامهم ، فوطنيته واستقلاليته تجعله أسمى روحاً من الفارسي الذي يرزح مثل العبد تحت جبروت وطغيان الحكام ، كما أنه بتفوقه بالقوة الجسمية وبجرأته وشجاعته ، يقف في المقدمة أمام الهندي ، الهادي ، اللطيف ، والضعيف ، ودوما ما يؤمن البدوي بأنه أنقى عناصر البشر وأفضلها .

لقد تنقل ولستد في أحسن الظروف والأحوال وذلك بمساندة من السيد سعيد ، ولا شك في أن ما جمعه من معلومات في عُمان ، تماثل في أهميتها تلك المعلومات التي جاء بها نيبور عن اليمن ، واعترف ولستد بأن معرفته باللغة العربية ، كانت ضعيفة ، ومن المؤكد أنه ارتكب أخطاءً بسبب عدم فهمه لما يقوله الناس له ، كما أن خرائطه لم تكن دائماً صحيحة ، ولم يكن كريماً مع رفاقه في السفر ، ومعظم كتابه الثاني يشتمل

---

(٨٤) تقع في الشمال على بعد ١٥٠ كم تقريباً من حدود العين (المترجم) .

على وصف رحلته من بغداد إلى دمشق ويتحدث فيه بصفة المتكلم مع أنه لم يقم بتلك الرحلة وإنما قام بها صديق له ، أما قصته عن كيفية نجاته من موت محقق على يد جماعة من المتعصبين في دمشق بسبب علاقات حب فاشلة مع فتاة أغريقية وأرملة مسلمة ، فهي على ما يبدو خيالية تماماً .

ومهما كان ، فإن وصف ولستد ، لجزيرة سوقطرة وساحل الحجاز ، لذو أهمية ، فقرب مدينة ينبع لاحظ ما يلي : «... من عادة الأهالي هنا أن يعملوا شروخاً في أخماص أقدامهم ، ثم يقربوها من النار ، ويشربوا أكواباً من القهوة مضافاً إليها كميات من التوابل والفلفل ... إنهم يعتقدون أن هذه العملية هي أحسن علاج للوقاية من تأثير البرد[٨٥] .

لقد كانت نهاية حياة ولستد أليمة ، فقد رجع إلى مسقط في عام ١٨٣٧م ، وبينما كان تحت تأثير هذيان الحمى أطلق رصاصتين في داخل فمه ، وإن لم تقتله حالاً إلاّ أنه مات بعد سنوات قلائل ، وكان عمره آنذاك سبعاً وثلاثين عاماً .

توفي السيد سعيد في عام ١٨٥٦م وساءت أحوال مسقط بعده ، فضعف مركز المرفأ التجاري بعد أن جاءت السفن المتحركة بقوة البخار لتحل محل مراكب الدهو العمانية[٨٦] ، وذكر زائر لمسقط في العقد الأخير من القرن التاسع عشر إن أنحاءً كثيرة من المدينة أصبحت خرائب ، ومما زاد الطين بله ، الحرب الأهلية التي أثارها الأباضيون المحافظون من سكان المناطق الداخلية ، الذين ساءهم التغير الذي طرأ على أبناء عمومتهم

(٨٥) يبدو لي أن الأهالي لا يحدثون هذه الشروخ في أقدامهم بأيديهم بل تحدث تلقائياً في العقِب أثناء الشتاء خاصة عند الفلاحين والقرويين الذين لا يحرصون على الانتعال وتدفئة أقدامهم ، فيدهن بعضهم هذه الصدوع بالشحم ويعرضونها لحرارة النار لإذابتها ، وأما اضافة التوابل إلى القهوة ، فكثير من الناس هنا ، حتى يومنا هذا ، يضيفون مسحوق الزنجبيل إلى أكواب الشاي أو الحليب الحار ، ومسحوق الفلفل الأسود إلى المرق ، خلال أيام البرد (المترجم) .

(٨٦) الدهو : مركب شراعي مألوف في شواطىء الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا (المورد ، ص ٢٦٩) — المترجم .

سكان الساحل نتيجة الاتصال مع الغرب ، وبسبب تلك الاضطربات ، لم يذهب أحد من الرحالة إلى المناطق الداخلية بعد ولستد ، مما حَدَا بأحد الباحثين في عام ١٨٧٠م أن يشتكي من الوضع ومن الحكومة البريطانية في الهند فيقول : «... بالرغم من علاقتنا السياسية والتجارية مع عمان ، خلال القرن الماضي ، فإن معرفتنا بهذه البلاد ، باستثناء الساحل أقل من معرفتنا بمنطقة البحيرات في أفريقيا الوسطى .

وعلى أية حال ، فإنه في الفترة ما بين عامي ١٨٧٢م و ١٨٨٦م ، كان الممثل البريطاني في مسقط رجلاً اسمه مايلز S. B. Mile والذي تحدثنا عن رحلته إلى المناطق الداخلية في عدن ، وكانت معرفته باللغة العربية ممتازة وكانت اهتماماته متعددة ، فقد لاحظ مثلاً ، أن ذكر النخل قد ينمو إلى ١٣٠ قدماً طولاً ، وأن واحداً يكفي لتلقيح ما يقارب من ٧٠٠ نخلة ، وتنال بعض ذكور النخيل سمعة من حيث الفحولة وطلع هذا النوع يساوي بضعة دولارات ، وتثمر النخلة بشكل طبيعي عندما تبلغ ثمانية عشر عاماً وعندئذ يمكن أن يصل انتاجها من التمر إلى ٣٠٠ رطل في السنة .

اتبع مايلز في رحلته ، خطى سلفه ولستد فزار الأماكن التي زارها وفي أكثر من مرة صادف بعض كبار السن الذين تذكروا ذلك النصراني الذي زارهم قبل أربعين سنة ، ومر مايلز بعبرى ولم يعترضه أحد وقد وجدها بلدة «قذرة ... كريهة الرائحة ، مزدحمة جداً بالبدو ، الذين كانت أجسامهم هزيلة وكلهم مدججون بالسلاح» . وكان مايلز ثاني رجل أوربي يزور البريمي وأول من وصل إليها من جهة الشرق ، وقد أعجب ، مثل هامرتون ، بخضرة الواحة ، ولكون تقريره لا يحمل الصفة الرسمية ، فقد وصف النساء في البريمي فقال ؛ بأنهن يلبسن أحذية ذات كعوب عالية ويغطين رءوسهم بقماش أسود بدلاً من البرقع في مسقط .

لقد مضى ربع قرن بعد ذلك قبل أن يصل إلى البريمي زائر غربي آخر ، وفي هذه المرة كان الزائر رجلاً أمريكياً اسمه الأب صاموئيل زويمر Samuel Zwemer ، وكان مبشراً نصرانياً ، وقد وصل إلى البريمي قادماً من أبوظبي . وذكر بأن البدو الذين

صحبوه في سفرته ، رفضوا الأكل من المعلّبات التي جلبها معه ، وفضّلوا اصطياد سحلية وطبخها مع الأرز ، وقد امتدح كرم الناس وسماحتهم ، حيث سمح له بالجلوس في المسجد بل وسمح له حتى بإلقاء موعظته هناك ، ثم وصل زويمر إلى باطنه[٨٧] على ساحل عمان ، وقال بأن مصاريف رحلته ومن ضمنها مصاريف المرافقين ، كانت تسعين دولاراً .

وبعد فترة قصيرة جداً من زيارة زويمر إلى البريمي ، جاءها بيرسي كوكس Percy Cox الذي كان في حينها ممثل بريطانيا في مسقط ، وقد اشتهر كوكس فيما بعد لكونه المندوب السامي في العراق[٨٨] ، وكان في صحبة كوكس أحد أبناء شيخ أبو ظبي ، وكان شاباً ذكياً ناقشه في مواضيع التكنولوجيا الحديثة ، وعن مدى امكانية عبور الجزيرة العربية بواسطة المنطاد ، وفي ذلك الوقت كان في نية ملاح جوي [إنجليزي] اسمه بكون Bacon الاستفادة من الرياح السائدة التي تهب من الغرب إلى الشرق ، في أن يقلع من السودان بمنطاد على أمل أن يصل به إلى الخليج ، وكان هذا الرجل قد تمكن من عبور البحر الايرلندي بتلك الوسيلة وفي احدى المرات ، كاد أن يصطدم بكاتدرائية سانت بول [في لندن] .

واستمر كوكس في رحلته من البريمي بتشجيع من حكومة عُمان وفي عدة مناسبات تعرض كوكس إلى إطلاق النار ، واكتشف ان العادة جرت على أنه إذا كان الشخص عدواً ، فإنه سيرد على النار بالمثل وإلا فعليه أن يتجاهلها ، وعندما وصل إلى عبرى وجد أن أهلها لا يتذكرون رؤية شخص بريطاني من قبل ، ولذلك فقد أصر الجميع على مصافحته ، ولكن في تنوف[٨٩] ، صادف كوكس على كل حال من يتذكر مايلز الذي كان هناك قبل خمسة وعشرين عاماً ، وقد ادعى أحد شيوخ البلدة أن السماء

---

(٨٧) الباطنه : منطقة في عمان ومن مدنها صحم وصحار (المترجم) .

(٨٨) كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى وقبل الاستقلال (المترجم) .

(٨٩) قرية تقع في المنطقة الداخلية وتشتمل على عدد من القنوات (الأفلاج) وفيها مصنع لانتاج المياه الصحية (المترجم) .

قد أمسكت عن المطر منذ أن قام ذلك النصراني بالتقاط الصور وطالب بتعويضه عن الخسائر التي لحقته في محاصيله الزراعية ، إلا أن كوكس رفض قبول دعوى كهذه . وبعد أن استقبلت البريمي زائرين في خلال ثلاث سنوات ، توقفت الزيارات عنها بعد ذلك لمدة ربع قرن آخر حتى وصلت إليها بعثة التنقيب عن النفط في عام ١٩٢٥م ، وعندما زارها وِلفرِد ثسجر Thesiger في عام ١٩٤٨م وجدها في عزلتها كما كانت ووجد كذلك صعوبة الوصول إليها ما برحت قائمة إلاّ أن كاتب هذا الكتاب زارها في عام ١٩٧٠م في سفرة دامت ساعة واحدة من أبو ظبي بواسطة طريق بري مُعَبّد ومزدوج ، وشاهد هناك أساسات المبنى المخصص لفندق هيلتون .

وفي عام ١٨٩٤م زار مسقط كلٌ من ثيودور بنت وزوجته ميبل ، اللذين تحدثنا عنهما في الفصل السابق وقد استقبلهما السلطان الشاب ، ولاحظا في قصره وجود قفصين ، أحدهما يحتوي على مجرم والثاني على أسد . وفي نفس العام سكن في مسقط عدد من الأطباء الأمريكيين ، كجزء من بعثة تبشيرية نصرانية ، وقد أعطى أحدهم واسمه بول هاريسون Harrison صورة مضحكة لحياة الطبيب هناك ، فذكر أن أحد الشيوخ جاء لعلاج أسنانه وقد أحضر معه عبده الذي يجب أن يجرب الطبيب مهارته عليه قبل أن يفتح حضرة الشيخ فمه لتلقي العلاج ، ومرة جاء بدوي وترك حماره كثمن لبعض الأدوية ولكنه رجع بعد فترة وسرق الحمار بعد أن قامت البعثة بتسمينه . وقد قام هاريسون بعدة رحلات في المناطق الداخلية الممتدة على طول طرق الجبل الأخضر الشديدة الانحدار والتي سبق أن وصفها ولستد ، وقد تجول هاريسون وهو مطمئن إلى الطريق الذي يتسلقه حماره مثل الهر فقد كان الحمار يتوقف بين آونة وأخرى ليشم طريقه مثل الكلب .

لقد تجاهلنا حتى الآن المنطقة الجنوبية لعمان مع أنها من الناحية الآثارية تعتبر أهم بكثير من بقية المناطق ، ويعتقد الباحثون أن ظفار هي «عفير Ophir» التي ذكرت في

التوراة[٩٠] وكان من أوائل الزوار لهذه المنطقة ، بعض البحارة البريطانيين الذين وصلوا إليها قبل نهاية القرن السابع عشر بعد تحطم سفينتهم [قرب الساحل] وقد أكرمهم الأهالي وعاملوهم معاملة حسنة ، وقد علم البريطانيون فيما بعد أن زعيماً دينياً قد تنبأ بوقوع الحادثة فأمر البدو بحمايتهم ، وقد أخذوا براً إلى مسقط وكان طعامهم التمر وحليب الناقة ، وعندما أحسوا بالمرض اهتم الأعراب بهم وعالجوهم بالكي .

مع هذا فقد كتب أوفنجتون Ovington بعد سنوات من ذلك ، أن الظفاريين مؤذون جداً في معاملاتهم التجارية ولؤماء مع الأجانب ، ثم مضى يصف ممارستهم الدينية قائلاً «وهم في حماسهم الشديد ، فإنهم لا يستحون أحياناً من ادعاء الوحي وبخاصة عندما تنتابهم صرعة الرقص ، وذلك لأن لديهم نوعاً من الرقص فيه من الجهد والحماس ، والفورة والعاطفة ما تخور به قواهم ، وما تخذلهم به حيوتهم أثناء هذه الحركات العنيفة ، وأخيراً عندما يستنفذون طاقاتهم يسقطون على الأرض كالموتى ، وبينما هم كذلك ونزوة المرح تمتلكهم ، فإنهم يصيحون «الله أكبر» . ولكن وكما سبق أن رأينا فإننا للأسف لا نطمئن إلى كلام أوفنجتون [بسبب عدم زيارته لجنوب الجزيرة] .

ونسمع معلومات قليلة أخرى عن ظفار حتى الثلاثينات من القرن الماضي عندما بدأت البحرية البريطانية بمسح سواحلها وكان من أفضل المعلومات التي وصلت حينئذ ، هى تلك التي كتبها الكابتن هاينز Haines الذي قابل رجلاً أمريكياً من بين رجال القبائل ، حيث يقيم هناك منذ ثلاثين عاماً مضت ، بعد أن أسره القراصنة ، ودخل في دين الإسلام ، وتزوج من إحدى النساء هناك . وقد استمتع مع البدو بمشاهدة البريطانيين وهم يلعبون كرة الكركت على الرمال . ووصف هاينز سكان المنطقة ، وهم من قبيلة «القرا Qara»[٩١] ، أنهم نشيطوا الحركة ، يتسلح أكثرهم بالعصى ، والتي إذا

---

(٩٠) الواقع أن هذه الكلمة "Ophir" بعيدة في لفظها عن ظفار وقد تكون كلمة «سفار» التي وردت في الفقرة (٣٠) من الاصحاح العاشر في التكوين ، أقرب إلى لفظ ظفار (أنظر ، علي ، ج ١ ص ٤٢٣) – المترجم .

(٩١) لازالت هذه القبيلة معروفة بنفس الاسم في منطقة ظفار ومن الأفخاذ المتفرعة منها : المعشنى ، جعبوب ، العمرى ، كشوب ، تبوك ، باق ، بيت سعيد ، حردان (المترجم) .

رميت على مسافة مائة قدم فإنها قد تقتل ، كما وصفهم أنهم أناس كرماء جداً ، ويذكر أنه في إحدى الولائم التي أقيمت له على بعد أميال قليلة في الداخل ، قدمت له زوجة وبعض رءوس من الغنم . لقد كان الترحيب به كبيراً جداً لدرجة أنهم منعوه من الشرب من العيون الجارية وكلما حاول ذلك قدموا له فوراً طاسة من الحليب ، ووصف ضابط آخر ، غلايينهم [جمع غليون] بأنها مصنوعة من الكلس Lime ويحملون سيوفهم مائلة على الكتف الأيمن وهي مجردة من أغمادها .

أما أول الأوربيين الذين توغلوا في المناطق الداخلية لأكثر من أميال قليلة ، فهو بنت وزوجته وذلك في عام ١٨٩٤م ، وقد بقيا فترة في الحافة[٩٢] مع حاكمها الشديد ، ولاحظا عدداً من السجناء مكبلين بالحديد وآخرين مشدودين بالسلاسل إلى كتل خشبية ، ينوحون ويصرخون طوال الليل . وقد جهزهما الحاكم بقافلة مع سبعة عشر شيخاً ، أجرة كل واحد منهم نصف دولار في اليوم ، ويقول بنت : «إننا لم نتعامل مع رجال قساه طوال حياتنا مثل هؤلاء الذين رافقونا في رحلتنا هذه» وقد لاحظت السيدة بنْت ، أن الإبل الضفارية مولعة جداً بالعظام البالية وقد تنقض عليها من الطريق لتلتقطها ثم تمضغها كلما سنحت لها الفرصة ، وقد أعجب بنت وزوجته كثيراً بمناظر الطبيعة الخلابة ، ولم يتوقعا أن في الجزيرة العربية القاحلة بقعة بهذا الجمال المدهش ، الذي يعتبر واحداً من أعظم المفاجئات التي مرت عليهما في حياتهما .

بعد مغادرة هذين الزوجين غير المحترفين لفن الرحلات ، يبدو أنه لا توجد رحلات ذات شأن في ظفار حتى أواخر العقد الثالث من هذا القرن عندما جاء رحالة محترف جداً في هذا المضمار وهو بيرترام توماس Bertram Thomas الذي شغل وظيفة ضابط سياسي في العراق ، قبل أن يصبح في عام ١٩٢٤م وزيراً لسلطان مسقط الذي اصطحبه في عدة زيارات إلى المناطق الشرقية لساحل عُمان ، وقد دون توماس ما شاهده من عادات الناس وتقاليدهم ، ومن الأشياء التي لاحظها ، أن علاج المرضى

(٩٢) الحافه : أحد أحياء مدينة صلاله وكان يسكنها الصيادون (المترجم) .



صورة فوتوغرافية لبيرترام توماس التقطها بنفسه وهو يستعد للقيام بأول عبور للربع الخالي .

يتم إما بإبتلاع قيء البقرة الذي يتم الحصول عليه بإدخال عصا في حلقها ، أو باسترضاء الجنيّ الذي سكن في المكان الذي أصيب فيه المريض وذلك بارسال فتاة عذراء مع قربان من بيضه .

وذكر لنا أيضاً ، كيف أن رجلاً صمم على أن يكفر عن خطيئة قتله لعمه [أو خاله] بالرغم من تنازل عائلة القتيل وأخيراً حكم أحد الشيوخ ، أن يسير هذا الرجل إلى الخلف بإتجاه بئر وضعت فيه نتوءات جارحة ولم يبال الرجل بذلك فأخذ يسير نحو البئر ، وفي اللحظة الأخيرة سارع أقاربه فأمسكوا به .

لقد كان هدف توماس الرئيسي ، هو عبور الربع الخالي ولحسن الحظ أن لديه متسعاً من الوقت ليعد نفسه ، وفي الفترة ما بين ١٩٢٧ ، ١٩٢٨م قام برحلة في ظفار على ظهر جمل أخذه لمسافة ٦٠٠ ميل ، وفي فصل الشتاء التالي ركب باتجاه الشمال حتى وصل إلى حافة رمال الربع الخالي ، وفي أثناء هذه الرحلات ، استطاع توماس أن يحصل على ثقة رجال القبائل وذلك لأنه تصرف تماماً مثل تصرفاتهم : فأطلق لحيته ، ولبس ما يلبسون وأكل ما يأكلون ، وأقلع عن التدخين وشرب الخمر وقد تعرض معهم عدة مرات لإطلاق النار ، وفي رحلته الثانية ، اتفق توماس مع بعض الرجال من قبيلة

الراشد[٩٣] على ملاقاته في السنة القادمة ليأخذوه إلى مكان يستطيع أن يلتقي فيه مع بدو من قبيلة مره عند قدومهم من الشمال .

وقد بدا في أول الأمر كما لو أنه سيصاب بخيبة أمل ، حيث كانت هناك شائعات عن حروب وغزوات ، فقد كان يعتقد أن [قبيلة] صعر Saar ، ذئاب الربع الخالي ، كانوا في طريقهم للحرب ، وعلى أي حال ، فقد بدأت البعثة رحلتها من ظفار في العاشر من ديسمبر ١٩٣٠م ، وألقت أول نظرة على الخليج في الثاني من فبراير ، وكتب توماس عن الرمال فقال : «كم هي مدهشة منطقة التلال الرملية العظمى عندما شاهدتها للوهلة الأولى ، حيث نجد محيطاً شاسعاً من الرمال المتموجة ، فهي مرتفعات مفاجئة هنا ووديان متدرجة هناك ... دون أن تشاهد أي بقعة خضراء ، والتلال من مختلف الأحجام ولكنها غير متناسقة مع بعضها ، غير أنها باستدارتها الجميلة تشبه نهدي فتاة ، وترتفع تلك التلال طبقة فوق طبقة كمنظومة جبلية ولا وجود للظلال هناك ، فأشعة الشمس تكاد تكون عمودية» ، وكتب يقول أيضاً : «وهناك لحظات فوجئنا فيها بمشاهدة منظر خلاب ، في منتهى الأبهة والجمال لتصميم معماري بديع بلون أحمر – وردي ، تحت سماء صافية وضوء ساطع ... إنها طبيعة جميلة ، لا يضاهيها إلا جمال يوم شتائي في سويسرا ، لقد كان جواً مفعماً بشي من العظمة والابتهاج .

وقد أبان الرحالة الذين جاءوا بعد توماس ، أنه قد عبر الربع الخالي من أسهل الطرق ، التي يسلكها البدو عادة ، غير أن ذلك لا يقلل من أهمية الانجاز الذي حققه ، وقد مرت عليه لحظات خطرة ، تمثلت في احتمال وقوع هجوم ، ولكن الرمال دفتر عام لكل الناس ، لتدوين يومياتهم ، فعند رفاقه قدرة على معرفة من يكون هناك وحتى معرفة هوية الإبل بوساطة أثر الأقدام على الطريق ، وقد وجد ثسجر فيما بعد ، أن البدوي يستطيع أن يخبره ، من بعر الجمل ، عن المرعى الذي رعي به الجمل أخيراً ، وعن الوقت الذي مر به في ذلك الطريق ، وقد سمع توماس أزيز الرمال أثناء الرياح الذي دام لمدة

(٩٣) تتفرع هذه القبيلة إلى فرعين رئيسين : بيت يماني والراشد وتقع منازلها ما بين ظفار والربع الخالي (المترجم) .

دقيقتين وشبهه بصفارة المرفأ التي تنذر السفن بوجود ضباب ، ومما زاد في قيمة كتابه ؛ الصور الفوتغرافية الرائعة التي التقطها .

إن مساهمة توماس في التعريف بهذا الجزء من الجزيرة العربية ، لا يضاهيه أحد ، فقد كانت اهتماماته واسعة ، وقد اهتم بالقصص الشعبية المتداولة بين البدو ، فيخبرنا أن الضَبْعة تُعتبر ناقة الساحرة ، وأن القِرَدة من سلالة شخص سرق نعال الرسول ﷺ ، وأن العلامة السوداء في ذيل الأرنب البري ، ظهرت بعد أن ضرب الرسول ﷺ أرنباً بعصا محروقة لأنها سلمت رسالة لغير صاحبها ، وكان لتوماس اهتمام كبير في علم الحيوان ، وخبرة في التنبه إلى أخطارها ، فمثلاً ، أحضر له بدوي مرة أفعى كوبرا يبلغ طولها خمسة أقدام ، كانت ما تزال على قيد الحياة ، وكان توماس مهتماً أكثر بدراسة الناس القاطنين على حواف الرمال والذين يعتبرهم من بقايا سكان الجزيرة العربية الأصليين ، قبل أن ينزح الساميون إليها ، فدرس لغاتهم الغريبة وقاده هذا البحث إلى زيارة منطقة مسندم وهي شبه جزيرة تبرز من عُمان باتجاه إيران ، وقابل رجال الشيحو[٩٤] الذين يعيشون في الكهوف ، وقد وجدهم يعيشون في حفر يتراوح عمقها بين ١٢ – ١٤ قدماً ويصل طولها إلى ١٥ قدماً وعرضها ١٢ قدماً ، جدرانها مبنية من الحجارة وسقوفها من الخشب المغطّى بالرمل ، حتى إنه يصعب رؤيتها أو تمييزها ، ووصف لنا رقصاتهم الشعبية حيث يقف اثنا عشر رجلاً في حلقة ، ويبدأ قائدهم يولول مغنياً ، فيردون عليه بصوت شبيهٍ بنباح الكلب ، وفي كل مرة يرمون سيوفهم في الهواء ثم يلتقطونها بأيديهم العارية ، ثم ترك توماس مسقط في عام ١٩٣١م ، وقدم فيما بعد خدمة جليلة ، حيث أصبح أول مدير لمدرسة الدراسات العربية الموجودة حالياً في شملان بلبنان .

وبعد الحرب [العالمية الثانية] بدأ ولفرد ثسجر Welfred Thesger سلسلة من العبور للربع الخالي التي أخذته إلى عدة أماكن مثل ليوه Lewa التي لم يصلها أي أوربي

(٩٤) تعرف هذه القبيلة بالشحوح ومنازلها في مسندم في شمال عمان (المترجم) .

قبله ، وقد بدأ ثسجر اكتشافاته منذ أن كان طالباً في المرحلة الدنيا في الجامعة ، ثم بعد أن أصبح مسئولاً إدارياً في أحد المقاطعات في السودان ، قام بعدد من السفرات التي قطع فيها مسافات طويلة على ظهر الجمل ، وبعد مغامرة الحرب ، عمل في منظمة مكافحة الجراد الصحراوي ، التي ساهمت كثيراً في جمع المعلومات عن الجزيرة العربية .

وفي رحلته التي قام بها في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٤٦ ومايو ١٩٤٧م ، استطاع ثسجر أن يعبر الربع الخالي مبتدءاً من صلاله إلى ليوه ثم سافر في طريق شبه دائري إلى المكلا ، وقد جهز نفسه في رحلته بالة تصوير ، و«بارومتر» معدني ، و«مكبس للنباتات Press for Plants» ، وصندوق صغير للأدوية ، وجزء من كتاب جيبون Gibbon ، ونسخة من قصة الحرب والسلام [لتولستوي] كما أخذ معه ألفي رطل من الطحين ، و٣٠٠ رطل من الأرز ، وبعضاً من السمن ، وكميات من القهوة والشاي ، أما بالنسبة للّحم فقد اعتمدوا على ما استطاعوا صيده خلال الرحلة ، وقال ثسجر إنهم اصطادوا أرنباً وحشياً وقد قبلوا على مضض أن يشاركهم فيه جماعة من البدو الذين مروا بهم ، طبقاً للأصول وعادات البادية في الكرم والضيافة ، وذات مرة سرق ثعلب منهم لحم غزال ودفنه في مكان ولكنهم عثروا عليه وما كان منهم إلا أن نفضوا التراب عنه ، وأكلوه في لذة متناهية .

وقد تألفت قافلة ثسجر في بداية الأمر من ٢٤ رجلاً ولكنه استغنى عن أكثرهم لتوفير الطعام والشراب ، حتى وصل تعدادها أخيراً إلى أربعة رجال وخامسهم ثسجر ، وكان قد سبق لأحد هؤلاء الأربعة أن عبر الرمال كلها لوحده ، وقد كانت رفقة هؤلاء الرجال ومحاولة فهمهم ، تعني الشيء الكثير بالنسبة لثسجر الذي يقول : «لقد شعرت بعاطفة شخصية نحوهم وتعاطفت معهم بسبب صعوبة حياتهم» وقال أيضاً : «... لقد نظرت إلى الماضي بشوق شديد . وإلى الحاضر بامتعاض ، وإلى المستقبل بخوف ورعب ... ، الساعة تلو الساعة ، سار جَملي وكأنه يرنو باتجاه أفق لا يمكن تحديده ...» ، ولا ريب في أن ثسجر شعر بالطمأنينة في الصحراء ، ولم يكن يعاني من

الوحدة بقدر ما كان يتوق للانفراد بنفسه .

جمع ثسجر كثيراً من المعلومات عن البادية وأعطى صورة واقعية عن كيفية حياة الرجال في الصحراء ، أما بعض وصفه الجغرافي فهو على نمط سابقيه : «رملة الغفى Al-Ghafa ، جميلة جداً ويتراوح ارتفاع أكبر كثبانها ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ قدم وهو رمل أحمر موشح بألوان الذهب والفضة ومنقط بنباتات ذات أزهار صفراء ، تتخللها شجيرات صغيرة بلونها الأخضر البراق» ، ومع هذا فإن ثسجر قال : «ليس لرحلتي عند الآخرين ، سوى أهمية بسيطة وكل ما نتج عنها هو خارطة خالية من الدقة ، قد لا يستفيد أحد منها مطلقاً ... فرحلتي هذه لا تعدو عن تجربة شخصية ، وكل ما كوفئت به هو جرعة من ماءٍ صافٍ لا طعم له تقريباً ، وقد قنعت بذلك» .

كما أشرنا في الفصل الأول ؛ إن كثيراً من الناس قد ذهبوا إلى الجزيرة العربية ليكتشفوا أنفسهم ، أكثر من ذهابهم لاكتشاف شبه الجزيرة ، ولا يمكن لأي إنسان أن يظهر تحت أشعة الشمس المحرقة أو وسط الصحراء العربية القاسية على غير حقيقته ولكنه ، بالاضافة إلى سبره لأغوار نفسه ، فإنه قد يلتقي بجنس من أكثر الأجناس التي خلق الله فيها فتنة وسحراً ، إن مثل تلك التجربة لن تعود مرة أخرى ، فكما يقول ثسجر بأنه سيأتي للجزيرة العربية كثيرون للدراسة ، ولكنهم سيتنقلون هنا وهناك بوساطة السيارات وبوساطة الراديو ، سيبقون على اتصال مع العالم الخارجي وسيعودون بنتائج ذات أهمية أكثر بكثير من النتائج التي حققتها ولكنهم لن يتعرفوا مطلقاً على روح تلك الأرض ولا على عظمة العرب .

[تم بعون الله]

المراجع التي استخدمها المترجم في الشروحات

أولاً – المراجع العربيـــــة :

١ – القـــرآن الكريم

٢ – ابن تيميه ، أحمـــد — **مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيميه جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم** ، المجلد ٢٧ (الرباط بدون تاريخ) .

٣ – ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح — **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجـــد** (الرياض ١٩٨٦م) .

٤ – البركاتي ، ناصر عبدالله سلطان — «التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف» **العصور** ، المجلد ٢ ج ٢ (ذو القعدة ١٤٠٧هـ).

٥ – جبـــرا ، جبرا إبراهيم — «بلاد العرب من جغرافية استرابون» **مجلة المجمع العلمي العراقي** ، ج ٢ (١٩٥١م) .

٦ – حـــافظ ، اسماعيل أحمد — «باب الكعبة المعظمة على مر العصور» الداره ، العدد ٣ السنة السابعة (١٤٠٢هـ) .

٧ – رافـــق ، عبدالكريم — **العرب والعثمانيون** (دمشق ، ١٩٧٤م) .

٨ – الصبــــاغ ، محمد بن لطفي — **لمحات في علوم القرآن** ، ط ٢ (بيروت ، ١٩٨٦م) .

٩ – عبدالكريم ، أحمد عزت — **دراسات في تاريخ العرب الحديث** ، (بيروت ، ١٩٧٠م) .

١٠– عبدالله ، عبدالقادر محمود — **اللغة المروية** ، ج ١ (الرياض ، ١٤٠٧/١٩٨٦م) .

١١– علي ، جـــواد — **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت ، ١٩٧٦م) .

١٢– عمـــر ، عمر عبدالعزيز — **دراسات في تاريخ العرب الحديث : الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر** (بيروت ، ١٩٨٠م) .

١٣- عــــوض ، عبدالعزيز محمد — **الإدارة العثمانية في ولاية سوريه : ١٨٦٤ - ١٩١٤م** (القاهرة ١٩٦٩م) .

١٤- محمـــــد ، محمود شكري — «بلاد العرب : من تأريخ بلينوس» **مجلة المجمع العراقي** ، ج ١ المجلد ٣ (١٩٥٤م) ص ١٣٠ - ١٤٢ .

١٥- المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيــــد — **كتاب الجغرافيا** ، حققه اسماعيل العربي (بيروت ، ١٩٧٠م) .

١٦- **المــــورد** ، ط ١٦ (١٩٨٣م) .

١٧- نصيف ، عبدالله آدم — «القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة» **العصور** م ١ ج ٢ (شوال ١٤٠٦هـ) .

١٨- نلسون ، وآخـــــرون — **التاريخ العربي القديم** ، ترجمة : فؤاد حسنين علي (القاهرة ، ١٩٥٨م) .

١٩- الهويمل ، حسن فهـــــد — **هذه بلادنا : بريده** (الرياض ، ١٤٠٢هـ) .

٢٠- الواسعي ، عبدالواسع بن يحيى — **فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن** ، ط ٢ (القاهرة ، ١٩٤٧م) .

٢١- يوسف ، حمد أحمد عبدالله — **بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية** ، ط ١ (القدس ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

ثانياً - المراجع الأجنبيـــــــة :

1- The Bible.

2- Doughty, C. **Arabia Deserta** (London, 1926).

3- Freeth, Zahra and Winstone, V. **Explorers of Arabia** (London, 1978).

4- Ghabban, Ali Hamed, **Introduction à L'etude archeologique des deux Routes Syrienne et ègyptienne de pelerinage.**

رسالة دكتوراة دولة غير منشورة ، جامعة بروفانس ، فرنسا (أبريل ١٩٨٨م)

5- Lawrence, T.E. **Seven Pillars of Wisdom** (London, 1941).

6- Meulen, D. Van Der and Wissmann, H. Von **hadramaut, Some of ito Mysteries Unveled** (leyden, 1964).

7- Philby, H. St. T. **The Land of Midian** (London, 1957).

8- Al-Qasmi, S. M. **The Myth of Arab Piracy in the Gulf** (London, 1986).

9- **Westrn Arabia and the Red Sea** (Oxford, 1946).

10- **Who did What** (Mitchell Beazley Publishers Ltd., U.K., 1974).

٢٠